هشام علي حافظ
جودت سعيد
خالص جلبي

أيها المحلفون الله.. لا الملك

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

طبعة جديدة
مزيدة ومنقحة

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

أيهَا المحلفون

اللـه.. لا المَلك

هشام علي حافظ
جودت سعيد
خالص جلبي

أيها المحلفون
الله.. لا الملك

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES
BOOKS

TO ALL JURIES
GOD NOT THE KING

By Hisham Ali Hafez
Jawdat Said
Khales Jalaby

First Published in November 2001
Second Published in March 2002
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT - LEBANON
info@elrayyesbooks.com • www.elrayesbooks.com

ISBN 9953 21 036 5

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

الغلاف: تصميم محمد حمادة
الطبعة الأولى: تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠١
طبعة ثانية منقحة ومزيدة آذار/ مارس ٢٠٠٢

المحتويات

تعريف بالكتاب 9

يا حبيبتي.. 11

المهم.. أن لا تنسدّ المجاري 17

يكفيني دفء لقائي..!؟ 21

والسموم سلاح قديم للخيانة.. 25

شجيرةٌ.. في صحراء الجفاف.. 29

مرافعة مولانا محمد علي أمام محكمة هندية ـ إنكليزية (في كراتشي) عام 1921 33

تعليق الأستاذ جودت سعيد 81

1 ـ عصر الظلمات العربي 127

2 ـ مثلث المواطن والمثقف والسياسي 133

3 ـ أتراه كالفأر يا أبت؟ 139

4 ـ خرافة التسلح 145

٥ ـ نعال للجمال ١٥١
٦ ـ حقيقة القوة أم قوة الحقيقة؟ ١٥٧
٧ ـ السجون الأربعة ١٦٣
٨ ـ فرد في مواجهة مجتمع ١٧١
٩ ـ أحرق حياً ١٧٧
١٠ ـ ثمن حرية الرأي ١٨٣
١١ ـ لماذا قتل ابن المقفع؟ ١٩٥
١٢ ـ محنة المثقف ٢٠١
١٣ ـ لماذا اخترت اللاعنف؟ (١) ٢٠٧
١٤ ـ لماذا اخترت اللاعنف؟ (٢) ٢١٣
١٥ ـ لماذا اخترت اللاعنف؟ (٣) ٢١٩
١٦ ـ اللاعنف أسلوب الأنبياء في صناعة المجتمعات ٢٢٥
١٧ ـ حرية التفكير وحرمة التعبير ٢٣١
١٨ ـ فلسفة التفكير والتعبير ٢٣٧
١٩ ـ حرية التعبير أين حدودها؟ ٢٤٣
٢٠ ـ حرية التعبير واللاعنف ٢٤٩
٢١ ـ التربية الديموقراطية ٢٥٥
٢٢ ـ موت مؤسسة الحرب ٢٦١
٢٣ ـ يوم السلام ٢٦٧
ليتني.. ليتني ولدت على أرض الأعداء ٢٧٥
ربما.. تجد الجواب.. ٢٨١
في كل أرجاء الوطن.. ٢٨٥
لا بدّ أن تكونوا.. مثلي.. ٢٨٩
العذراء...؟ ٢٩٥
فهرس الأعلام ٢٩٩
فهرس الأماكن ٢٠٣

تعريف بالكتاب

هذا الكتاب يقوم على واقعة مثيرة حدثت عام ١٩٢١ حينما رفض مفكر مسلم في الهند الالتحاق بالقوات البريطانية لقتال دول إسلامية أخرى وقُدِّم للمحاكمة وقام أثناءها أي (مولانا محمد علي) بمرافعة شهيرة في محكمة كراتشي أمام هيئة محلفين اضطرت أمام قوة حجته وبيانه الرائع أن تخلي سبيله. وهذه المرافعة تثير الوعي وتحصّنه بنوع جديد من المقاومة غير قوة السلاح، وهو ما أثار فريق العمل الثلاثي الذي عكف على الكتاب فاشترك في الاستفادة منه وتبيين هذا النوع الجديد من المقاومة كي يتسلح به الضمير المسلم. ثلاثي العمل هم: هشام علي حافظ المؤسس لمطبوعات الشركة السعودية للأبحاث والنشر، والمفكر جودت سعيد والدكتور خالص جلبي الكاتب في جريدة «الشرق الأوسط». ولقد عرض هشام حافظ أفكاره على صورة جميلة من الشعر، كما علّق جودت سعيد في تعقيب مسهب طويل على الحادثة، أما خالص جلبي فقد

كتب العديد من المقالات في جريدة «الشرق الأوسط» حول فلسفة القوة والمقاومة رأى أنها تفيد في إضاءة هذه الواقعة. فجمعت في هذا الكتاب.

فريق العمل

يا حبيبتي..

أَزمِنتي تنتظرْ..
شُلّتْ.. تكاد تنتحرْ..
تستفزّها الأيامْ..
تغرقها الأعوامْ..
توقظها الصدمةْ..
تسأل بإسهابْ..
من أينَ أتيتُ.. أنا..؟
ومن أكون.. أنا..؟
وكيف أجد نفسي..
وكيف أحدّد مصيري..
فيأتيها الجواب بالمقلوبْ..
من مجتمع معطوبْ..
لا يفرّق بينَ..

الواحة والسّرابْ..
البقاء والهروبْ.

* * *

انْدحرت الثقافة..
فرغت أسواق النّخاسه..
من المصفقينْ (المثقفينْ..!)
فالكلُّ يحتفظ بما عنده..
من المصفقين (المثقفينْ..!)
إلاّ القليلْ..
حُطِّمت أقلامهمْ..
كُمِّمت أفواههمْ..
ووضعوا في السجون..
فماتوا من ضيق التنفّس..
أو هاجروا يطلبون الحريّة..
في أي مكانٍ..
على الكرة الأرضيّة.

* * *

هكذا.. صارتْ أزمنتي..
في الوقت الراهن...
كأزمنة عباد الله المستعبدينْ..
من عصور الأمويين والعباسيينْ..
ثم التّرك العثمانيين..

والسلطة تغري مستقبلنا..
تزركشه بماضينا البائسْ..
لننسى حاضرنا..
زيّفوا الفجرَ والضياءْ..
حملوا الفجرَ إلينا في الظلامْ..
نقلوا الضياء إلينا..
في عرباتِ الموتى..
وقالوا لنا..
هذا هو الفجر المنتظرْ..
هذا هو الضياء المعتبَرْ..
يقولونَ والمكانُ يسودهُ..
ضباب كلماتٍ سامّةْ..
كضبابِ غازٍ سامّ..
تدحر عقولنا البليدةْ..
تحرمها من التفكير والتّفكُّرْ..
تحولنا إلى أغنامْ..
تبلّلنا بالإحباطْ..
تنعشنا بالذّلْ..
وتمحونا من الخريطةْ.

* * *

ويلي من الاستبدادْ..
آهٍ من زمنٍ كسيحْ..
وأيّام ترتوي..
من دم المسيحْ..

تنام خائفة مرتجفة..
من عناءِ الجبنْ..
سعيدة تنشدُ للحزنْ..
تفيق على فجر الطغاة..
تفخر بأنها منتشرة..
من المحيط إلى الخليجْ..
تتفرج على سفن الأعداءِ..
في بحارنا والقناة..
ويلنا من طغاتنا..
يحاربوننا بالتعذيب والسجون..
السحق والقتل والجنون..
ويحاربون أعداءنا..
بقنابل الكلماتْ..
جيوش المظاهراتْ..
وينتصرون باتفاقيات الاستسلامْ.

* * *

ويلنا.. ننشد المواويلْ..
بالدّمعِ والعويلْ..
فيزدرد الصبرُ المرارةْ..
وتقدس الأقاويل العبارةْ..
ويصحو المارد السكرانُ..
بالأكاذيب والفساد والنّفاقْ..
وأحاديث موضوعة للتخفّي..
فتاوى جاهزة.. للتشفّي..

أحلامٌ ممضوغة بالجراحْ..
أماني تطوّحها الرّياحْ..
وأساطيرُ تجلدنا.. تجلدنا..
بالطغيان والفساد والاستبدادْ.

* * *

آهٍ.. أين أنتِ..؟
يا حبيبتي.. أين أنت..؟
آهٍ.. أين أنتِ..؟
يا قريبةْ.. يا بعيدةْ..
آهٍ.. أين أنتِ..؟
أأنتِ أكذوبة أم حقيقةْ..؟
أين أنتِ يا معبودة الجماهيرْ..؟
يا عدوة الطغاة..؟
يا قدّيسة البشرْ..
يا رفيقة العدلْ..؟
يا من حوى حُسنك..
الزهور والشذى..
العطور والمنى والهوى..
الجمال والكمال..
والبراءة والعذريّةْ..
أين أنتِ يا حوريّةْ..؟
في أي مكانٍ..؟
في أي زمان أجدكِ..؟
يا حبيبتي.. يا حريتي..

أصرخُ.. أصرخُ.. أصرخْ..
أين أنتِ أيتها الحرّيةْ!؟
فيأتيني الجوابُ
من حواجر القهْرِ والعهْرْ..
وسدود الطغاة والظلمْ..
نحنُ.. نعم نحنُ..
الحريّه..!!

المهم.. أن لا تنسدّ المجاري

أنا فردٌ من أُمة..
تكالبت عليها الأممْ..
كما يتكالب الأُكَلَة على القصعةْ..
نحن لسنا قِلّةْ..
نحن كثرة كثيرة..
لكننا غثاءٌ كغثاء السّيلْ..
نُستهلك في النهارْ..
نتجرّع الألمَ والفزعَ في الليلْ.

* * *

أنا فرد من أُمة..
أكل عليها الدهرُ وشربْ..

كقصرٍ قديم وخرِبْ..
أساسه من طين. سقفه لا يستر..
عميقةٌ فيه الشقوقْ..
حوائِطهُ قديمة لم تتغيرْ..
مرفوضٌ أن تتغيّرْ..
رسمَ الصراع عليها بالشّروخ
لوحاتٌ بدماء هذه الأمّةْ..
والسكان.. ويلي من السكانْ..
في كل غرفة زعيمْ..
في كل بهو جنرالْ..
وفي المراحيض زعماء العصابات..
أما الممرات الموصلةْ..
فإنها تعجُ بالبغايا..
والمداخن تنفث المخدراتْ..
والمجاري العفنةْ..
مكدّسة بأشلاءِ الأمواتْ..
والأمة داخل القصر الخرِبْ..
موحّدة على التقاتلْ..
متّحدة على الخصامْ.

* * *

في خارج القصر القديمْ
الحديقة فسيحةٌ.. جميلة غنّاءْ..
صيفها عليل.. شتاؤها ربيعْ..
طيورها تغرّدْ.. خيولها تركضْ..

حمامها مُنطلق.. فواكهها ناضجةْ..
وثمارها مقدّسةْ..
احتلتها أُممٌ من الغرباءْ..
تقاسموها بالاتّفاقْ..
يعملون طوال النهارِ..
على تنميتها واستغلالها..
في الليل يجتمعونَ..
مع الملوك والطغاة والجنرالاتْ
البغايا والعصاباتْ
يعقدون الصّفقاتْ..
ينظّفون المجاري..
من أشلاء الأمواتْ..
لتستقبل الجديد من الضحايا..
ولا يهمّ.. لا يهمّ أبداً..
من همُ الضحايا..
إن كنت أنا الفردُ من هذه الأمةْ..
أو كنت المهيب في تلك الغرفةْ..
أو كنت الزعيم في ذلك البهوْ..
أو كنت البغيةْ..
أو كنت من العصابةْ..
المهم أن لا تنسدّ المجاري
بأشلاء الأمواتْ.

يكفيني دفء لقائي..!؟

أمّي أرضعتني التملكْ..
أبي لم يُعلمني العَطاءْ..
ثقافتي متطرّفة لا تُؤمنُ..
أن الحياة أخذٌ وعطاءْ..
أن الحب أسمى ما في الحياة..
في كل أوطاني..
منذ معاوية إلى الآن الحالي..
البشر صنفانْ..
صنفٌ ظالم..
وهو دائماً على صوابْ..
وصنف مظلومْ..
هو دائماً على خطأْ..
والعنف يبدّل الأدوارْ..

الحياة للصوت العالي..
السلطة والمال لقوة العضلاتْ..
الاستنكار والتنكر.. للحبّ..
العبودية للفقراءْ..
الجهل والمرض للضعفاءْ..
والعذاب والسجون والمشانقُ..
للرأي المخالف وللباحثين والعلماءْ.

* * *

في وطني البديل..
في وطن المساواة والحريهْ..
علّمني الغرباء الأحبابُ..
أن لا أشتكي الحيرهْ..
لا ألعن الأرق..
وعلموني أيضاً..
أن أُحيّد الغيرهْ..
أتجنب القلقْ..
أعيش في أعماق الواقعْ..
أدمن الحريهْ..
وأهتف للحب والإنسانيهْ..
وأعترف بالخطأ.

* * *

في هذه الأجواءْ..

أُعجبت بها فمالت لي..
التقينا لقاء العشاقْ..
نَزَعَتْ أغطيتي..
ما تعلمته وأحضرته معي..
ما ورثته عن الأجدادْ..
ألقته في مزابل الحريّةْ..
أحَرقَته في أفران المساواة..
دثّرتني بأغطيتها.
استغرقت في حبّها..
تعافيت بحرارة ودّها..
أصبحت حراً في الحياة..
انضممت إلى حزب المساواة.

* * *

لم أقل لحبيبتي يوماً..
أخذت كفايتي..
لم تطلب حبيبتي يوماً..
الكثير والمزيدْ..
كانت تردّدُ دوماً..
لبيك اطلب ما تريدْ..
وأنا في معاناة التخلّص..
من جهل ومجاهل الماضي..
في غابات المحرّمات الشاسعةْ..
والتسليم الأبكم للآباءْ..
أردّد بالتأكيد القاطعْ..

يكفيني دفء اللقاء..
بالمساواة والحريةْ..
بعد خروجي من جليد الخوف..
في كلٍّ ما كان أوطاني.

والسموم سلاح قديم للخيانة..

يظهر في كلِّ زمنٍ أغبرْ..
أناس كالوحوش.. كالشروخ.. كالحجرْ..
كالعنقاء.. كالاضطهاد.. كالغرابْ..
كالقبور.. كالسراب.. كالعذابْ..
أناس يحوّلون الأيسر للأعسرْ..
والخير إلى شرٍ مستطيرْ..
والأنفة والعزة والافتخار..
إلى ذُلّ كبيرْ..
والجنة الخضراءْ..
إلى جحيم مستعرْ.

* * *

كُتبهمْ مقلوبةْ..
أفكارهم معطوبةْ..
آراؤهم جرباءْ..
يلعنون الحسن والجمالْ..
يرتمون في حضن أودية جدباءْ..
يسبحون في بحورٍ مريضةْ..
يرتوون من أنهرٍ مسممةْ..
يرحبون بالتطرف والأذى..
ويغدرون بالمؤمنين الأبرياءْ.

* * *

يرتدون أثواباً كئيبة.. قصيرةْ..
يرفعون شعارات جوفاءْ..
يرسمون على الشفاهْ..
ابتسامات قاحلة صفراءْ..
نفوسهم حاقدة ومخيفةْ..
تقطر بالموت البطيءْ..
يرسمون على الوجوهْ..
التأفف والقسوة والعبوسْ..
يحملقون بعيون جريئةْ..
لا تخجل.. لا تنسى..
يلبسون وجوهاً مربّعةْ..
لا تستحي.. لا ترحمْ..
آذانهم مغلقة صمّاءْ..
وثغورهم مغلقة لا تبتسمْ.

والسموم سلاح قديم للخيانة..

يقولون.. لا بل يتقوّلونْ..
نحن المتقدمون.. أنتم المتأخرونْ..
يقولون.. بل يتقوّلونْ..
نحن السعداء.. أنتم الأشقياءْ..
يقولون.. لا بل يتقوّلونْ..
نحن المهتدون.. أنتم في ضلالْ..
ويقولون بل يتقوّلونْ..
أنتم في الدرك الأسفلْ..
نحن في أعلى العلياءْ.

* * *

هداكم الله وغفر لكمْ..
فالقبح من سِمات الشيطانْ..
الغدر من وصايا إبليسْ..
التطرف من الجنونْ..
والمؤمن في الوسطْ..
الله هو النور.. هو الجمالْ..
محمدٌ وكل الرسل والأنبياءْ..
هم السراج المنير المستنيرْ..
والكآبة والخوفُ..
من الشك.. من المصائبْ..
العبوس من التكبُّرْ..
الصدق الخادع المزيفُ..
نقود وعملة المنافقينْ..
الظلم.. القسوة والغدرْ..

من سجايا الطغاة الكافرينْ..
السموم سلاح قديم للخيانةْ..
الشقاء نسيم النارْ..
الحياء ستر المؤمنينْ..
والله الجميل.. الرحمن الرحيمْ..
يحب الجمال.. يحب الراحمينْ.

* * *

إني أدعو وأتوسّلُ..
لدى صاحب العزة والجلالْ..
لدى من سَيُدْخِل الجنة..
من آمن وعمل الصالحاتْ..
أن نسبح جميعاً في بحار التوبةْ..
أن نتطهر ونرتوي من نبع الغفرانْ..
ونؤمن أن أياً منّا لا يملك الحقيقةْ..
فنحن عبيد للحقّ..
بشرٌ متساوونَ في روض الحقيقةْ.

شجيرةٌ.. في صحراء الجفاف..

أعددت العدّة..
لطريقي المضني والطّويلْ..
رسمت لنفسي..
خريطة طموحاتي وآمالي..
كنتُ بعفويةٍ.. بدون تردّدٍ..
أُرضع الحبّ للجميعْ..
محبّين وأعداءْ..
معيني لا ينضب من التسامحْ..
أعلن بجسارة أن السرابَ..
هو الكذب بعينه..
أنّ الشهامة نعمةْ..
أنّ الخداع نقمةْ..
وأن الحقيقة هي تاج الحياة..

كان عقلي يقنع قلبي..
يُجبر نفسي..
على المضيّ بحزمٍ..
في هذا الطريقْ..
المحفوف بالمخاطرْ..
في هذا الزمان..
الملوّث بالخداعْ.

* * *

انخدعتْ..!؟ كم انخدعتْ..؟
انخدعت بظواهر الصدقْ..
اندهشتُ بتلاعب الألفاظْ..
نمت في حرير الرياء..
سكرت من خمر النفاقْ..
انخنقت بالتلوث المجنونْ..
وكدت ألفظ أنفاسي..
على وسادة الدّسائسْ..
كانوا كلّهم حولي..
وعندما بدأ العدّ التنازليّ..
وصرت فرداً لا قيمة لهْ..
أصبح الصّامتون عن سيرتي..
يُعدّون على أصابع اليدْ..
أمّا المتكلّمون والمتناقلونَ..
لحياتي وقصتي..
أما الجائعون المتهالكونَ..

لافتراسي وأكل لحمي..
فهم جمعٌ غفير..
ماذا أقول وقد طفح الإناءُ..
بكلّ أنواع المظالمْ..
وتحالفت سحب الخداعِ..
على قهري.. على جعلي...
سخرية الخبثاءْ..
تلوكني أحاديث الجهلاءْ..
وترميني بالعهرِ وبالفسقِ وبالكفرِ..
جُمل المتطرّفين المتهالكة الصفراءْ.

* * *

ماذا أقولْ..؟ ماذا أريدْ..؟
وحلمي لا يلتقي مع الغضبْ..
وكلماتي غيرُ مقبولة..
في مقاهي الغوغاءْ.. مرابع الترفْ..
فأنا في أعينهم كلّهمْ..
شاذٌ عن قاعدتهمْ..
منبوذٌ من مجتمعهم..
أنا مثلٌ خطيرْ..
أنا قدوةٌ مقلقةْ..
وأنا داءٌ فظيعٌ يجب التخلُّص منه..
أنا غصنٌ شاذٌ لا بدّ من قطعي..
أنا جذعٌ ثابتٌ لا بدّ من حرقي..
وأنا فردٌ منبوذٌ لا بدّ من قذفي..

إلى شوارعِ العدمْ.

* * *

لن يقدرُوا.. أنا شجرة عنيدةٌ..
نمتْ بالرغم من الجفافْ..
وستكبرُ عميقة الجذورْ..
صلبة الجذعْ.. قاسية الأغصانْ..
مكتظَّة بالأشواكْ..
وستحمل رمال الصحراءْ..
ذرّات لقاحِ ذكرٍ مشتاقْ..
لشجرة عنيدةٍ يتّحدُ معها ويلقّحها..
يُكوّن بها ومعها..
غابة من الأشجارْ..
تتحدى صحراء الجفافْ.

مرافعة «مولانا محمد علي» أمام محكمة هندية - إنكليزية في (كراتشي) عام ١٩٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

(بوجهه الصريح المشرق، وبلحيته التي خطها الشيب إلا شعرات سوداء تحفظ في سمته الرهيب عنفوان الأمل وشباب العزيمة... وقف محمد علي يومين في قفص الاتهام يترافع عن نفسه وعن شقيقه وإخوانه الخمسة في محاكمة كراتشي الشهيرة، سنة ١٩٢١، أمام هيئة محلفين من خمسة أشخاص: إثنان منهم هندوكيان والآخرون أوروبيون مسيحيون).

كانت جريمتهم أنهم اشتركوا في مؤتمر رأسه محمد علي زعيم مسلمي الهند قبل التقسيم وأصدر قراراً مدعماً بالقرآن والسنّة يدعو المسلمين إلى مقاطعة وظائف الحكومة البريطانية في الهند وخاصة العمل في القوات المسلحة، وقد استجاب المسلمون للقرار فاعتقل آلاف منهم، ووقع الإنكليز في حرج شديد.

لم ينكر محمد علي التهمة ولكنه اعتزّ بها، وجهر بحكم الله فيها. وما أتمّ مرافعته حتى استحالت القاعة محراباً خاشعاً، واقشعرّ كل من فيها رهبة من هذا الرابض في القفص... وصدر الحكم فكان مفاجأة للجميع، كان الكل ينتظر من هيئة ليس فيها مسلم أن تحكم «بالنفي المؤبد» فإذا هو حكم بالبراءة!

مات محمد علي (وهو غير مولانا محمد علي اللاهوري رئيس الأحمدية) سنة ١٩٣١ عن ٥٣ سنة، ودفن إلى جوار المسجد الأقصى الذي كان يحنّ إليه ويهيب بالمسلمين الذود عنه، بعد حياة عامرة بالجهاد في سبيل الله.

إن هذه المرافعة صفحة غرّاء من تاريخنا الحديث، وبرهان رائع على الحياة التي تجيش في كيان الأمة الإسلامية.

قبل أن يوجه محمد علي كلامه إلى هيئة المحلفين التفت إلى ناحية مجلس المحكمة فقال: «ألا يمكن أن يجلس المحلفون ليكونوا مني في هذا الجانب؟ إنني حتى الآن لم أرَ وجوههم. إنني أريد إغراءهم كما أغريت القوات المسلحة» (ضحك في المحكمة).

وعلى ذلك أوعزت المحكمة إلى المحلفين أن يغيروا أماكنهم، وكذلك القاضي غيّر وضع مقعده بحيث يواجه المتهمين.

ثم نهض مولانا محمد علي في السكون الشامل موجهاً كلامه إلى هيئة المحلفين:

أيها المحلفون: قد رجوت القاضي الرئيس ليتيح لي أن أرى

وجوهكم، إذ باستثناء واحد منكم لم يتيسّر لي ذلك، ولقد قلت إنني أريد إغراء المحلفين، ولقد كان في الحقيقة من وراء ذلك مراد آخر، ربما كان ثانوياً كما قد يقول المدعي العام. لقد كان مرادي أن تكونوا بمثابة ستر بيني وبين السيدات اللواتي يجلسن الآن خلفكم، وإلا فقد يزيد عليّ المدعي العام تهمة (إغراء) أخرى (ضحك) غير أني، على أي حال، أرى أنه نتيجة لمحاولتي في الإغراء قد حولت القاضي لناحيتي اليوم (ضحك).

أيها السادة: أظن أنني سآخذ من الوقت ما أستطيع ولذلك أرى لزاماً عليّ أن أبيّن لكم أنني إن أردت الدفاع عن نفسي أو عن زملائي لنتخطّى حكم النفي المؤبد أو المشنقة أو السجن ـ ولا أدري ما الذي يدخره القاضي لنا ـ إنني إن أردت ذلك، لما كان في الإطالة عذر أبداً، كلا أيها السادة، فما كان لي أن أضيّع لحظة واحدة من وقتي ووقتكم لهذه الغاية.

إنني لا أبتغي أي دفاع، وليس لدي ما أدفع به، لأننا لسنا نحن الذين نحاكم، إنها الحكومة نفسها التي تحاكم، إنه القاضي نفسه الذي يحاكم، إن نظام النيابات العامة بأجمعه وسائر مواد القانون هي التي تحاكم، فلا مجال لسؤال حول دفاعي، إذ هي قضية واضحة غاية الوضوح وقد أبديت شكري للحكومة في المحكمة الابتدائية لأنها تصدت للمرة الأولى، وبوضوح سافر، وأفسحت لنا المجال لأخذ قرار حول موضوع محدّد لدعوى واضحة بيّنة، ذلك الموضوع المحدّد للدعوى البيّنة الواضحة هو:

هل ينبغي لشريعة الله أن تكون أهم لدى التابع البريطاني من قانون الملك ـ القانون الوضعي ـ سمّوه صاحب الجلالة، أو صاحب

الجلالة الإمبراطورية، عظّموه بما شئتم له من تعظيم، أظهروا له كل طاعة، وقدِّموا له وسعكم في الولاء، احملوا له غاية التوقير والاحترام، أصيخوا السمع إن أردتم حتى لما يثار حوله من خرافات، غير أن القضية التي نحن بصددها هي: هل هذا الإجلال أو هذه الخرافات لها أن تقف لحظة واحدة في طريق الولاء الذي يحمله كل إنسان؟ أيها السادة، إنني لا أفكر لنفسي ولا أفكر من أجل زملائي المتهمين معي، ولكني أفكر لكم، إنه من سوء الحظ أن ليس بينكم مسلم واحد؛ فثلاثة منكم مسيحيون واثنان هندوكيان، ولكن ذلك لا يهم مطلقاً، فإنني إنما أخاطب أناساً من البشر. إنني أخاطب هنوداً في الأعم الغالب، لا أدري إن كنتم جميعاً هنوداً، ولعل واحداً بينكم غير هندي ـ إنكليزي مثلاً! ـ ولكنه استقرّ في الهند ليتخذ منها موطناً، وهو على هذا الاعتبار يمكن أن يعدّ هندياً! ولذلك فإنني أخاطب على الأقل أكثرية منكم قدموا من بلاد مشبعة بالروح الدينية، وهي تقليدياً بلاد روحية جاهدت خلال العصور لإعلاء شأن الروح على الجسد.

أيها السادة، إننا نسمع كثيراً عن التسامح في هذه الأيام المستنيرة، ولا أحسب أن أحداً، حتى المدعي العام يخالفني إن قلت إننا جميعاً بحاجة إلى هذا التسامح. إن الحكومة البريطانية لم تكلّ من ترديد قولها بأنها حكومة متسامحة، وأن الحكم البريطاني حكم موطد على أساس التسامح، ولست أظن أن هناك حكومة في هذا العالم المتمدن في هذا القرن الموفي على العشرين تجرؤ على القول بأنها تخالف قاعدة التسامح. ولكن، ما التسامح بعد ذلك؟ إنه كما ورد في القول المشهور: «سيدي، إنني أخالف كل كلمة مما ذكرت، ولكنني سأقاتل لآخر قطرة من دمي دون حقك في أن تقول ما تريد» ذلكم هو التسامح: أي أنه مطلوب حين يقع الخلاف، وحيث

يكون الناس على غير رأي واحد، وحيث يتخذ الناس وجهات نظر مختلفة جد متباعدة، وإلا فلا معنىٍ للتسامح، ولكنني مع ذلك لا أنكر أن من الناس من يحمل فِكراً خرقاء، وللأسف هم كثر، وأحسب أن المدعي العام وهو فرد من الناس، لديه بعض أفكار في غاية الحمق، ولا نزال ننتظر لنرى ماذا يحمل القاضي من الرأي، وسنعلم ذلك بعد أن أحمل على الصمت. وليس السؤال هنا ما إذا كان حكم الشخص صائباً أو خاطئاً، فقد يكون في أحكام الناس غباء، إلا أنه، إذا ما أعطاك رجل أو هيئة من الرجال ضمانة لتعبّر عن آرائك الخاصة وتطبّقها بحريّة، فإنني أعتقد أن من واجبهم أن يلتزموا تلك الضمانة.

نريد أيها السادة أن يفهم العالم قضيتنا، ونحب أن تذكروا أن القرار الذي ستتخذونه هنا لا ينحصر منتظروه في الحاضرين في هذه القاعة، أو عشرات الألوف من سكان كراتشي. لقد قيل آنفاً إن القرار الذي اتخذناه في مؤتمرنا الإسلامي لم يكن معنياً به الذين حضروه من بعض العلماء وبضعة آلاف من الناس. إنما اتّخذ ليتلقاه عدد أكبر، وهذه المحاكمة كذلك تهم أكثر من مستمعي هذه القاعة، أكثر من حضراتكم الخمسة من دون شك. بل هي في الحقيقة تهمّ العالم أجمع. إننا نبتغي حقنا في التمتع بحماية القانون لعقائدنا وتعاليمنا الدينية المتميزة، ولتندم الحكومة فتقول: إننا قد رأينا خطأ سبيلنا (ملتفتاً إلى مستر روس ألستن Ross Alston). هذه هي الكلمات التي يريدها صديق المستر ألستن لتكون آخر قولي، وإنها لسوف تكون كذلك، ولكن بالنسبة إلى ما هو جدير بها أن تفعله (ضحك). ترى هل تقول الحكومة ذلك؟ وهل هي ملتزمة عهدها في إطلاق حرية العقيدة؟ أم أنها ستقول: كلا! إننا أقوياء، إننا أشداء، إن لدينا مدمرات، إن لدينا طائرات، إن لدينا هذه

المرافق الحربية جميعاً، إن لدينا مدافع رشاشة، إننا قد دحرنا أقوى أمم أوروبا، وإن كان في حلفنا ـ طبعاً ـ ستة وعشرون دولة! (ضحك)، وكذلك رجال الهند وأموالها وسائر مواردها، ولكن هذه حالة أخرى! (ضحك)، لا يمكننا التسامح حيال آرائكم وتكاليفكم الدينية. إنها إن قالت ذلك فهو شيء نفهمه، ومهمتنا لذلك ليست الدفاع عن أنفسنا، ولكن إظهار هذه القضية واضحة، لأنها قضية وطنية، لا، بل هي أكثر من ذلك، إنها قضية يتوقف عليها إلى حد كبير تاريخ العالم: هل كلمة البشر في هذا القرن المتحضر ألزم ولاءً من كلمة الله؟ إن القضية ليست «بين محمد علي وستة آخرين من جهة والحكومة من جهة أخرى» ولكنها قضية (الله مع البشر) فهي لذلك بين الله والإنسان، هذه هي الدعوى، والمشكل كله «هل سيكون السلطان لله على الإنسان أم للإنسان على الله؟».

أيها السادة، لقد كنتم هنا ولم تكونوا المقصودين إذ أبينا القيام حين طلب منا القاضي أن نقوم. لقد اتفق أن تكونوا هنا، ولقد جهدنا دائماً في ألا نظهر للقاضي إلا كل احترام، ولسنا من الحمق بحيث نختلق مضايقات لا لزوم لها لإثارة القاضي واستفزازه، إننا لا نحمل حقداً عليه، وكل ما في الأمر أن ذلك لاعتبار احترام الإنسان مخالفة لاحترام الله، وكما قال أخي في محكمة البداية، وكما الآن، إننا لا نعتبر الملك ملكنا بعد الآن، إننا لا ندين بأي ولاء لأي إنسان يحول بيننا وبين حقنا في إخلاص ولائنا لله. ليس لديّ كلمة أقولها ضد الملك بالذات أو العائلة المالكة، ولكن عندما يكون الأمر أمراً «لله» ضد أية حكومة لا تطلب مني أن يكون احترامي الأول لله وشريعته. ولذلك كانت القضية كلها في الحقيقة كما قلت بين الله والإنسان.

لقد عرض المدعي العام مرافعته بمهارة فائقة، وعندما تعرّض لمعتقداتنا الدينية وأحكام الله، كان حريصاً على تخطيها بالسرعة الممكنة، وقد كان يتزحلق على جليد رقيق، فترك كل ذلك وراء ظهره، إنني الآن أتحدى، إنني أتحدّى القاضي ليصدر قراراً في هذه النقطة، إنها ليست مسألة حقيقة تلك التي عليكم معالجتها أيها السادة المحلفون، فإذا عالج القاضي قانونه في تقديره، وحكم علينا، وإذا اتخذت هيئة المحلفين في هذه القضية ـ التي تمثلون فيها دور المحلفين ـ قراراً ضدنا، وإذا هو استعمل حقه كقاض بالنسبة إلى الوقائع والقانون في القضايا التي تعطون فيها آراءكم كمستشارين فحكم علينا غير معتبر التزاماتنا الدينية، فعندئذ تتضح طريقنا. لا شأن لي بالعقوبة التي تنتظرنا، ولا تحت أي مادة من مواد القانون ستحل بنا، إذ هناك عدد من هذه المواد: ١٢٠ب، ١٣١، ١٠٩، ٥٠٥، ١١٧ وهكذا... وبالنسبة لهذه المواد والتهم المتعددة ما دام يعنيني أمرها، فقد اختلط عليّ الأمر جداً، وإنني أحاول أن أحصي مجموع السنين التي سيحكم بها عليّ (ضحك). إنني لا أملك سوى حياة واحدة، ولا أدري إن كانت كافية لتشمل هذه السنوات العديدة إذا عوقبت بما أستحق (ضحك).

ولكن ذلك لا قيمة له مطلقاً، إن الذي أريد هو قرار من المحكمة نيابة عن الحكومة بأن محاكم الهند ليس في مقدورها منح أية حماية لكل من يفعل مثل الذي فعلت ـ مع أنها تقر أن الذي فعلت أمر تكلفني به عقيدتي ويأمرني به ربي ـ إن الله بجلاله ينادي من علياء عرشه الخالد «أيها الإنسان الذي خلقته من علق، ورفعته إلى ما هو فيه من القوة والمجد، مهما تكن، ومهما يكن لديك، فإني أنا الذي أعطيتك، فاعبدني ولا تعبد أحداً من خَلقي دوني» فمهما يكن ما قد أحمله من احترام للملك، فإنني لا أملك

ولا أستطيع أن أخضع له حين يدعوني ألاّ أخضع لله أو أن أعصي أمراً من أمره.

ثم تابع مولانا محمد علي مرافعته:

«لقد تعرّض القاضي لمعتقدات بعض الطوائف فافترض فئة من الهندوك تعتقد بتقديم القرابين البشرية. وكذلك قال المدعي العام إننا منقسمون على أنفسنا طوائف وشيَعاً يستحكم بينها النزاع وكل تدّعي الحق لأهلها!

لا مجال هنا أيها السادة لتتبّع الحق أو الفساد في العقائد، ثم إن العقيدة التي نحيا بها ليست عقيدتنا وحدنا، إنها عقيدة كل مسلم.. وهبوها عقيدة طائفة معينة. فهل تقصدون أن نداء الملكة سنة ١٨٥٨ (في حماية العقائد) قد اشترط أن يتفق ثلاثمائة مليون من البشر في الهند مع أهل الأرض والسماوات، وأهل الكواكب السيارة، وسكان القمر وقاطني المريخ، كل أولئكم لا بد أن يتفقوا على العقيدة الصحيحة حتى يقدم النداء حمايته؟! إنه لا داعي للتفكير في حماية مثل هذه العقيدة!

ليست هذه القضية قضية اعتقاد فرد ما، أو فكرة عدد محدود من المسلمين ـ وإن كان لا يسوغ لكم بحال المساس بالمشاعر الدينية لجماعة مهما قلّ عدد أفرادها ـ إنها قضية هذا الدين الإسلامي؛ فما من فرد، يدّعي أنه مسلم، يستطيع تخطي حدود هذا الكتاب (مشيراً إلى القرآن الكريم)، انظروا إلى هذه الترجمة الإنكليزية: هذا كتاب مليء بالمعاني المكررة، ولا يتجاوز ما بين دفتيه خمسمائة صفحة، وهو مع ذلك يشكل المصدر الرئيسي لقانوننا

الديني. وأود هنا أن أوضح ذلك حتى لا أدع مجالاً لسوء الفهم، فينبغي أن تعلموا من أين تُستقى تعاليم الإسلام. إن أصل الدين كله تحويها دفتا هذا المجلد الدقيق؛ ثم تأتي بعده في الدرجة الثانية أحاديث الرسول، وبالنسبة لذلك المصدر الأُصيل (مشيراً إلى القرآن الكريم) ليس هناك في المسلمين من يختلف حول صحة مقطع واحد فيه؛ ولذا تجدون أن هناك أساساً صخرياً راسخاً لعقيدتنا لا أثر للخلاف بين وجهات النظر حياله. أما أحاديث النبي فإنه لو روي لنا حديث بسنده إلى الصحابة عن رسول الله فكان مخالفاً لأي أمر ما، ورد في هذا الكتاب فليس هناك في المسلمين من يقبل ذلك الحديث. فإننا لا نقبل ما ينسب إلى الرسول إن كان مخالفاً للقرآن، أما إذا كان مفسراً له أو مفصلاً لمجمله فعلينا عندئذ قبوله.

إنكم عند تسجيل المتطوعين تأخذون عليهم تعهداً كتابياً وتلزمونهم بقَسَم مخصوص، وهاكم اللائحة، (مبدياً اللائحة). في هذه اللائحة تجدون هذا السؤال: «هل تتعهد بالذهاب حينما تؤمر في البر والبحر؟...»، وعلى كل جندي حين يتقدم متطوعاً للجندية أن يجيب بالإيجاب على هذه الأسئلة ويوقّع اللائحة. فلنفرض أن الرجل هندوكي وأن الضابط أمره أن يذبح بقرة ليجهّز له لحمها. إنه يرفض ذلك ولا ريب، ويتلو له شواهد من كتابه المقدس، وليس هناك فقرة في قانون العقوبات الذي بين أيديكم تمكّن القاضي أو المحلفين ليقرروا أن هذا الرجل مذنب تنفذ عليه العقوبة لأنه يتصرف وفقاً لتعاليم دينه. قولوا بإمكان ذلك حتى أكفّ فأجلس!... كلا أيها السادة، عليكم أن تكتبوا على كل فقرة في الدستور الجزائي، وعلى كل قانون، تلك العبارة المحببة التي يستعملها المشرّعون: «دون إجحاف» أي دون إجحاف بمعتقدات الرجل الدينية.

قد تقولون بأن هناك من العادات المستهجنة ما لا يمكن السماح بها، وهنا عليكم أن تبيّنوا أي العادات تبيحون، وما هي الشروط التي يُنال تسامحكم حين توافرها. حتى القتل لا يعد قتلاً إن كانت تعاليم الدين تأمر به، وقد أعطى النداء حماية القانون لتلك الديانة، وقد تقولون إن في هذه البلاد الكثير من الديانات والمذاهب، إذن فعليكم أن توضحوا الشروط التي لا بد من توفرها في الديانة حتى تستحق الحماية، فإذا أوفى بها المواطن يعتبر موالياً، وكل من تسول له نفسه الخروج على هذا الولاء فإما أن يُنفى من هذه البلاد، أو يطردكم لينعم بالعيش فيها!

إن صاحبي (المدعي العام) كان أخبركم بأننا قوم في غاية الإخلاص، وأننا صرحاء لا نعرف المواربة. إنني أشكر له هذا الثناء، وإنه إن أقرَّ به لحاجة في نفسه فإنني سأحاول الاستفادة منه لبلوغ مأربي أيضاً.

أيها السادة، إنكم ستعلمون الآن أننا لسنا القوم الذين يسهل إرهابهم ليعمدوا إلى الكذب حتى يتفادوا القصاص إن كنا نستحقه بموجب هذه البيّنات التي بين أيديكم، وكلها تافه لا قيمة له، وإنني لن أشغلكم بتوافه الأمور. ومحور القضية كلها: هل يعطي نداء الملكة الحرية للديانة الإسلامية أم يستثنيها؟ فإذا كنا نطلب من الجندي المسلم أن يتخلى عن خدمته في الجيش البريطاني وأن يأبى التطوع ويطلب من الآخرين أن يفعلوا ذلك، ونعلن ذلك ونثبته من القرآن فإننا في تلك الحالة لا نكون مذنبين، ولا يمكنكم معاقبتنا، فحيث لا يخالف قانون العقوبات القرآن يسري مفعوله، فإن خالف القرآن فقانون العقوبات لغو فارغ.

إن القاعدة العامة تقتضي أن يحاكم الأشخاص فرادى، وأن تبحث التهم واحدة واحدة كذلك، وإلا فقد يتأثر القاضي والمحلفون فيميلون بأحكامهم. إنني لا أعلم سبباً لهذ الخلط في الاتهام إلا أن يكون ممثلو التاج قد اتفقوا على مؤامرة (ضحك) فحشدوا هذا العدد العديد من مواد القانون ليشتبه الأمر على الجميع، ولا أدري إن كان منكم من فهمها بوضوح. أما من جهتي، فلم أستطع أن أفهم على وجه التحديد ماذا كان الاتهام الأول وكذلك الثاني، وما الذي هو من شأن القاضي وما الذي هو من اختصاصكم كمستشارين. كل ذلك لم يتضح لي حتى اليوم.

وإنني لما أُحضرت إلى هنا من والتير (Waltair) سألني واحد من الشرطة الذين كانوا يخفرونني في القطار الخاص عن التهمة التي أخذت بها فلم أدر بما أرد عليه، ولكنني أخبرته أن لائحة اتهامي تستند إلى المواد ١٢٠ و١٣١ و٢٠٥ و١١٧ فعلق الشرطي ساخراً بقوله: «إنهم يحشدون من المواد ما يشاؤون وهي على كل حال مواد من صنع محلي» (ضحك).

لست أدري إن كان منكم أيها السادة من لعب البلياردو... تستخدم هذه اللعبة كرات ثلاث، وتربح بأن تضرب كرتك ضربة بحيث تصيب بها الأخريين، أو تصيب إحداهما ثم تسقط في إحدى الحفر المعدّة في منضدة اللعب، أو أن تدفع بهما إلى الحفر. وقد يتّفق أن يكون وضع هذه الكرات (المنحوسة) على المنضدة بشكل تحار معه كيف تفعل حتى تنجح الضربة؛ وهذه الحالة تحصل عادة بصورة مزعجة للمبتدئين على الخصوص. ونصيحة الخبراء حينئذ أن يقولوا: اضرب بقوة ودع النتيجة للحظ والمصادفة! (ضحك). وليس بمستبعد أن يكون الكسب بذلك؛ وهي في نظر

خصمك رمية من غير رامٍ، وهي ضربة في غاية الصعوبة طبعاً في نظره (ضحك).

ذلك أيها السادة في الواقع ما فعَلَتْهُ النيابة بهذه الاتهامات. لقد ضربت بقوة، وهي تعتمد عليكم وعلى القاضي في الكسب، فقد تصيب من هذه المواد العديدة واحدة أو اثنتان!! (ضحك).

لقد عرفت بالصراحة، فإننا قوم جد صرحاء، ولكم أن تتأكدوا أننا صادقون كذلك. وفي ما يختص بأية قرارات كانت لتعلم بها القوات المسلمة المسلحة في الهند ـ حتى ما يختص منها بتعاليم الإسلام ـ فليس أمامكم من الاتهامات ما هو أكبر من ذلك القرار. بيد أنه في الوقت الذي يدّعي فيه المرء بأنه مسلم، عليه أن يلتزم ويخضع لكل ما ينص عليه القرآن الكريم، فإني إذا أعرضت عن آية واحدة منه، فإنني حينئذٍ لا أكون مسلماً، بل قد أكون شر الخاطئين، وقد أبلغ الغاية في الإثم، غير أنني ما دمت لا أنكر شيئاً من هذا الكتاب فإنني لا أزال أعد من المسلمين. ولكن منذ هذه اللحظة التي أُعرض عنه مهما كنت تقياً، لا أكون مسلماً. إن كل ما تحويه دفتا القرآن يطالب المسلم بشرع القرآن نفسه أن يبلّغه للناس كافة حتى غير المسلمين. خذوا مثلاً صديقي الجليل هنا مولانا حسين أحمد صاحب. إنه حواري مولانا المرحوم محمد الحسن صاحب شيخ الهند، وقد كان قبض عليه في الحجاز حيث أمضى من عمره عشر سنين يدرس أحاديث الرسول في المدينة، فأُخذ إلى مصر ثم إلى مالطة. فلو فرضنا أنه جلس خارج بيته وتلا من القرآن هذه الآية: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً﴾[1] ولنفرض أنه أثناء تلاوته مرّ جندي مسلم، فهل تقولون بأن مولانا حسين أحمد

قد اقترف جريمة بمقتضى المادة (٥٠٥) من قانون العقوبات الهندي؟ إذا كنتم تقولون بذلك فلمَ كل هذا الكلام عن التسامح؟! وافرضوا أن جندياً من مسلمي الهند دخل المسجد حيث يؤم الصلاة مولانا، فهل يكون مولانا مجرماً إذا تلا تلك الآية في الصلاة بحضوره؟

وهاكم قضية أخرى: جندي يأتي إليه فيقول: «أريد يا مولانا أن أعرف حكم الإسلام في هذا الأمر: إنني مطلوب للسفر إلى ميسوبوتاميا للقتال ضد الخلافة، فهل يحل لي أن أذهب فأقاتل المسلمين؟»، فيجيب مولانا بأن ذلك غير جائز، لأنه إن أفتى بجوازه يصبح كافراً، وإن أمسك ولم يتكلم تلحقه لعنة الله والعالمين[٢]. ولذلك يتحتم عليه أن يقول: «لا، إن ذلك لا يجوز». فإن واجبه كمعلّم ديني عندما يأتيه من يستفتيه أن يوضح له بالصدق حكم الإسلام، فإن لم يستطع خشية قانون العقوبات، فإنها ههنا ــ والحق يقال ــ تتنزّل اللعنة.
خذوا مثلاً آخر: يسافر مولانا في قطار فيصادف جنوداً مسلمين ذاهبين إلى «ميسوبوتاميا» لقتال جنود الخلافة أو من أعلن الجهاد من المسلمين، فيعظهم مولانا بأن ذلك محرم في الإسلام لأن رسول الله (ص) يقول: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[٣] فهل يحال بذلك بين مولانا وحماية القانون؟ قد تقولون: لا بأس بأن يجيب بذلك عندما يسأل عن حكم الإسلام كواعظ ديني، ولكن ليس من واجبه أن يعتلي سطح المنزل وينادي من فوقه بذلك، فإن عمله حينئذ يكون تحريضاً وإغراء تنطبق عليه المادة (٥٠٥) والمادة (١١٧)... وإنني أقول: إنه حتى في تلك الحالة تكون مؤاخذته من العسف الذي هو أبعد ما يكون عن التسامح، لأن القرآن يبيّن بوضوح حال من ينال الفوز في الآخرة ممن يحق عليه العذاب الأليم، واسمعوا هذه السورة القصيرة، من القرآن حيث

يقسم الله تعالى بالعصر فيقول: ﴿والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ (سورة العصر).

إن الشروط الأربعة التي تلزم المسلم حتى ينال الفوز والنجاة قد احتوتها هذه السورة، وهي أقصر سورة في القرآن: إن خلاص الإنسان مشروط بأن يعمل بمقتضى عقيدة الإسلام. ثم هل تظنون أن من يعتنق الإسلام فيقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويصوم رمضان ويحج البيت ولا يؤذي أحداً، هل تظنون أنه بذلك يكون أهلاً للنجاة والفوز يوم الدين؟ كلا! لأن القرآن يقول إن الخطوة الثالثة (بعد الإيمان والعمل الصالح) أن تبلّغ هذا الخير إلى كل إنسان، وعليك أن تدعو لهذه العقائد، فإنك لم تولد لتنجو بنفسك وإنما أوجدت هنا لتأخذ بيد من حولك، ولذلك كان على المسلم القيام بهذه الواجبات الثلاثة: الإيمان بعقيدة الإسلام، والعمل الصالح بمقتضى هذا الإيمان، والدعوة إلى الإيمان بتلك العقيدة.

ولنفرض أن مسلماً يعتقد بأن قتل المسلم حرام فلا يقتل مسلماً، ولكنه يترك غيره يفعل ذلك. مثل هذا المسلم قد لا ينال النجاة. وإن هو لم يتقاعس، ونهض يذكّر الناس بأن ذلك حرام فقد لا ينال النجاة كذلك حتى يثبت على دعوته ويصبر ولو باء بالفشل. فإذا أخفق في الدعوة وابتلي فيها بأحكام المادة (٥٠٥) والمادة (١١٧) ونصبت أعواد المشانق فماذا يطلب منه؟ عليه أن يتجلد ويصبر! إنه قد يشنق وربما يغرق أو يصلب، ولكن الواجب هنا أن يثبت على دعوته، وبذلك ينال الفوز العظيم وينجو من الخسران المبين، ولا يجوز له بحال من الأحوال أن يخالف من تنزيل الله حرفاً واحداً، وعليه أن يلتزم به بكليته ويواجه به جميع الظروف.

أيها السادة،

إن سيداً عسكرياً من أمثال الكولونيل «جوير» (Col. Gwyer) الذي يحضر هذه الجلسة، واسمه الكولونيل «بيتش» (Col. Beach) ذهب إلى بومباي، وكما ورد في برقية لصحيفة «بيونير» (Pioneer) قابل هذا الضابط الشهم الذي قدم من قيادة الجيش في سملا بعض زملائي من مراسلي الصحف المحلية ووكالات الأنباء على مائدة مستديرة، وكان مما صرح به بمناسبة إلقاء القبض على «إخوان علي» (Ali Bros)(٤) مع أن القضية لم تزل في يد العدالة (يقرأ من الجريدة): في ما يتعلق باعتقال «إخوان علي» يقول الكولونيل بيتش كعسكري: «إنه كان جديراً بهؤلاء الذين يحاولون إغراء الجنود للتحلل من ولائهم للحكومة أن يتفكّروا قليلاً: هل يمكن للجندي الذي نكث ولاءه أن يعود موالياً لأي أمر مما كان موالياً له من قبل؟».

ذلك قول الكولونيل بيتش كما يخبركم بصفته العسكرية. مرحى كولونيل بيتش! (ضحك) إن ذلك يبدو رأياً سديداً ومنطقاً ممتازاً بالنسبة إلى جندي! (ضحك).

ولكن، لأتكلم كمسلم لا كجندي، هل لي أن أسأل: من هو المغري؟ إن كل طفل يولد في هذه الدنيا على الفطرة جندياً لله ثم يفتنه أمثال الكولونيل بيتش والكولونيل جوير ممن نصّبوا أنفسهم للفتنة والتغرير فيبعدونه عن واجبه الأول وولائه الأوحد. وهل لنا أن نسأل كذلك هؤلاء أمثال بيتش وجوير: هل جنود الله الذين تحللوا مرة من ولائهم لله يمكن أن يعتمد على ولائهم لهم أو للغاية التي كسبوهم من أجلها؟ إن الواجب الأول على المرء ولاؤه لربه، وإن القرآن يقول

بأن أرواح البشر قبل أن تحل في الأجساد سألها الله تعالى: ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾[٥] إذن فاشنقوا هذه الأرواح جميعاً أيها السادة، فهناك كان أصل الاتفاق الذي تبحثون عنه لإثبات هذه المؤامرة الإجرامية بموجب المادة ١٢٠(أ) و١٢٠(ب). (ضحك).

كلا أيها السادة. إن صاحبكم بيتش وأمثاله في قيادة جيش سملا، وصاحبكم جوير وأمثاله من قواد الجبهة الغربية، هم الذين يفتنون الجنود عن واجبهم. فإن كانت لديكم أية عقيدة، وإن كان لديكم أي إيمان بالله، فإن واجبكم الأول وولاءكم الأسبق إنما يكون لله رب العالمين. أليس ذلك هو واجب المسيحيين الذين يؤمنون بالله؟ أليست تلك عقيدة الهندوك؟ أليس واجب الهندوكي الأول طاعة ربه كريشنا؟.. ثم بعد كل ذلك لا نزال نتكلم عن الولاء للملوك!.

لقد أصدر كاتب إنكليزي، غير مسلم يدعى «هـ. ج. ولز» (H.G. Wells) كتاباً رمزياً بعد الحرب (العالمية الأولى) عن الشعب البريطاني ولا أدري إن كان اتفق لأحدكم أن قرأه، وعنوانه «مستر برتلنج يبصرها»[٦] فماذا يقول؟ ماذا يرى مستر برتلنج المفروض فيه أن يكون الإنكليزي العادي خلال تلك الحرب المروعة؟

إنه يقول: «إن رأس الأمر الدين، وإن غاية الأمر الدين، والمرء الذي لم يبدأ حياته به لا يتمتع بحياة حقيقية ولا يجد المعنى الحقيقي للحياة. إن ولاءه الأول وواجبه الأوحد لله. قد يتمتع ببعض التكريم، وقد ينال شيئاً من الولاء؛ غير أن هذا الولاء وذلك التكريم بمقابلته بالولاء والإخلاص لله، يذوي كالورقة التي يلفحها اللهب المشبوب، فتذروها الرياح الأربع، أو تلوث يد الممسك بها بالسواد».

ذلك ما كان يراه الرجل الإنكليزي العادي خلال هذه الحرب، وهو قول نشر على الملأ. ثم بعد الحرب يتخذ شرع الله ظهرياً بالنسبة لنا في الهند لأن قانون البشر ١٢٠(ب) و٥٠٥ و١١٧ ـ يستعلي على شريعة الله!...

مما ينسب إلى المسيح أنه قال...

(تقاطعه هيئة المحكمة وتقف معلنة وقف الاستماع لجلسة اليوم قبل إتمام الجملة).

مولانا محمد علي: لا بأس أيها السادة، لقد أوقفتني المحكمة عند «المسيح» وسأحدثكم غداً عن ذلك القول الذي يعزى إلى المسيح.

(وبذلك انتهت مرافعة مولانا محمد علي في يومها الأول).

(في اليوم التالي انعقدت المحكمة في الساعة الحادية عشرة صباحاً، وتابع مولانا محمد علي مرافعته موجهاً الكلام إلى هيئة المحلفين):

أيها السادة المحلفون،

كنت أوضحت لكم أن نداء الملكة قد أعطى حماية القانون لجميع رعايا الهند البريطانية في ممارسة شؤونهم الدينية اعتقاداً وتطبيقاً. وكنت قرّرت لكم أن ذلك هو أساس القضية، وأن العمل الذي يصدر عن أي شخص في الهند ـ مسلماً كان أو هندوكياً ـ ما دام هذا العمل مما يتصل بالتعاليم الدينية، فلا سبيل لقانون العقوبات أو أي قانون آخر مما حملت عليه الهند البريطانية ليقف دونه أو يصل إليه بجزاء لأن القانون يعطيه حماية تلك التعهدات. غير أنه لا بد له من

إقامة الدليل على أن ما قام به من عمل هو مما تأمر به تعاليم دينه.

وكما أخبرتكم بالأمس، إن هذه المحاكمة في الحقيقة هامة جداً، لأن القضية الواضحة فيها هي: هل لشريعة الله أن تسود أم أن لقانون البشر أن يهيمن على شريعة الله؟.. هل لنداء الملكة أو عهد الملكة أي قيمة؟.. وهل القاضي ملزم بالعمل بهما وكذلك المحلفون؟..

إنه ليس بوسعي أن أشرح قضيتي إذا كان القاضي قد أعدّ قراره. إنني لا أدري على أي أساس يتخذ ذلك القرار، ولكنه قرار هام على كل حال بالنسبة لهذه القضية. ليس لكم أن تأخذوا قانونكم عن المدعي العام أو عني، غير أني أحب أن يكون واضحاً لديكم، أيها السادة المحلفون، أنكم إن منعتم اليوم هندوكياً أو مسلماً أو مسيحياً حقه في القيام بواجبه أمام الله والعمل بما توجبه عليه عقيدته ابتغاء ثواب الآخرة وخشية العذاب، ولم تسمحوا له أن يمارس تعاليم دينه، فإنكم بعملكم هذا تكونون شركاء في جريمة تدمير الحرية الدينية التي يتمتع بها الناس في هذه البلاد.

كنت أُتكلم أمس عن مستر «هـ. ج. ولز» (H. G. Wells) في كتابه «الله، الملك الذي لا يُرى» وكذلك في كتابه الآخر، قصة «روح أسقف». إنه يقول بأنه ينسب إلى السيد المسيح عيسى عليه السلام قوله «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» ثم يسأل: من هو ذلك القيصر الذي يشاطر الله في ملك هذه الدنيا؟ ما الذي يعتبر ملكاً لقيصر وليس هو في الوقت نفسه ملكاً لله؟... ليست الدنيا مقسومة شطرين بين الله وقيصر، كلا فإن الله تعالى هو الحاكم الوحيد... إن الملك، أو أي مخلوق وليكن رئيس جمهورية أو قاضياً أو عضو هيئة محلفين، إذا طالبك بأمر فلا بد أن يطلبه لله،

أما إذا كان في تلبية ذلك الطلب ما لا يرضي الله فلا سمع ولا طاعة!... ويقول مستر ولز: «ويوشك هذا المذهب أن يكون هو الديانة العالمية الحديثة» وعلى أي حال، إذا صح ذلك أو لم يصح، فإن هذه الفكرة جزء من عقيدة المسلم، بكل تأكيد، إنها ليست عقيدتي الشخصية أو هواي أو أوهامي، إنني أتحدى الحكومة، وأتحدى المدعي العام، أن يحضروا مسلماً واحداً يقول غير ما قلت!!

ألا فلتعلموا أن كل مسلم يعيش في الهند البريطانية ـ بل في أي مكان ـ إذا كان عليه أن يخضع لقانون البلاد فإن ذلك لا يكون إلا في حدود معتقداته الدينية، وهذا عين ما قلناه لنائب الملك سابقاً عندما كنا في المعتقل وعرض علينا شروطاً خاصة للإفراج عنا بأن نفعل هذا وندع ذاك، فقبلنا على شرط عدم المساس بعقيدتنا، وكذلك من زمن بعيد أرسلنا كتاباً إلى نائب الملك بواسطة رئيس سجن بتول (Betul Jail) حيث كنا معتقلين قلنا فيه:

«ولكن حيث إن الحكومة كما يظهر ليست تعلم كيف تصبغ عقيدتُنا أعمالنا. وكيف ينبغي لأعمالنا أن تصطبغ بها ـ ومن هذه الأعمال ما يعدّ من الأمور الدنيوية ـ فإن شيئاً واحداً لا بد من إيضاحه هو: إن الإسلام لا يجيز لأحد من أتباعه أن يصدر حكماً على مؤمن آخر من دون برهان مبين، ونحن كذلك لم يكن باستطاعتنا بالطبع أن نقاتل إخواننا المسلمين ولما نتأكد من أنهم معتدون. أو أنهم لم يحملوا سلاحهم في سبيل الذود عن عقيدتهم».

إننا لا نريد تغيير أشخاص الحكام، ولكننا نريد بسرعة تأسيس حكومة مسؤولة تجاه الشعب الهندي الموحد. وقد أملنا أن نكون قد وضّحنا الأمور بما لا يدع مجالاً للريبة أو سوء التفاهم.

وهنا أمر آخر لا بد له من زيادة الإيضاح حيث إنه قد تبيّن لنا منذ ذلك الحين أن مبادىء الإسلام التي سنذكرها الآن ليست مفهومة عموماً، عند غير المسلمين كما يجب أن تفهم وخصوصاً في الدوائر الرسمية، إن عقيدة المسلم لا تقتصر على الإيمان ببعض المعتقدات والسير في الحياة بحسبها، بل لا بد للمسلم فضلاً عن ذلك أن يبذل ما أوتي من جهد ــ من دون اللجوء إلى الإكراه طبعاً ــ في تبليغ هذه العقيدة إلى غيره، حتى يؤمنوا بها ويخضعوا حياتهم لأحكامها، وذلك هو تعبير القرآن الكريم، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهناك أحاديث كثيرة عن رسول الله (ص) تبيّن هذا التكليف الخطير في الإسلام.

ليس للمسلم أن يقول: لا شأن لي بأخي، فإنه لن ينجو حق النجاة إلا إذا حضّ أخاه على فعل الخير ونهاه عن الشر. فإذا أكره مسلم على أن يخوض حرباً ضد مجاهدي المسلمين فليس عليه أن يأبى مخلصاً وحسب، بل لا بد ــ ما دام يقدّر الفوز في الآخرة حق قدره ــ أن يجتهد في إقناع إخوانه حتى يأبَوا إباءه. هذه هي عقيدتنا وعقيدة كل مسلم. وهي التي نطالب لنعيش بها أحراراً، فإذا ما حيل بيننا وبين تبليغها فلا بد من أن نصل إلى القول بأن الموطن الذي تحدّ فيه هذه الحرية لا يكون وطناً آمناً لعقيدة الإسلام.

لقد كانت التهمة الأولى التي وجّهتها لنا الحكومة في السابق أنه «خلال الحرب احتيج إلى المسلمين، مع التحدي لالتزاماتهم الدينية...» لاحظوا التعبير أيها السادة: «المساعدة الحكومة في خوض الحرب ضد الخلافة والمجاهدين». أتدرون ماذا صنع نائب الملك في ذلك الحين؟ إنه لم يشنقنا بموجب المادة ١٢١، ولم ينفنا مدى الحياة كما تقتضي أحكام المادة ١٣١. إن كل ما فعله أنه أطلق

سراحنا وأعدّ لإرسالي إلى إنكلترا حتى أوضح شريعة الإسلام لرئيس الوزارة وأعضائها هناك، ونحن الآن، وللسبب نفسه، نحاكم على مؤامرة جنائية.

ليت شعري ما الذي يميّز حالتنا عن غيرنا من المسلمين؟ وما الموقف في هذه القضية تجاه تلك الآلاف، بل مئات الملايين ممن يقولون اليوم بنفس ما نقول؛ لِمَ لا يحاكمون معنا؟ ولقد كنت شكوت من تفكك الاتهام لأن عدداً كبيراً من المتهمين يحاكمون على عدد كبير من التهم، ولكنكم لن تجدوا قاعدة تتسع لمحاكمة الذين يجاهرون بتلك العقيدة مرة واحدة.

كما قلت مكرراً إنها ليست اعتقاداً فردياً، وأنا الذي عشت مع رجال من الإنكليز وذهبت إلى إنكلترا لتلقّي العلم في أوكسفورد، أنا الذي كنت على أتمّ صداقة مع الشعب الإنكليزي، إن عليّ مع كل ذلك أن أقول إنه لا ينبغي لمسلم أن يخدم في الجيش البريطاني حيث يحمل على قتل إخوانه في سبيل الباطل، لأن من واجبي أن أقول ذلك، لقد قلت سابقاً، وأقول الآن ولا أزال أردّد ما حييت بأن ذلك غير جائز في الدين، وما أبالي أن أعلق على المشانق، وإنني لأرجو أن تنادي رفاتي من باطن القبر أن هذه هي عقيدة المسلمين.

وبعد، فلنأت إلى التهمة الأولى الموجهة ضدنا الآن، والتي تجلسون للقضاء فيها كمستشارين.

لقد بُلّغتم ورأيتم بأنفسكم أنه لم يؤتَ بأي شاهد ليثبت أنه كان هناك أي اتفاق في أي وقت من الأوقات، لقد سألكم صديقي هنا

(المدعي العام) أن تأخذوا بالاتهام على أساس الاشتباه. أي اشتباه؟! هل تراكم عازمين على شنقنا بسبب هذا الاشتباه الذي لم تقم أدنى قرينة لإثباته؟!!

ما من أحد قط شهد بأنه رآنا أو سمعنا أو اشتبه بأننا في مؤامرة أو اتفاق لارتكاب أي ذنب من الذنوب. لقد كنت في إنكلترا في شهر فبراير سنة ١٩٢٠، ولعله في اليوم نفسه الذي كنت أقابل فيه القائم بأعمال سكرتارية الدولة، انعقد مؤتمر في كلكتا الذي اتخذت فيه قرارات معينة. هذا كل ما كان من دليل ضدي، ومع هذا فإن على هذا الاشتباه أن يقوم مقام الدليل عند المدعي العام وإن أية قرينة كافية لنفينا مدى الحياة.

أيها السادة، إنني أستطيع أن أقول إنني لا أعرف شيئاً عن هذه المؤامرة. إنني لم أعلم متى ذهب شقيقي إلى «أسام» (Assam)، لم أعلم شيئاً عن ذلك حتى قام المدعي العام وقال بأنه سيأتي بشاهد لإثباته؛ وبذلك علمت للمرة الأولى أن أخي ذهب إلى هناك... ذلك الماكر!! إنه يذهب من دون علمي؛ وبجريرته أنفى مدى الحياة! إن ذلك أسوأ ما في أن يكون المرء شقيقاً أصغر (ضحك).

إن ذلك لا يعتبر دليلاً على الاتفاق لارتكاب عمل جنائي، وليس لكم أن تزعموا ذلك، ولا بد للتهم من إثبات لا شبهة فيه.

بالنسبة لمؤتمر كراتشي، إن لشقيقي منفذاً مما اتُهم به من حيث إنه لم يتكلم فيه، ولكن المدعي العام يستطيع أن يسد تلك الثغرة أيضاً:

كان لمُزارع في أستراليا ابنٌ على حظ من الذكاء قليل، حتى لقد كان

يدعوه الناس الأبله، وحيثما صحبه أبوه نال بسبب بلهه نوعاً من المهانة، وقد دعي الوالد إلى حفل مرة، وأصرّ الابن على مصاحبته، فأبى الوالد خشية أن يتكلم ابنه بين الناس فيدركوا أنه أبله فتلحقه مهانة أخرى. غير أن الابن وعد بأن لا ينطق في الحفل بكلمة، وبعد لأي قبل الوالد أن يصحبه على هذا الشرط. وهناك جلس الابن في ركن قصيّ. وقد تقدم لمحادثته عدد من الناس فلم يجب أحداً منهم بحرف، وعندما تقدم آخر ليلقي إليه سؤالاً قال له أحد الضيوف: «ما فائدة سؤال هذا الرجل ألا ترى أنه أبله؟.. وفي الحال صاح الابن بأعلى صوته منادياً أباه الذي كان يجلس منه في الطرف الآخر من المائدة: أبي، لقد عرفوها مع أنني لم أتكلم!» (ضحك).

وهكذا حزر المدعي العام أن أخي كان متآمراً في مؤتمر كراتشي مع أنه لم يتكلم!

واستأنف مولانا محمد علي مرافعته فقال:

إن المسلم الذي يرتضي الإسلام ديناً، ويهتدي بسنّة رسول الله (ص) موافق ضمناً على عدم شرعية انضمامه إلى جيش يحارب المسلمين ويقتلهم بغير حق. وعلى ذلك فالقرار الذي تتهموننا باتخاذه في مؤتمر جماعة العلماء لم يكن سوى حكم معلوم واضح في الإسلام أعلناه.

إلاّ أن هناك عدا عن ذلك قراراً أيضاً اتخذناه بكل عزم وتصميم، وهو أنه إذا اتخذت الحكومة البريطانية بصورة مباشرة أو غير مباشرة، سرية أو علنية، أي إجراء عدائي ضد حكومة أنقره[٧]، فإن المسلمين في الهند سيضطرون إلى أن يلجأوا إلى العصيان المدني

تضامناً مع المؤتمر، وأن يعلنوا في المؤتمر القادم في (أحمد أباد) استقلال الهند وتأسيس حكومة جمهورية فيها.

أيها السادة، لم يكن إعدادنا فقط لمواجهة العدوان البريطاني السافر ضد حكومة أنقره، ولكن الإجراءات السرية أيضاً، وسواء المباشر منها وغير المباشر. أجل غير المباشر بواسطة اليونان... إننا نعلم جيداً سياسة الإنكليز: يعرّف بعضهم في أوكسفورد كرة القدم بأنها اللعبة التي تضرب فيها الرجُل بقدمك إن لم تظفر بضرب الكرة، أما «الرجبي» (Rugbi) فهي اللعبة التي تضرب فيها الكرة بقدمك إن لم تستطع ضرب الرجُل!... وكذلك يريدون إسقاط كل أمة، وعلى الأخص العثمانيين، ولكن على القاعدة المتبعة في لعبة الرجبي، فلا يقاتلون بأنفسهم إلا حيث لا يجدون من يقاتل عنهم!

أيها السادة، إن هذا الأمر خطير حقاً، وإننا ما زلنا على بينة مما نحن مقدمون عليه. وكل ابن أنثى من بيننا قد يشنق بسبب ذلك. ولقد كان خيراً لنا أن نعدم رمياً بالرصاص بدلاً من إحضارنا إلى هذه القاعة لنشهد هذه المهزلة في محاكمتنا: القاضي والمحلفون، وكل ما يتبع ذلك من أدوات. ولقد كان الأيسر اختصار هذا الطريق الطويل الملتوي، فلا اتهام ولا قضاة ولا محلفون، وكل ما في الأمر فريق من الرماة يقودهم الكولونيل جوير، أو الكولونيل بيتش، وفي لحظة انطلاق البنادق ينتهي الأمر.

لقد ورد في القرار «يضيف هذا المؤتمر معلناً بجلاء أنه بموجب الشريعة الإسلامية يحرّم إطلاقاً الخدمة والتطوع في الجيش البريطاني، وكذلك الدعوة إلى ذلك».

وعلى هذا فجريمتنا أننا أعلنا حكماً في الإسلام، فإذا كان في إعلان حكم الإسلام ذنب فقولوا! في هذه الحالة يكون إعلانكم لأحكام المسيحية جريمة أيضاً، وكذلك الهندوك الذين يعلنون أحكام دينهم اتباعاً لتعاليمه مجرمون، فإذا طلبوا من هندوكي ألاّ يقتل بقرة يكونون مذنبين لاتفاقهم على ارتكاب جناية أو مؤامرة إجرامية!..

ولنأتِ الآن إلى الاتهامات التي تختصون بالنظر فيها كمحلفين.

إنكم وحدكم المقررون في هذه الاتهامات، وإنني لا أحب أن تختلفوا بشأنها في قراركم. إنني أرجو أن تتفقوا سواء أكان قراركم لنا أم علينا، فلا تدعوا مجالاً للقول بأن المحلفين الهندوكيين جنحوا إلى رأي والمحلفين المسيحين بدا لهم رأي آخر. إنني أؤثر أن تكونوا متّحدين في أمر على مبلغ من الخطورة كهذا، ولتكن نفوسكم منقادة لضمائركم وحسب، فذلك هو الدستور الأساسي للعقائد جميعاً، عليكم أن تتبعوا الحق وتعملوا بما يمليه الضمير.

إن الاتهام الذي من صلاحيتكم أن تقرروا بشأنه هو مسألة «المحاولة» المنطبقة على المادة ١٣١ (يقرأ المادة).

رئيس المحكمة: إنكم متهمون بعضويتكم في مؤامرة تهدف إلى فتنة داخل القوات المحاربة.

محمد علي: إننا متّهمون بأننا أعضاء في مؤامرة، أي متهمون بأننا اتفقنا على فعل إجرامي. وبتتبع هذه المؤامرة تبين أن أحد المؤتمرين في الواقع عمل كل هذه الأعمال، وليس المهم أن يكون الفاعل نحن أم غيرنا حتى نؤخذ بجريرته! إن الفاعل في الحقيقة هو مستر

«روس ألشتن» (Ross Alston) مساعد المدعي العام، إذ يأتي بجاهل من (الله أباد) ينسخ له شيئاً من فتوى العلماء مع أنه يجهل القرآن جهلاً تاماً. لا بد له من العناية في تنفيذه فيأتي بجاهل لينسخها! إن أي مسلم يشعر برهبة تهزّه إذ يقدم على نسخ شيء من القرآن خشية الوقوع في خطأ يعزو به إلى الله ما لم ينزله في القرآن. غير أن هذا الجاهل يقدم على النسخ وينشر ذلك إرضاءً لمستر «ألستن» فيطبعه في (الله أباد) أو في لاهور، ويحصل على النوع المطلوب من الأغلفة، فترسل من عدة مراكز وعلى الخصوص من (الله أباد) حيث مقر مستر روس ألستن! وأنتم عليكم أن تنفوني مدى الحياة من أجل هذا!!

هذا هو الذنب الذي افتُرض أننا فعلناه. إن (الله أباد) مقر مستر ألستن واثنين من ضباط المباحث الذين شهدوا ضدنا. أفلا يكون ذلك كافياً لأن يتهم مستر روس بأنه هو الذي فعلها ما دام مجرد الإقامة في (الله أباد) كان كافياً لاتهامنا بإرسالها؟!

ألهذا تقررون نفيي بعيداً عن أهلي، بعيداً عن بلادي العزيزة عليّ، بعيداً عن مجال الجهاد في سبيل الله، فقط لأنها أُرسلت من (الله أباد)؟!!

أتستبيحون لأنفسكم بناءً على هذا الادعاء إبعادنا مدى الحياة؟ هذه هي مذكرة الادعاء، لا شيء فيها غير ذلك، وإلا لقاله صديقنا (المدعي العام) لقد استغرق أربع ساعات في مرافعته أمامكم، وبذلك كسب أجرة يومه، وإن كان مرتبه يفوق مجموع مرتباتكم (يقاطع).

ويستأنف محمد علي مرافعته:

يا سادة! أودّ أن أنشد قصيدة من نظمي، هو نظم هزيل لكنه لي، وكما قال «تتشستون» (Touchstone): عندما قتل يوليوس قيصر، وجنّ جنون الشعب بسحر خطبة أنطونيوس، تجمّع الناس على «سنّا» (Sinna) الشاعر يريدون قتله يحسبونه «سنّا» المشترك في مؤامرة قتل القيصر فصاح:

«كلا! كلا، أنا لست «سنّا» المتآمر، إنما أنا «سنّا» الشاعر!» ولكنهم قالوا: «إذن فاقتلوه لشعره الرديء!!».

أيها السادة، لا تنفوني نفياً مؤبداً لشعري الرديء! إنني أخاطب بني وطني وإخواني في العقيدة وأقول لهم: إنني أذكركم بواجبكم، أذكركم بإخلاصكم، أذكركم بالشرف وأطلب إليكم أن تكونوا أمناء على العهد الذي قطعتموه على أنفسكم أمام الله والناس (يلقي القصيدة).

أوَليس لي أن أقول للمحلفين: إذا لم يصْدق هؤلاء القوم مع ربهم فاستباحوا مخالفة أمره، أينتظر منهم بعد ذلك صدق في ولائهم لملكهم في جيشه؟! (سكون رهيب في قاعة المحكمة)... ربهم الذي وهبهم كل شيء: الحياة، الشرف، العقيدة، الإخلاص نفسه، حتى الملك!... لا، الله فوق كل شيء. الله فوق الإخلاص؛ الله فوق الملك. الله فوق الوطنية. الله فوق بلادي ووالدي ووالدتي وطفلي! تلك هي عقيدتي، فاشنقوني إن شئتم! ولكن اعلموا أنكم بذلك إنما تنتحرون إذ تقتلون أرواحكم، ولا يغرنكم بعدُ تحرككم وسعيكم، فستكونون أجساداً تتحرك بلا روح، وجيفاً تصلح للغربان طعاماً.

أيها السادة، إن الحكومة هي التي تعمد إلى فتنة الجنود عن الصراط

السوي، ونحن إنما نريد إرجاعهم إلى إخلاصهم الفطري لله. وحيث إن لكل قاعدة شواذاً فإن القانون يقول: «إنها لا تبلغ أن تكون جناية ـ في حدود مقتضى هذه المادة (٥٠٥) ـ إذا كان الشخص الذي يصدر أو ينشر أو يبلغ أي بيان أو شائعة أو تقرير، لديه أساس معقول يحمله على الاعتقاد بصحة ذلك البيان أو الشائعة أو التقرير».

رئيس المحكمة: اقرأ المادة كاملة يا سيد محمد علي.

محمد علي: سأفعل يا سيدي، ولن أترك صغيرة ولا كبيرة، فإن لم يكن للحكومة بدّ من رطلها من اللحم فلتأخذ ما تريد. إن المحكمة في قضية شايلوك حكمت له باللحم فقط ولم تسمح له بنقطة واحدة يريقها من الدم المسيحي[٨]، أما أنتم فلكم أن تأخذوا ذلك أيضاً بغير حساب.

إن ذلك الاستثناء في القاعدة يعمل به حيث يستند البيان إلى أساس معقول يبرر الاعتقاد بصدقه. فإذا أعلنت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أفيكون ذلك من ابتداعي؟ كلا! إن ذلك عقيدة كل مسلم، ولا يمكن أن يكون إعلانها جناية يأخذ بها القانون، وإن كان يحتمل أن «تفتن» رجلاً عن ولائه للملك أو للحكومة، ذلك الولاء الذي تؤدي طاعته في بعض الأمور إلى معصية الله.

أما الجناية الثانية فهي «حمل عشرة أشخاص أو أكثر على اقتراف مثل تلك الجريمة»، وعلى ذلك فالمسألة الأولى هي مسألة البيان وصحة ما يستند إلى مصدره. بيان مَن أيها السادة؟ إنه ليس بياني. إنه حكم الله. إنه إعلان مؤسس على شريعة القرآن، ويعلمه كل مسلم يفهم القرآن.

سأريكم أيها السادة ماذا على المرء أن يفعل عندما يتطوع في الجيش، وماذا عليه أن يدع (يقرأ قائمة شروط التطوع)... لاحظوا أيها السادة هذا السؤال: «هل أنت مستعد لأن تذهب حيثما تؤمر براً أو بحراً، وألا تسمح لشيء بالتدخل في واجباتك الدينية؟» إلا أنني أيها السادة لا أرى في القائمة مثل هذه الأسئلة: هل أنت على استعداد لأن تعمل أي عمل يخالف عقيدتك؟ أو هل تبدي أي اعتراض حين يطلب إليك أن تقترف إثماً من الآثام؟ أو هل تود أن تذهب إلى جهنم براً أم بحراً؟!...

وقد كان تساءل المدعي العام فقال: «إذا كان بعض الناس يعتقدون في تقديم القرابين البشرية، وطلب طفلك لهذا الغرض أفلا تكون حينئذ أول من يلجأ إلى حماية القانون؟» إنني على أي حال لا أطلب لنفسي حماية القانون، وأعتقد مع ذلك أن ليس هناك أية طائفة تطالب الآخرين بتضحية كهذه. إن الطائفة الوحيدة التي تطلب من الناس أن يضحوا بأبنائهم هي جماعة العسكريين! نعم، إنهم يطلبون ذلك. إن إلههم «مولوخ»(٩)، الاستعماري الشره يطلب تلك الأضاحي. إن جشعهم إلى المستعمرات يطلب تلك الأضاحي، يريدونها في كل مكان: في عرض البحر، وفي محيطات الله الواسعة التي على كل سفينة أجنبية تمرّ فيها بإحدى سفنهم أن تخفض علمها اعترافاً بأن إنكلترا «سيدة البحار».. هؤلاء هم الذين يبتغون الضحايا من البشر!

وسألني القاضي «ما رأيك في السارق؟ أتريد تطبيقاً للإسلام أن نقطع يد السارق؟!» وأقول: لو كانت الحكومة إسلامية لطالبتها بذلك. بل لطالبتها برجم الزاني.

وإن كان الزنى لا يعتبر جريمة في القانون الإنكليزي. إن صفقتي

كمسلم مع حكومة إسلامية تختلف عن صفقتي كمسلم مع حكومة غير إسلامية. إني لا أطالب غير المسلم بسوى السماح لي بحمل معتقداتي الدينية، والعمل بموجبها دون التعرّض لعقوبة، فإن ديني يفرض تعاليمه عليّ دون غيري ممن لا يعتنقونه، وقد فرض عليّ أن أعلن أمر الله الذي حظّر فيه على المسلم الانضمام إلى الجيش البريطاني وقتال المسلمين بغير حق، وأن من أفظع الخطايا قتل المسلم أخاه بأمر الحكومة غير المسلمة، فهي الخطيئة التي تعتبر في منزلة تالية للكفر.

لقد كان آخر ما قاله النبي (ص) في خطبته عندما دعا الحجيج في حجة الوداع وكانوا ١٧٥ ألفاً في (منى) أن سأل «أي يوم هذا؟»...

رئيس المحكمة: (مقاطعاً) إني أرى أن تكفّ! دع عنك شأن النبي!

محمد علي غاضباً: إنه لا بدّ لي من الاهتمام بشأنه (ص)، عليك أن تسحب كلمتك.

شوكت علي: هذا بهتان وسفاهة!!

محمد علي: عليك أن تسحب قولك، لا بد أن تستدرك! إن من واجبي الاهتمام بشأن رسول الله، وعليّ أن أقطع عنق من يسيء في حقه عليه الصلاة والسلام!!

رئيس المحكمة: يجب أن تكفّ وليس لك أن تستمر.

محمد علي: إنني إنما أفعل ما يسمح لي به القانون. إن القانون

يقول بأن ليس لي أن أدعو الجنود للتخلي عن واجبهم، وأنا أقول ليس من واجب الجندي المسلم أن يقتل أخاه المسلم؛ ولي هنا أن أناقش هذه القضية إلى الأبد، فما دمت في سبيل إيضاح وجهة نظري فإن لي هذا الحق، امنحوني هذا الحق وأنهوا هذه المهزلة. ما جدوى هذه المسرحية؟! خذوا فريقاً من الرماة ليعدمونا في الحال، وإذا شئتم إتمام فصول هذه الرواية الهزلية، فحاكمونا بعد موتنا كما فعل اللورد نلسن من قبل؟

إنني أقول: إن شيئاً لا يجبر إنساناً على مخالفة تعاليم دينه حتى الواجبات العسكرية.

رئيس المحكمة: ليس ذلك في موضوعنا.

محمد علي: إنني أوضح تعاليم الإسلام، وقد قدمت ذلك في مذكرتي للمحكمة الابتدائية؛ إن ذلك في صميم الموضوع.

رئيس المحكمة: اجلس مكانك.

محمد علي: إني لم أناقش بعد المادة ٥٠٥، ولم أتعرّض بكلمة للاتهام بموجب المادة ١١٧، فهل يُحكم عليّ من دون أن أقول فيهما شيئاً؟

رئيس المحكمة: لن أسمح لك بحق الكلام.

محمد علي: أرني جملة واحدة في كتب القانون التي لديك تخوّلك منعي ذلك الحق! لقد حرمتني حقاً إذ لم تسمح لي بتقديم

مذكرة للمحلفين ضد الادعاء، والآن تريد أن تكفني عن مخاطبة المحلفين. إن لك أن تعترض على قسم معين من مرافعتي فتقول: دع الكلام في هذا، ولكن أنّى لك أن تمنعني البتة بقولك: لن أسمح لك بحق الكلام؟!

رئيس المحكمة: (يردد قوله) اجلس لن أستمع إليك.

محمد علي: أتظن أنك مخوّل قانوناً حتى تمنعني ذلك الحق؟ إن القانون يقول: إنها لا تبلغ لتكون جريمة ما دامت في حدود الاستثناء الذي ذكر...

رئيس المحكمة: و...

محمد علي: لا بأس عليك بشأن «و...» إنني إنما أناقش صحة البيان ولم أناقش بعد أمر «النية والقصد» فيه.

رئيس المحكمة: لن أستمع إليك.

محمد علي: إنني على أي حال أخاطب المحلفين، وليس لك أن تمنع المحلفين حقهم، فإن عليهم أن يعطوا رأيهم في ما إذا كنت مذنباً أو غير مذنب، وذلك بمقتضى القانون الذي يقول (يقرأ) وأنا لا أستطيع أن أحل كلامك محل القانون... كلا! إنني لا أعتبر كلام أحد أمام النص الواضح في القانون.

رئيس المحكمة: ناقش قضيتك.

محمد علي: إنها ليست قضيتكم هي التي أناقش (ضحك) حسناً

أيها السادة المحلفون...

رئيس المحكمة: لن أستمع إليك.

محمد علي: لك ألا تستمع إليّ كما فعلت من قبل أكثر من مرة. لقد نمت أثناء جزء طويل من فترة تلاوتي للمذكرة، ولك أن تنام الآن. أما المحلفون فلا بد لي من مخاطبتهم.

رئيس المحكمة: (غاضباً) ألا تجلس؟!
محمد علي: وإن لم أفعل؟...

رئيس المحكمة: أضعك تحت الحراسة!

محمد علي: دونك وما تريد!...
(مدير البوليس يُدعى ليُجلس المتهم ولكنه يتراجع من دون أن يمسّه ويتركه واقفاً. والمحكمة تأمر المُحضر لينادي على المتهم رقم (٢) مولانا حسين أحمد صاحب. المُحضر ينادي ولكن مولانا حسين أحمد لا ينبس ببنت شفة أو يتحرك قيد شعرة).

محمد علي: (غير مكترث بتصرف المحكمة) الآن أيها السادة المحلفون...

رئيس المحكمة: لا تقاطع المحكمة.

محمد علي: إنني لا أقاطع المحكمة، بل الحق أنكم أنتم الذين

تقاطعونني. لا بد لي من مناقشة ذلك الاستثناء والبحث فيه. اطلبوا التهم الموجهة بموجب المادة ٥٠٥ والمادة ١١٧ إن شئتم حتى أكفّ عن المرافعة، فإن لكم أن تعدّلوا في الاتهام حتى النهاية.

رئيس المحكمة: لا أستطيع أن أسمح لك بشرح القانون الديني هنا.

محمد علي: إنني إنما أشرح القانون الأرضي كما تدعونه لا القانون الديني، إنني أبيّن للمحلفين أن البيان الذي أعلناه مشتملاً على القرار حقّ لأنه مستند إلى القرآن والحديث..

رئيس المحكمة: لا لزوم لذلك.

محمد علي: إن الذي يقدّر الضرورة أنا لا أنت. إنك لم تكفّ المدعي العام عن مرافعته إذ كان يثبت ما يراه ضرورياً، أفلا تدعني أثبت ما أراه ضرورياً؟ إنني لا أحب أن أخلق المنافرات، فلست هنا لهذه الغاية، ولا أود أن أكون عنيداً صفيق الوجه؛ ولكنني لا أرضى باهتضام حقوقي.

رئيس المحكمة: ولكنك تستغرق وقتاً كثيراً وطويلاً جداً.

محمد علي: لقد وعدتني أمس بنصف ساعة تسمح لي فيها بالبحث اليوم في تفوق الشريعة الدينية قبل مناقشة النقاط القانونية ووقائع القضية. إنني أقول إن الدين يُستثنى في كل الأحوال. والآن عليّ أن أثبت في مناقشة القانون الأرضي ـ المادة ٥٠٥ ـ أنه ممنوع شرعاً الخدمة في الجيش وأن ذلك حقيقة صادقة ينطبق عليها الاستثناء في المادة ٥٠٥.

رئيس المحكمة: أفترض اعتبار صدق ذلك.

محمد علي: ليعتبر صدقه المحلفون، وليقرّوا بذلك كتابةً. وقولوا إن هذا الأمر قد ثبت لنا حتى أدع هذا الموضوع من دون مناقشة، واسألوا المدعي العام إن كان يرى أني محقّ بذلك.

المدعي العام: نحن نقرّر أن الآيات التي وردت في المذكرة التي تليت على المحكمة الابتدائية من القرآن.

محمد علي: إني أريد أن تقرروا زيادة على ذلك أن هذا البيان الذي اتهمت بسببه بموجب المادة ٥٠٥ موافق للقرآن والسنّة.

المدعي العام: لا نستطيع إقرار ذلك.

محمد علي: إذن فعليّ إثباته. لنفرض أن مسيحياً اتّهم في إصدار بيان عن عقيدته في الآب والأب والرب الابن والرب الروح القدس. إنه حينئذ يحتج بإثبات صحة بيانه من العقيدة المسيحية. ويقول: إنني أثبت ذلك من التوراة والإنجيل وأبيّنه من رسائل الحواريين وكتاب الصلاة. أترون أن ليس له الحق في أن يفعل ذلك؟! أأكون ـ أيها المسلم ـ قاضياً عادلاً إن منعته ذلك؟ أتظنون أنني أعدل إذ أمنعه أن يثبت أن بيانه صحيح عن التثليث في العقيدة المسيحية؟!

رئيس المحكمة (يومىء برأسه): اجلس مكانك.

محمد علي: لا أجلس أو تعتبروا بياني صحيحاً! إنني لا أود أن

أكون عنيداً أو لجوجاً بغير سبب، ولكنني على أي حال أريد الوقوف على حقي غير منقوص.

رئيس المحكمة: إنك تضيع وقت المحكمة.

محمد علي: إنني لا أضيع وقت أحد، إنما أريد إقناع المحلفين أن البيان صحيح.

رئيس المحكمة: ذلك لا يهم.

محمد علي: ذلك مهم جداً في نظري. إنه في غاية الأهمية عندي أن يثبت للسادة المحلفين أن البيان متّفق والقرآن والحديث وأنه ليس من ابتداعي... وما القضية بعد كل هذا؟! إني لا أطلب الحماية لجريمة قتل اقترفتها، ولا لتحريق بيت تعمدته، ولا لنهب أقدمت عليه. إن القتل تنتفي عنه صفة الجريمة حين يأمر به القائد، والنهب يصبح سائغاً عندما يدعو إليه القائد. وهنا في هذه القضية، ليس القتل جريمة ما أمر به القرآن؛ وعلى ذلك فعندما أعزو شيئاً إلى القرآن، فإن لك أن تقول أرني ذلك.

رئيس المحكمة: أفرض أننا نقبل ما تقول به جدلاً.

محمد علي: أريد أن تقبلوا قولي لكل الاعتبارات. قد أدع المناقشة بالمرة في أمر القصد والنية في هذه المادة إذ إنني لا أتكلم دفاعاً عن نفسي أيها السادة، ولكن لا بد من أن أثبت أن هذا البيان صحيح. لقد واجهت الصعوبة نفسها عند صديقي مستر «مونتاجو» (Montague) إذ قال: إنني يا سيد محمد علي لا أدخل في

مناقشة بشأن عقيدتك. ولكني دعوتهُ إلى ذلك، ولقد دمعت عيناي عندما قلت له إنه ليس مما يسرني مخاصمة الحكومة، وقد احترم تلك الدموع فشرحت له الشريعة الإسلامية في الخلافة وكان عليه أن يصغي. ولقد شرحت شريعة ديني لمستر لويد جورج أيضاً، وكذلك لبعض أعضاء البرلمان الآخرين، فلم يقولوا لا دخل لنا في ما ينص عليه القرآن.

إنني أريد أن أثبت أن هذا بيان صحيح وليس لكم أن تمنعوني هذا الحق في الإثبات، فهل تسمحون؟؟

رئيس المحكمة: فقط إذا شئت أن تفعل ذلك بصورة مختصرة جداً.
(القاعة تضجّ بالضحك).
محمد علي: ولِمَ لم تقولوا ذلك من قبل؟! طبعاً سأفعل ذلك بصورة مختصرة، بل في غاية الاختصار!!

... بعد تلك المشادة العنيفة بين مولانا محمد علي ورئيس المحكمة ختم محمد علي مرافعته التاريخية بما يلي:

أيها السادة،

لست أدري إذا كان الجندي ممنوعاً من تحكيم تقاليده الخاصة أمام واجباته العسكرية، فإن هذا النموذج (قائمة الأسئلة الخاصة بالتطوّع) يحوي مجرد سؤال بخصوصها، ولا ندري ماذا يحصل للمتطوّع الذي يجيب عليه بالإيجاب معتبراً تقاليده الخاصة.

كتب «دانتي»[١٠] في «الجحيم» وكذلك أورد «ملتون»[١١] في

كتابه «الفردوس المفقود» أنه مكتوب على باب جهنم هذه العبارة: «على كل من يدخل هنا أن يترك كل عقيدة خلفه». ولقد قال المستشار الألماني(١٢) في مناسبة شهيرة الحاجة لا تعرف القانون! وها نحن نرى الذين ينددون بهذه القاعدة غير القانونية يعاقبون كخارجين على القانون!

إن كل ما نريده أن تكون الحكومة شريفة مستقيمة في هذا الشأن. إن الناس ينضمون إلى الجيش حالياً وأعينهم مغشاة. ونحن نريد أن نزيل هذه الغشاوة عن العيون ليدخل الجيش من يدخل وهو يعلم أن شريعته وتعاليم دينه لن يكون لها فيه أي اعتبار، وستهدر المطالب العسكرية ضحية لمولوخ(١٣) المسعور. وإن نداء الملكة وإعلانَيْ الملك لن تقدم لهم أية حماية، وحينئذ لا يلوم الحكومة أحد، والذنب من بعد ذلك ذنب أولئك الذين يعلمون كل ذلك ثم يتطوعون في الجيش!..

ثم، ما الذي تطلبه الشريعة الإسلامية اليوم؟ إنها لا تلتمس حماية من القانون العلماني، إذ لا تطالب بالضحايا البشرية. إنني لا أقول: اقتلوا ضباطكم رمياً بالرصاص، لا، بل على العكس، إنني أطلب ألا تتيحوا لهم اقتراف جريمة قتل الأخ لتقديم القرابين البشرية من إخوانهم المسلمين. إنني لم أمانع عندما أخذتموهم في بداية الحرب لقتال الألمان في أن يقاتلوا معكم، وكذلك لا أقول إن وقع اضطراب في كراتشي وأخلّ المسلمون بالأمن يجب على الجندي المسلم ألا يذهب للمحافظة على النظام...

لقد ورد في هذا النموذج جميع أنواع الأسئلة، ويقول النموذج: «الأسئلة التسعة التالية»... إلا أن هناك في الحقيقة أربعة عشر سؤالاً

لا تسعة (يقرأ الأسئلة).

إنني لا أدري ماذا يحصل إن أجاب المتطوّع أنه يأبى أن يطعّم بلقاح الجدري البقري كما قد يفعل بعض الهندوك باعتبار اللقاح أو الليمفا من البقر، ويعلن المتطوع بأن إجاباته صحيحة، وأنه مستعد للقيام بالواجبات المطلوبة من دون بيان هذه الواجبات.

ولنفرض أنه عبّر عن رضاه بأن يحقن بلقاح الجدري وأن يذهب حيثما يؤمر براً أو بحراً.. إن السؤال الخامس عشر الذي كان يجب أن تضمه القائمة: «هل أنت مستعد لأن تفعل أي شيء تؤمر أن تفعله، وألا تدع تعاليم دينك تتدخل في واجباتك العسكرية؟ هل أنت عازم على إغفال أمر الدين؟»... لا أرى مثل هذا السؤال في هذا النموذج... إن أجاب المتطوّع عليه بنعم، فلا بأس، وإذا لم يقبل فلكم أن ترفضوه، ولكنكم لا تسألونه هذا السؤال، ولا تستطيعون أن تفعلوا ذلك لما فيه ـ حسب رأيكم ـ من الصرف والفتنة عن الواجب، ولقد قلت آنفاً إن واجبه الأول طاعة الله، ثم بعد ذلك يلتزم للوطن والملك.

أيها السادة المحلفون!

إن نداء الملكة قد جاء كما تعلمون على أثر مسألة الذخيرة المتشحمة بدهن الخنزير والتمرّد بسببها. وإنما كان ذلك النداء لتفنيد زعم ذلك الشمول غير المحدود لما تعنيه «الواجبات العسكرية» المقررة سنة ١٨٥٨. ولكن، ما أهمية قطع غلاف الذخيرة المشحم بدهن الخنزير بالأسنان، أو حتى أكل الخنزير بكامله بالنسبة إلى خطيئة قتل المسلم؟!

لقد قلت في مذكرتي للمحكمة الابتدائية ولا أزال أكرر: إنه إذا أُكره المرء تحت وطأة التهديد بالموت على أكل لحم الخنزير فليس له فقط أن يأكل اللحم، بل يتحتم عليه حينئذ أن يأكله، وإذا قتل لرفضه قتل خاطئاً. وكذلك يستطيع أن يعلن أنه كافر ما دام قلبه مطمئن بالإيمان، والخير ألا يفعل، فإذا قتل لإصراره على الرفض مات شهيداً، غير أنه لا يستطيع أن يقتل أو يجرح مسلماً ولو أكره على ذلك، وعليه أن يمتنع ولو أدى تمنّعه إلى قتله.

إنكم لا تستطيعون أن تطلبوا من مسلم مسّ الذخيرة المشحمة بدهن الخنزير باعتباره من واجبه العسكري لما خبرتم سنة ١٨٥٨ ولنداء الملكة سنة ١٨٥٨، ثم لا تزالون تدّعون أن من الواجبات العسكرية قتل المسلمين الذي هو أشد فظاعة بدرجات من أكل لحم الخنزير، بل من التظاهر بالارتداد عن دين الإسلام! إن إغفال مثل هذا السؤال الذي اقترحت يعني أن الحكومة تعلم ما يؤدي إليه، لذلك فإننا نعتبر أن من واجبنا تذكير الجندي المسلم بواجبه أمام الله، وأن نطلب من المسلم أن يطبق شريعة الله، وليس يعتبر ذلك صرفاً له عن واجباته في الجيش على أي حال، فإنه لا يحتاج لذلك أن يترك واجبه أو أن يقصر فيه، وكل ما هنالك يطالب ضباطه المسؤولين ألا يطالب بتنفيذ الواجبات المعينة التي لا يقرُّها الإسلام... وعلى ذلك فليس هناك احتمال، ولا قصد لصرف الجنود عن واجباتهم.

أيها السادة المحلفون!

إنني لست حريصاً على الإفراج عني ولا عن الدفاع عن نفسي. إنني لا أقوم بأي دفاع، ومع ذلك فعليّ أن أوضح لكم قانون

الإسلام وعلاقته بالوضع الذي اتّخذه. إنني لم أناقش شهود الإثبات، ولم أقدّم أدلة النفي بالنسبة لشخصي، ولكني أريدكم، وأنتم في الأعمّ الغالب من بني وطني، وإن كنتم تتعاونون مع هذه الحكومة، أن تعتبروا ذلك. لقد أجريت في تاريخ العالم محاكمات هامة، وكثير من العظماء حكم عليهم بتهم متعددةٍ. وفي التاريخ الإنكليزي نفسه قُتلت جان دارك إذ حكمَ عليها بأنها ساحرة. ولكن ماذا كانت النتيجة؟ إن تمثالها الذهبي منصوب أمام الفندق الذي كنت أسكنه في فرنسا. وقد أقامت لها الكنيسة الكاثوليكية لما كنت هناك قداساً برئاسة البابا وكلية الكاردينالات... وأحفاد أولئك الذين حرّقوها ماذا فعلوا؟ لِمَ اشترك الجيش البريطاني مع الفرنسيين في إحياء ذكراها، ووضع أكاليل الزهور على تمثالها؟... إني رأيت بنفسي ذلك الاحتفال. لقد كان جورج واشنطن ثائراً شقياً في زمن جورج الثالث، فما هي نظرة الحكومة البريطانية إليه اليوم؟.. إنه أخلص وطني!

أحب أن أوجه ملاحظة أو ملاحظتين، خصوصاً للإنكليزي الوحيد في المحلّفين. إن الأفراد الإنكليز غير ملزمين باتّباع أغلبية مواطنيهم، خصوصاً في الظلم والزيغ عن الحق. لقد كانت الأقلية خلال التاريخ الإنكليزي كله في الغالب إلى جانب الحق، ولم تزل الأقلية دائماً هي التي تبدأ الحركات الإصلاحية العظيمة، إذ لم تبدأ قط أكثرية عملاً لهدف مجيد.

إنه لم يكن بيلاطس الذي حكم عليه بالصلب، لقد كان المسيح عليه السلام، وقد كان بيلاطس القاضي الذي حكم بصلب المسيح. ولكن من الذي ينطق بالحكم الآن ومن ينطق بالحكم فيما بعد؟ هناك، في الآخرة، يوم الدين سيقضي الله بحكمه على

بيلاطس الذي ضلّ سبيل الحق. ولكن أين بيلاطس الآن؟ من ذا الذي يذكره، قاضي الصلب العظيم، إلاّ لحكمه بصلب المسيح...؟ إن المسيح الآن في نظر الملايين من البشر هو المخلّص. ولكن، من أكون ـ أيها الفرد المتواضع ـ حتى أقارن نفسي بالسيد المسيح... أنا الذي لست أهلاً حتى لإزالة الغبار عن قدميه، ولكن كما قال الشاعر:

لا يلزم الضعف، أن يكون خداعاً
فالصدق صدق في كل درجاته
بقدرة الله دوّى الرعد للطبيعة
وهمس بواسطة روحي إليّ(١٤)

ووسط دويّ مدافع «الهاوتزر» البريطانية همس الصوت الهادئ الضئيل المنبعث من روح رجل متواضع في أذنه

١ ـ الروح الإلهي نصير الحق:

هذه القطعة الصغيرة من الصدق: إن المسلم يجب ألا يقف مكتوف اليدين ينظر إلى المسلمين يقتلهم المسلمون رغم نهي الله الصريح، ولا بد أن يدعو لوقف ذلك، وينادي بالحق لا يرهب أحداً من البشر أو يهاب صروف الحياة الدنيا.

أيها السادة، خذوا شهداء كربلاء مثلاً آخر: لقد كان مع حفيد رسول الله (ص) اثنان وسبعون رجلاً فقط، وكان جيش يزيد يُعد بالآلاف، وقد قتلوا الحسين حينذاك إذ كان في قلة، إلا أن السخط لا يزال في النفوس على ذلك الفعل الشنيع ـ فعل الحكومة صاحبة السلطان ـ منذ ثلاثة عشر قرناً. إن كل مسلم يهتز بالعاطفة لشهيد

كربلاء، وليس ليزيد المنتصر المزهوّ، الذي لا يعرف له قبر في أي مكان.

وهكذا أيها السادة، لا تفكروا في آثار قراركم اليوم أو غداً، ولكن في آثاره في المستقبل في حرية البشر، وكذلك في العالم الآخر يوم الحساب. يجب أن تحتكموا لأنفسكم، إذ لا يغني عنكم أحد من رؤسائكم. إن لويد جورج لا يغني عنكم شيئاً، فسيحاسب الله لويد جورج عن نفسه لا عن أنفسكم، ولعله يطالبه بالكثير. وسيسألكم الله كذلك عن أنفسكم فرادى ولا يسألكم عن غيركم! أما إن كنتم تعتقدون اعتقاد الهنود بالعقاب في الحياة الدنيا في دورة تناسخ الأرواح، فيجب أن تذكروا أنه بموجب عقيدتكم سينفذ حكم الله فيكم في هذه الحياة الدنيا، وستحاسبون ساعة تترك روحكم منزلها من جسدكم لتلتمس منزلاً آخر. ومهما كانت عقائدكم، فليس الحكم النهائي لكم، كما أنه ليس للقاضي، إنْ الحكم إلا لله العلي الكبير.

أيها السادة، لقد أخذت كثيراً من وقتكم... أكثر بكثير مما قصدت أو مما كنت آخذه لو لم أكن أقاطع أو أوقف باستمرار. وكما قلت في بدء كلامي، لو كان الأمر دفاعاً عن نفسي كفرد أو عنا كمتهمين فقط لما ترافعت هذه المدة الطويلة وبهذا الإصرار. إنني لا أبتغي تفادي العقوبة، فإن السجن هو سبيل حرية الهند الوحيد. ولو أردت دحض الادعاء بكامله لأثبت براءتي بحسب مواد هذا القانون نفسه ـ القاضي الأرضي المزعوم ـ لكان بوسعي أن أناقش شهود الإثبات وأمزّق ادعاءاتهم تمزيقاً. حقاً، لقد اضطررت إلى أن أفعل ذلك في مسألة الكولونيل «جوير» وأسئلته الخاصة بتسجيل المتطوعين وواجب الجندي من حيث هو كواجب... أظن أنني

أستطيع أن أقول ذلك، وإن كنت لا أحب أن أبدو قانونياً كبيراً كصديق المدعي العام أو مساعده الصغير.

إذا كانت رؤوس أهل الحل والعقد تنتزع بسبب إظهار الإسلام وإعلان شريعته، ثم يسأل الباقون عن رأيهم في الشريعة الإسلامية، فذلك لا يعني إلا أن دورهم سيتبع لملاقاة المصير نفسه إن هم تجرأوا على أن يقولوا الحق، وستكون النتيجة ألا يقف أحد لمجابهة إرادتكم. وبعد ذلك تتبجحون بقولكم: إننا لا نتدخل في عقائدكم!! فإن لم يكن هذا تدخلاً، فإن لكم أن تزهوا بالعجب الذي يوحي به هذا الادعاء بالتسامح المزعوم!

إنني أيها السادة لا أستطيع أن أسير على نهج قاضي قضاة بريطانيا أو نائب الملك في الهند. إن له قانوناً يلزمه، ولي شريعة تلزمني. إن أمثال قومه ــ ولا أقصد في ما أقول إهانة ــ يدعو القرآن المسلمين دائماً إلى اجتنابهم وأن يكونوا منهم على حذر. وقد ورد في القرآن أنه بعد أن جاوز موسى عليه الصلاة والسلام ببني إسرائيل أرض مصر بسلام ونجوا من طغيان فرعون، طلب منهم السير إلى أرض الميعاد، فقالوا: ﴿إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون﴾ (المائدة: ٢٢)، وقالوا لموسى: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون﴾ (المائدة: ٢٤).

أيها السادة، ليس هذا هو المثال الذي يجب عليّ أن أحذو حذوه في شأن أرضي المقدسة، وما دام الأمر يعنيني، فإن القرآن هو شريعتي، وسواء كان الجبارون أو لم يكونوا، فإنني سأقاتل حيث يأمرني الله بالقتال، ولن أهدأ أبداً أو أسأله أن يقاتل بنفسه الجبارين، وإن كان لا بد من شنقي لذلك ــ لأنها ليست المادة ١٢٠(أ) أو

(ب) هي التي تنطبق على تلك الحالة بل المائدة ١٢١: إعلان الحرب على الملك ـ فإنني سأظلّ أردّد أن هذه هي شريعتي، وأنها شريعة حق، وحتى جثتي ستردد ذلك وهي معلقة على أعواد المشنقة!!

لذلك، أيها السادة، لا تفكّروا في تخليصي من النفي مدى الحياة، وإن كان لكم إله، وإن كان لكم روح تسعون لنجاتها، وإن كان لكم عقيدة تؤمنون بها، فستقرّون ما تمليه ضمائركم. لا تعتبروا أنفسكم مستخدمين لدى رؤسائكم، ولكن اعتبروا أنفسكم فقط أنكم عبيد لله وجنود... كذا... بحسب ضمائركم فقط، وليس لإنقاذي ولكن لإنقاذ أنفسكم.

عندما قال القاضي «لا أسمح لك بذلك» وأراد مني أن أكفّ، قلت له: «لِمَ إذن لا تكفّ هذه المهزلة وتأمر بشنقي في الحال وتستريح؟»... لقد تبسّم وأجاب أن الأمر ليس بيني وبينه فقط، ولكنه بينه وبين الجمهور، وقد أجبته أن الجمهور قد أعطى رأيه داخل القاعة، وكذلك في الشوارع حيث احتشد الناس بالآلاف لتحيتنا إذ تأخذوننا وإذ تعودون بنا، والنساء المسنات برزن مع تحجبهن، ومنهن والدتي، يشرْنَ إلينا.

إن دفاعي أيها السادة إنما هو في سبيل الله، ومن أجل مواطنيّ، إننا الآن في قاعة هذه المحكمة كسجناء ومتّهمين، ولكن عندما يجمعنا موقف الحشر أمام الله أحكم الحاكمين فالقاضي والمحلفون والمتهمون والمدعي العام ومساعده... الملك نفسه، وكل إنسان يحشر ويسأل أمام الله: «لمن الملك اليوم؟» ماذا يكون جوابكم؟ «إن الملك لك، إنه ملكوتك!» إنكم تقولون إذ تصلّون لله «ليأتك ملكوتك» وقد أتى ملكوت الله أيها السادة.. لقد جاء ملكوت الله.. إن ملكوت الله

هنا اليوم وفي هذه الساعة... إنه ليس ملك الملك جورج، ولكنه ملكوت الله، وعليكم أن تتّخذوا قراركم على هذا الأساس. وعليّ أن أتصرف على تلك القاعدة، ولذلك أقول إنني أتّبع قانون الملك جورج ما لم يحملني على مخالفة أمر ربي!

ليس في نفسي حقد شخصي على الملك، وليس حتى على القاضي في نفسي شيء من ذلك، ولا على الحكومة، ولا يمكن أن يثبت ذلك من أي موقف في خطبي العامة... لا أيها السادة، يجب أن نعمل بدافع من المصلحة العامة لا من الأحقاد الشخصية.

لقد غضب ابن عم رسول الله (ص) عليّ كرّم الله وجهه على يهودي تهجّم على الإسلام ورب الإسلام وعقيدة الإسلام، فوثب عليه عليّ ليقتله. وأيقن اليهودي بالموت. ويئس نهائياً من الحياة فبصق في وجهه...

أرأيتم وعاء مملوءاً باللبن على النار يكاد يفور، فيهدأ حالما يضاف إليه قليل من الماء؟... لقد كان أثر بصقة اليهودي كذلك تماماً، إذ هدأ غضب عليّ في الحال عجباً، وترك اليهودي ومضى. ولكن اليهودي كان من الدهشة لهذا التحول الفجائي بحيث تبع علياً حتى أدركه وقال له: «إن أمرك في غاية العجب، لقد طرحتني حينما تفوّهت بكلمة وهممت بقتلي، حتى إذا بصقت في وجهك يائساً تركتني؟!» فأجاب عليّ: «لقد تجرأتَ على حرمة الله وكنت لذلك قاتلك، فلما بصقت عليّ غضبت لنفسي، ولا يتفق الحقد الشخصي والواجب العام».

إن لي أن كون سيّافاً لله لا قاتلاً من أجل علي!!

أيها السادة، كلانا يحمل اسم علي الكريم، وإنني أحمل أيضاً اسم من هو أعظم من علي، وإنني لم أقف موقف القاتل بسبب الأحقاد الشخصية حتى في قتل الجبارين، ولكنني في سبيل الله أقتل كل من يأمر الله بقتله ولو كان ذلك أخي الشقيق أو أمي العزيزة أو زوجي أو أطفالي أو أي إنسان أرضاه لله.. فعونك يا رباه!!!

* * *

(وهنا خان مولانا محمد علي صوته وتحدرت قطرات من الدمع على وجنتيه، وجلس في نصر مبين).

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٣.

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾؛ سورة البقرة، الآية: ١٥٩.

(٣) رواه البخاري.

(٤) كان هذا التعبير يطلق على الشقيقين محمد علي وشوكت علي لشدة ارتباط جهاد كل منهما بجهاد الآخر.

(٥) ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى﴾؛ سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٦) Mr. Britling Sees it Through.

(٧) عاصمة الدولة العثمانية، وكانت تعتبر حينذاك ممثلة للخلافة الإسلامية.

(٨) إشارة إلى مسرحية شكسبير «تاجر البندقية» وتتلخص في أن تاجراً مسيحياً استدان من شايلوك اليهودي مبلغاً من المال على أن يقتطع اليهودي من صدر التاجر رطلين من اللحم إن عجز عن الوفاء بالدين حين الاستحقاق. وقد

عجز التاجر فأصر اليهودي في المحكمة بكل قسوة على قطع اللحم والتزام ما ورد في العقد. وأخيراً كان الحكم السماح له بقطع اللحم على ألا يزيد أو ينقص عن الرطلين، وألا يريق قطرة واحدة من الدم المسيحي.

(٩) مولوخ (Moloch) إله العمونيين. وكانوا يقدمون له القرابين البشرية.

(١٠) شاعر إيطالي في القرون الوسطى.

(١١) شاعر إنكليزي.

(١٢) بسمارك.

(١٣) استشهاد سبق ذكره.

(١٤)
Weakness never need be falseness
Truth is truth in each degree,
Thunder pealed by God to Nature,
Whispered by my soul to me.

تعليق جودت سعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى والآمرين بالقسط من الناس.

وبعد، لقد سبق لي أن قرأت هذا الكتاب، أو هذه المرافعة، منذ نحو ثلاثين سنة، وكان قد أثار في نفسي تساؤلات عميقة، وإعجاباً شديداً في ذلك الحين، وأرى الآن ونحن على عتبة غليان شديد، وحديث لا ينقطع عن عودة الإسلام أو المسلمين إلى الساحة البشرية من جديد، كحمَلَة رسالة ومنظور جديد للمشكلة الإنسانية، في عصر انتقال من الحياة التقليدية، التي عاشتها البشرية، الى التطلّع لنظام عالمي جديد.

وبكل التواضع والثقة، أرى أنه ينبغي أن أقدم وجهة نظري كمسلم

يراقب الساحة العالمية كيف ينبغي للمسلمين أن يقدموا أنفسهم في هذا العالم الصاخب الذي اختلطت فيه المصالح والمغارم كما اختلطت التصورات والدعايات، بين عالمين، عالم يملك القوة والمعرفة، ووسائل، إيصال المعلومات وهو يحمل شعوراً مطمئناً، بأنه جدير بالامتيازات التي يعيشها، وإن كان يشعر بقلق، سببه كيف سيحتفظ بهذه الامتيازات، وكيف سيقنع الآخرين بأن هذه الامتيازات طبيعية.

ومن الحمق والمغامرة الفاشلة، أن يتطلع أربعة أخماس العالم، إلى إمكانية التقليل من هذه الامتيازات أو التشكيك فيها، فضلاً عن التطلع إلى أن هذا العالم، الذي نعيش فيه ينبغي أن تزول منه هذه الامتيازات، إذ كل من يتطلع إلى زوال الامتيازات، ينبغي أن يعرف أنه ليس من الصنف الذي يمكن أن يتحمل مسؤولية تسيير العالم، فليس لهم الحق في أن يبلغوا درجة الارتفاع إلى مستوى امتيازات تَمَلُّك المعرفة وإنتاجها، فضلاً عن تطبيقات المعرفة، فلا بد من أن يحتكر خمس العالم المعرفة وتطبيقاتها، ولا بد من موافقة أربعة أخماس العالم على هذا الاحتكار والامتياز، وأن يعترفوا بأنهم ليسوا أهلاً لأن يتعلموا، ولا قدرة لهم على تحمّل مسؤولية المعرفة، وأن هذه المعرفة، وتطبيقاتها، لا يصلح لها غير خمس العالم الأبيض النظيف!! وأن كل من تساوره نفسه، بأن هذه الامتيازات ليست أبدية، ينبغي حمله على الاعتراف بأن هذا التصوّر وهذا التطلع هو وساوس سيئة، وينبغي استخدام كل وسائل الترغيب والترهيب، حتى يرفع من فكره، أنه يمكن أن يكون أهلاً للمعرفة، واستخدام المعرفة، لأن المعرفة واستخداماتها حكر على خمس العالم. ولا يكفي الاعتراف بهذه الامتيازات، بأنها مؤقتة، وقابلة للزوال، بل ينبغي أن تكون أبدية، وغير قابلة للزوال. ولا يكفي الاعتراف

الظاهري، بل لا بد من الاقتناع والإيمان الباطني، بأن المعرفة، واستخدامها، وحق الفيتو، وكذلك ٨٠٪ من إنتاج العالم، ينبغي أن يكون تحت تصرف ٢٠٪ من سكانه، وأن كل من لا يرى أن هذا الوضع هو الحق السرمدي، ينبغي أن يُحْمَل على الاعتراف، ولا يكفي الاعتراف، بل ولا بد من الإيمان، بأن هذا الوضع هو الحق الذي وافق عليه أهل الأرض والسماء، وهذا أسمى ما وصل إليه الناس، في تاريخهم كله، وأنه هو النظام العالمي الجديد، وكل من لا يردد ذلك مذعوراً، خائفاً وبدون تلكؤ وأن هذا هو إرادة «أبانا الذي في السموات» وهو ما أجمع عليه أهل الأرض، ينبغي أن يجعل عبرة لمن يريد أن يعتبر، وأن هذا النظام ليس في حاجة إلى شرعية من خارجه، لأنه شرعية في ذاته.

أنا هنا في حاجة إلى شرح وضع بشري صعب الإمساك به، ووضعه تحت المجهر. إن الأمور ملتبسة وخفية، وصعبة الكشف، لا لأنها غير واضحة، بل المشكلة هي في الوضوح والخفاء في آن واحد. كم كان اكتشاف حركة الأرض حول الشمس بدل أن نعتقد أن الشمس تدور حولها كم كان هذا الاكتشاف صعباً وخفياً، إننا نعيش أموراً كثيرة، بهذا الوضوح والخفاء. والموضوع الذي نحن بصدد بحثه هو من هذا النوع، الخفي الجلي في آن واحد.

وتساعدنا على إيضاح الفكرة، اقتباسات من د. علي شريعتي، الذي يبحث هذا الموضوع، في فصل من محاضراته، التي طبعت بعنوان: «الإنسان والإسلام».

ينقل عن عمر مولود، ويقول: «إذا أردت أن تستخدم شخصاً، وتجعله مطيعاً، وتطمئن إلى وفائه لك، عليك أن تسلب منه شخصيته، لأنه

إذا كانت له شخصيته لا يمكن أن يكون خادماً جيداً. ومن أجل إحكام التسلط على قوم ما، يجب أن تسلبهم شعورهم بالإنسانية، أو إضعاف هذا الشعور على الأقل، فالشخص ذو الشخصية، خادم رديء، ولكن فاقد الشخصية خادم جيد، ومطيع، ووفي، وسلس الانقياد. وما دام الشرقي يشعر بأنه ذو شخصية إنسانية مستقلة أصيلة ولائقة، فمن غير الممكن أن يهز ذيله إلى هذا الحد. يجب سلب شخصيته التي تمنعه من الاعتراف بنا. وما دام هذا الإنسان يقول: أنا شخص محترم، وذو كرامة في منطقتي ومحلتي، والناس لا يتوقعون مني الاعتراف ويطمئنون إليّ، وأنا موضع أسرارهم جميعاً، فإن كل ما تعمل معه لا يجدي نفعاً، تأخذ منه ماله فلا يقول شيئاً، تجلده فلا يقول شيئاً، لماذا؟ لأن له شخصية، هي التي تمنعه من الاعتراف. إن هذه الشخصية الإنسانية والاجتماعية التي يشعر بها لنفسه ولقومه هي التي تمنعه من الاعتراف بنا، ويجب سلبها منه، يجب أن أشعره بفقدان هذه الشخصية وعندها سيعرف بأنه لا شيء، وسوف يأتي بنفسه، ويقع على قدمي ليقول: يا سيد، كل ما أردته مني أؤديه، وكل ما تقول أفعله...

ويقول عن كاتب أفريقي: «إن هناك تناقضاً موجوداً بين رابطة إنسانين، بين رابطة مجتمعين بشريين يمثله التناقض الموجود بين الأم والولد. هو أن الأم تحقّر ولدها، تضربه، تنفيه، والولد من أجل أن يبقى في أمان من غضب الأم، من أجل أن لا يقع موضع احتقار أمه وضربها ونفيها يلوذ بأمه أكثر ويلتصق بحجرها والأم بعد ذلك لا تنفيه، لماذا؟ لأنه بعد هذا، ليس بذلك الطفل الفضولي، في مقابل أمه، نفى الابن شخصيته الأولى المستقلة... هذه الشخصية كانت مورد هجوم الأم، ومن أجل أن لا يكون موضع هجوم الأم وإهانتها يلوذ بها، من أجل أن يكون في أمان.

فرابطة إنسانين مجتمعين، الشرق والغرب، من نيتشه، إلى هيجل، إلى فرويد، إلى رينان، يقول شريعتي: أنا شاهدت هذه الفاجعة بعيني في جامعة كجامعة السوربون في باريس، وفي القرن العشرين. يقوم السيد الدكتور في الطب، فيكتب رسالة الدكتوراه حول القياس بين خلايا دماغ كل من الأسود والأبيض، ويجلس عدد من الأساتذة الكبار العالمين المشهورين، ويمنحون هذا السيد شهادة الدكتوراه...

هكذا يُضْفُون على مثل هذه الفاجعة الجاهلية البليدة صفة علمية، وفيزيائية، ونفسية.

السيد هيغل يقول: «إن الإله لم يكن وعياً، ثم دخل في الطبيعة، ثم دخل في النبات، وبعد النبات نما ودخل في الحيوان. ثم دخل في الإنسان. ودخل في الإنسان الغربي ثم تكامل في الجرماني. ثم تكامل في بلد الألمان ودخل في هذه الحكومة الي تحكمنا الآن».

السيد زيغفريد أستاذ جامعة وعالم اجتماعي معروف وعضو الأكاديمية، يقول: «الشخص الفرنسي نفسه، هذا المتوسط العادي العامل، ذو العينين الزرقاوين، والشعر الأشقر يتمكن من إدارة جهاز إداري عظيم، ومنشآت عظيمة في الشرق، ببساطة، بينما إذا ذهبت إلى الشرق، ترى الشخصيات العظيمة المفكرة، تعجز عن إدارة جهاز ذي ستة عمال، لماذا؟... لأن الدماغ الغربي دماغ إداري مدني، والدماغ الشرقي، دماغ عاطفي وشعري وعرفاني»... حتى الثياب، ليس لنا حق أن نلبس ما نريد، لأن الثياب والاستهلاك له صلة بالذوق، والمجتمع، والشخصية القومية، والدينية، والتاريخ، والثقافة، والفن، والجمال. إذن يجب إبادة جميع هذه الأمور

ليتحول هذا السيد، هذه السيدة، إلى مجسمة، نلبسها كل ما نصنعه، ونتمكن من أن نضع في حلقومها كل ما أعددنا. وهي لا تقول: أحب أو لا أحب. عليك أن تحبي كل ما نحب. هل أنت إنسانة، حتى تقولي أنا أحب أو لا أحب؟ أنت فارغة من نفسك، أنت لم تكوني أنت، عليك ألا تنطقي بكلمة (أنا)، وكما ترى فنحن لا نستعملها».

انتهى ما نقلته عن شريعتي باختصار.

ومحمد إقبال له ديوان بعنوان «الأسرار والرموز».. أي أسرار إثبات الذات، ورموز نفي الذات، ويعالج الديوان هذا الموضوع.

والذي أريده من هذا كله هو أن أُنبّه إلى أن الإنسان ذو طبيعة مزدوجة، إن له مرونة كبيرة في التكيُّف وصلابة أيضاً ضد التغير، وأن المجتمع له أساليب معروفة أو قابلة للمعرفة في صياغة نموذجين من الإنسان، نموذج الإنسان الكلّ، ونموذج الإنسان العدل. الإنسان الكلّ، الإنسان الشيء. الإنسان الذي يجعله المجتمع يؤمن بأنه خلق ليطيع ولا يعترض ولا يميز ولا يقول عن شيء هذا خطأ وهذا صواب، وأن الصواب ما رآه سيده. حسبه أن يكون له سيد يفكر عنه ويفهم بدلاً عنه.

ومجتمع آخر يمكن أن يصنع من الإنسان إنساناً يرفض القسر والقهر والإكراه، يفتح أمام الإنسان مجالاً للتفكير والإبداع، يعطي له حق الاختيار، والتمييز، ويحرره من عبودية المجتمع. حتى إن الله في مثل هذا المجتمع يجوز الاعتراض عليه ورفض دينه ووصاياه.. ومع ذلك يبقى للمعترض حق البقاء محترماً ويستحق العدالة. وحتى الله في

مثل هذا المجتمع يوافق على هذا حيث يقول: ﴿لا إكراه في الدين﴾ (البقرة: ٢٥٦) و﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ (الممتحنة: ٨). إنها لمرحلة انقلابية أن يدخل في حياة البشر تصوّر مسؤولية فردية يرى فيه الإنسان إمكانية الخروج من قسر المجتمع وأنه يمكن للفرد أن يتصوّر نظاماً، غير ما يحدّده المجتمع. إن هذا التصور صعب، حتى في أيامنا هذه، فكيف في سالف الأيام؟ إنه لم يكن سهلاً تصوّر نظام أعلى للكون، غير تصوّر المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان.

إنّي أشعر بفقر في الفكر والبيان، حين أتناول موضوعاً كهذا، ولا أتمكن من توضيحه وجلائه، فأضطر لتركه في الغموض، والظلام. كيف نعيش؟ هل لنا حق في أن نفكر خارج ما يقال لنا؟ هل لنا حق في التساؤل؟ هل نحن محكومون بقوالب لا يمكن أن نحيد عنها؟ كان الصينيون يضعون الأرجل في قوالب صغيرة لتظل القدمان صغيرتين بعد أن يكبر الإنسان.

ولكن هل يمكن أن نتصور أن يوضع وعي الإنسان في قالب، بحيث لا يمكن أن يتجاوز حده، وأن لا يفكر في ما ليس مسموحاً له التفكير فيه؟ على ضوء هذا التصوّر يمكن إعادة النظر في الآيات التي يذكرها القرآن عن وصول الإنسان إلى حالة العجز التام عن استخدام سمعه، وبصره، وعقله، وحالة الوصول إلى أن يرى السيئة حسنة.

فلا بد من دراسة هذه الآيات، دراسة جدّية وجديدة، وإنّي سأحاول ذكر حالة أو حادثة لعلها تساعدنا أن نفهم المشكلة بشكل أفضل أو أوضح قليلاً في أبعادها المأساوية:

حدث في قرية مجاورة لنا، أن فتاة وقعت في الخطيئة، فانكشف الأمر، فاستجارت ببعض معارفها، فذهب أخوها وقتلها، وسلّم نفسه، وسُجنَ بضعة أشهر، ثم أُفرج عنه، وعادت الأمور إلى مجاريها مرة أخرى، كأن لم يحدث شيء. هذه هي خلاصة القصة.

وأظن أن هذه القصة ليست غريبة، بل وكثيرة الحدوث، ويمكن أن يذكر كل واحد عدة قصص من أمثالها، تحدث في بلادنا والبلاد المشابهة لها، ولكن هل يمكن أن نتأمل القصة قليلاً؟ أولاً هل يحق لنا أن نفكر في هذا الموضوع؟ أم ينبغي أن نسمعها كما هي، ثم ليس لنا إلاّ أن نسكت؟

إنّي أتمنى أن يتناول مثل هذا الموضوع متخصص اجتماعي، ومتخصص في الشؤون الإنسانية، والتاريخية، من جوانبها الكثيرة ومتخصص في تطوّر القانون، لا كقصة مأساة متصلة بالغريزة فقط.

أولاً، ينبغي أن أقول إنه في العادة نحضر الجنازات كتقليد في مجتمعنا، ولكن في هذه الحالة لم نُبلَّغ عن جنازة، وإنّما وصل الخبر بشكل مقتضب، ولم يخطر لنا أيضاً أنه ينبغي أن نحضر الجنازة، أن نذهب للعزاء. ولما قابلت والدها بعد ذلك ـ وهو شخص محترم في القرية ـ وربما لأنه محترم ارتكبوا هذا الفعل ليحتفظوا بالمكانة والشرف. لما قابلته وقعت في حرج، هل أتجاهل الموضوع كلياً؟ أم أعزيه أم كيف أطرق هذا الموضوع؟! في الواقع، لا أذكر الآن جيداً، ماذا قلت له، ولكن لم أتجاهل الموضوع، وكانت كلماتي شبه مواساة خجولة على مصيبته، حاولت أن أخفف من المصيبة وكانت تراودني أفكار متناقضة شائكة، وتَقَبَّل هو مواساتي،

ولكن لم تمت الحادثة في نفسي، وظلت تطاردني، وبخاصة كلما قرأت أو فكرت في كيفية إنتاج المجتمع لمفاهيمه؟؟ وكيف يحميها؟ وكيف ينقلها إلى الأجيال؟ هذه الحادثة نعيشها. ولكن هل لنا أن نفكر ممّ تتركب؟ من الذي له الحق في التحدث في هذا الموضوع؟ ومن الذي إذا تحدث في هذا الموضوع يؤخذ كلامه بجدية واحترام؟ وهل أنا لي الحق في أن أتناول هذا الموضوع؟ وما هي الخلفية التي تجرئني على تناول هذا الموضوع؟ وهل سيعتبرني المجتمع حين أتناول هذا الموضوع مخرباً للمجتمع ومنتهكاً لحرماته؟ أم سينظر إليّ على أني أعمل لصالح المجتمع؟ وما هي الخلفية التي ستحميني حين أتحدث عن هذا؟ وما هي الحيثيات التي يمكن أن أعتمد عليها حين أتحدث عن هذا الموضوع؟ وأتساءل من سيحميني؟ وإلى أي مرجع سألتجىء؟ هل لي حق أن أتساءل وأقول هذه الموءودة بأي ذنب قتلت؟ على أية شريعة يعتمد هذا الوأد المعاصر؟ وهذا القاضي الذي أفرج عن الذي غسل العار!!؟ على أي قانون اعتمد؟ والحاصل أن هذه الحادثة لم يستطع أن يعترض عليها أحد، لا اليمين، ولا اليسار، ولا الوسط، ولا المتدينون، ولا النساء، ولا الرجال، ولا الأقارب، ولا الأباعد. إجماع تام، وسكوت مطبق. حتى الوالدة، ربما قمعت غريزة الأمومة، فلم تستطع أن تعترض. وحتى شرع الله أو ممثلو شرع الله لم يستطيعوا أن يعترضوا على هذا، مع أن الشرع حكمه شيء رمزي في هذه الحالة، بالنسبة للعقوبة التي نفذت. هل لي حق أن أقول هذه العقوبة التي نفذت، وتقبلها الجميع، تقبلها القانون، وتقبلها المجتمع بجميع طوائفه.. وهل ممثل الشرع استطاع أن يعترض استناداً إلى نصوص صريحة؟ لماذا حتى الشرع لم يستطع أن يعترض؟ لماذا لم يفكر أحد بالشريك في الخطيئة؟ ماذا ينبغي أن يفعل به؟ مع أن الشرع يسوّي بينهما، ما قيمة الشرع؟ وما قيمة الله إزاء ما يفرضه المجتمع ويقره المجتمع إزاء

الامتيازات التي يعطيها المجتمع لبعض الأفراد ويحرمها آخرين؟ كيف وجد هذا الوضع؟ ولماذا هذا الإجماع على الكيل بمكيالين؟ وكيف صار عدم المساواة مقبولاً إلى هذه الدرجة العميقة؟ هذه عيّنة من هذه المشكلة الجلية والخفية في آن معاً.

إن النظام العالمي الجديد شبيه بهذا، يريد أن يقرّ شرعية من هذا النوع، يميت من يشاء ويحيي من يشاء!! وليس لأحد حق أن يفهم الأمر على وجه آخر. هل لي حق أن أفهم؟ هل لي حق أن أتساءل وأقارن؟ هل لي حق أن أتشكك؟ حتى معنى العدالة ينبغي أن يمسخ، حتى غريزة القرابة، ينبغي أن تنسى... ينبغي أن يُمحى التاريخ والذاكرة. ينبغي أن يمحى كل شيء، ما عدا امتيازات الممتازين. الوجود كله ينبغي أن يسجد للامتيازات، ولكن البشر من طينة تحبّ المعصية. وهيهات أن يطفأ لهيب الشوق إلى المعرفة، وهيهات أن يقمع إلى الأبد حب الاستطلاع.

الشيء الذي أريد أن أبرزه هنا، أن هناك قانوناً اجتماعياً حديدياً جباراً يحكمنا جميعاً، ولا قدرة لنا على إعادة النظر فيه، وإعادة التفكير فيه، وأنّا لسنا أحراراً في أن نفكر في هذا الموضوع، حتى أنّي أشعر أن شبح الاستنكار يطاردني كأني أدافع عن الفاحشة، وكأن الله تعالى لم يكن غيوراً بما فيه الكفاية حين شرّع هذه العقوبة (الخفيفة الهزيلة)!! ولكن هذا المجتمع يتسامح مع المخطىء، ولا يتسامح مع المخطئة ، والنساء هل لهن حق أن يفهمن أنهن مثل الرجال عند الله في هذا الموضوع بالذات؟ مَن هذه الوقحة التي يمكن أن تفهم هذا الموضوع؟ هل لها حق أن تفهم شرع الله؟ هل لنا جميعاً أن نفهم؟ إن قانوناً جباراً يحكمنا، وجاذبية ساحقة تخضعنا وتخضع تفكيرنا، ما هذه القوة الجبارة التي تحرمنا ولا تدع

لنا منفذاً للتفكير فيه؟ هل يمكن لنا أن ننتزع أنفسنا لحظة لنقف فيها ونتفكر؟ هل يمكن أن نكشف هذا السلطان المسيطر علينا وهل له نظائر؟ إن هذه القوة، أقوى من القانون الذي وضعه البشر، وأرسخ في النفوس من القانون الإلهي الذي أنزله الله، ولعله هو القانون الكوني الذي أبدع الله عليه المجتمع.

إذا عرفنا قوانينه وسننه، يمكن أن نسخرها لصالحنا، فهي ليست سلبية كلية ولا إيجابية وإنما هي طاقة مثل الطاقة الكهربائية، قوة قابلة للانفجار، وقوة قابلة للضبط والتسخير، فهي نعمة حين نكشفها، ونقمة حين تجرفنا، ولا نسيطر عليها ولا نقدر على وعيها.

هذا مثلٌ حاولت أن أعرضه، لأنبه إلى بعض مشكلات المجتمع، فهناك مشكلات غير قابلة للمساس بها لأنها ملتهبة أكثر، أتركها بعد أن أثير التنافس للبحث عنها وألهب حب الاستطلاع لمغامرة اقتحامها.
التوراة في مقدمة سفر التكوين، تذكر أن الإنسان أكل من شجرة المعرفة فارتفع بذلك قدرةً وطمع في أن يأكل من شجرة الحياة (أو شجرة الخلد) فوضعت حراسة شديدة على شجرة الحياة حتى لا يسهل الوصول إليها «ولهيب سيف متقلب لحراسة شجرة الحياة».

لعلنا يمكن أن نفهم من هذا كم هو صعب الاقتراب من شجرة المعرفة، إننا نحس أن الفهم والمعرفة، والإدراك محجّمة ومعاقة ومقزّمة، وأنها محروسة بلهيب سيف متقلب لحراسة شجرة المعرفة، فضلاً عن شجرة الخلد!..

إن الإنسان سخّر المادة، فدخلت معرفته إلى نواة الذرة، فاهتدى إلى مُلْكٍ من الطاقة لا يبلى، وعرف سنن الحياة، فقضى على الأمراض،

وزاد من معدلات الأعمار ودخل إلى جوف الجينات، فانكشفت له أشياء لا يمكن التكهن بعواقبها.

فهل آن لشبابنا أن يدخلوا إلى معرفة سنن المجتمع، ليحررونا من الآصار والأغلال؟ هل لنا حق في الفهم؟ هل لنا حق في أن نطالب بميزان ومقياس للفهم في مستوى المجتمع المحلي؟ وفي مستوى المجتمع العالمي؟ فإذا كان ليس لنا الحق في مستوى المجتمع المحلي، فمن باب أولى أن لا يكون لنا الحق في المجتمع العالمي. لأن حق المساواة الأولية قد دمّر من زمن بعيد لصالح حق الامتيازات ولصالح الأقوياء دائماً. القوي هو الذي يضع المقاييس والأوزان، وله الحق في تعديلها، سواء أكان الرجل مقابل المرأة، أم الأبيض مقابل الذي ليس بأبيض.

في الإنجيل كلمة، تقول هذه الكلمة: «تعرفون الحق والحق يحرركم».

ماذا تعني هذه الكلمة؟ أظن أنها تعني (المعرفة قوة محررة). هل يجوز للبشر أن يطعموا من هذه الشجرة؟ هل لكل البشر الحق في أن يذوقوا هذه الثمرة؟... والنظام العالمي الجديد هو لحماية هذه الشجرة، وإبقائها حكراً للأبيض الذي لا يمثل إلا ١١٪ من العالم. ولهيب سيف متقلب لحماية شجرة المعرفة...

في مجلة «رسالة اليونسكو» يونيو ١٩٩٠ (ص٢٧) هذه العبارة التالية - استوح منها ما شئت -: «وفي حوالي عام ٢٠٠٠ لن يشكل ما اتفق على ما تسميته الجنس الأبيض سوى ١١٪ من سكان الكرة الأرضية، ولا يستبعد أن نتصور حدوث مواجهة بين الجناح الراديكالي في العالم الإسلامي وبين ما يتبقى من الحضارة

المسيحية، ويبدو أن صراعاً من هذا القبيل لا مفرّ منه».

لماذا لا مفرّ منه؟ هل لي حق أن أحلّل وأفسّر؟ لماذا هذا البروفسور الحائز على جائزة نوبل في الأدب متشائم إلى هذا الحد؟ لماذا لا مفر من الصراع؟ لماذا الطريق إلى الحل مسدود؟ لماذا هذا التشاؤم؟ لست أنا مبتكر هذه المصطلحات والإحصاءات والتخوفات. لماذا الخوف؟ هل لنا حق أن نحلّل ونكشف ما في باطنه؟ لماذا يخاف صاحب الـ «نوبل»؟ هل البريء يخاف؟ ولماذا يشعر أنه غير بريء؟ ما هو الذنب الذي ارتكبته (يا مستر جوزيف) حتى تخاف؟.. إنه لا يثق إلا بنفسه، إنه لا يثق بالإنسان!. إنه يرى أن ٨٩٪ من البشر لا يوثق بهم لأنهم ليسوا بيضاً، لأنهم ليسوا أهلاً لتحمّل المسؤولية. هو وحده الذي يفهم، هو وحده الأمين على سر المعرفة، لا يؤتمن على سر المعرفة غيره. ولكن سر المعرفة يتسرّب ويضطرب العالم والمقاييس والموازين التي صنعوها، ويعلم كم هي هشة (هذه الأمم المتحدة)، التي يذخرونها للنظام العالمي الجديد، وكم تزلزل هذا الجهاز العنكبوتي عند اشتداد الأزمة، فلم يكن إجماعه يغني فتيلاً، وكان حق (الفيتو الحقيقي) في محور آخر غير محور الشمال، كانت كلمة (لا) وكلمة (نعم) في الجنوب ولم تكن في الشمال، فسواء استخدم أهل الجنوب حقهم أم لم يستخدموه، فإن حق (الفيتو) نزل إلى محور الجنوب ورصيده في الجنوب وليس في الشمال، كل هذه الأمور هي التي تجعل رجلاً يحمل جائزة نوبل في الأدب، يخاف ولا يرى مفراً من الصراعات. إن أصحاب الامتيازات، إن الأرستقراطيات لا يمكن أن تتصوّر عالماً يتساوى فيه الناس، إنه عالم غير قابل للسكنى، نعم يا سيد (برودسكي) هناك عالم تعداده ٨٩٪ من الناس، وإن لم يكونوا بيضاً يرون أن العالم قابل للسكنى وسيكون عالماً جميلاً أكثر وأسعد وبدون صراعات! ستزول الصرعات والصراعات، ولكن سيظل

التنافس لجعل هذا العالم أفضل، إن العالم الجديد الذي يريده البيض عالم مستحيل. مستحيل أن يمكن حماية اللامساواة والظلم بالقوة، مهما كبرت... أليس في (السوفيات) عبرة؟ فهل الرؤوس النووية الأميركية عندها مناعة ضد الظلم، أكثر من الرؤوس النووية السوفياتية؟ إنها من الطينة نفسها، لا يمكن أن تحمي الظلم، فستسقط كل القوى التي تحمي الظلم، وتمنع العدل. إنها عبرة التاريخ البشري وانتصار إرادة العدالة.

بأبي أنت وأمي يا سيدي يا رسول الله إنك كنت أعظم من يقرأ التاريخ حين قررت خلاصة التاريخ كله في كلمة واحدة «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»(*)، إنه (ص) لم يتأسف على الجنس الأبيض أو الأسود، ولم يخف على مصير البشرية، ولم يرَ التاريخ مظلماً، بل مشرقاً، ورأى مشكلة التاريخ في العدل، ولم يكن متشائماً، بل كان موقناً أن العدل هو الذي سينتصر وأن الظلم هو الذي سيندثر، وأن الشرعية هي العدل، وحيثما كان العدل فثَمَّ شرع الله... فثَمَّ البقاء.

﴿ليس بأمانيّكم ولا أمانيّ أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ (النساء: ١٢٣).

أيها المتعبون في العالم، استبشروا ولا تيأسوا، لقد اقترب ملكوت الله منها.. هي نبوءة محمد (ص) برزت من عالم الغيب إلى عالم

(*) البخاري.

الشهادة. لم يقل قال الله وإنما قال: قال التاريخ... التاريخ مظهر لتجلي قانون الله تعالى، والقرآن الكريم يأمر بتأمل عاقبة الذين خلَوا من قبل، إن الأمم السابقة هلكت لأنها لم تعدل. ونحن نعرف أن ١١٪ من الناس الذين يسيطرون على ٨٩٪ لا يعدلون. ولكن ينبغي أن نعلم أن العيش ضمن الامتيازات يعطل الفهم، وقوة الإدراك عند البشر. فهذا الذي حذرنا منه الله ورسوله بالمعنى القائل: انظروا الماضي والحاضر وانتظروا المستقبل، لتعلموا أن سنّة الله أو قانونه لن تجد له تبديلاً، ولن تجد له تحويلاً.

الشرعية هي التي يشهد لها التاريخ، الشرعية ليس ما يقرره ١١٪ من العالم ولا ما يخضع له ٨٩٪ من العالم. الشرعية ما يفرزه التاريخ الذي ليس له إلا ميزان واحد ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ (الرعد: ١٧).

هذه هي الشرعية التي لا يمكن التلاعب بها. يمكن أن تفتري على الله، يمكن أن تشوّه الوقائع ولكن لا يمكن التلاعب بالعواقب، التاريخ لم يخطىء هدفه خلال سيره، وهو يعرف كيف يسير ﴿والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (يوسف: ٢١).

هذا الإنسان/ المخلوق الأخير في هذا الكون، تاريخه يدل على أنه تجاوز العقبات مهما تعثّر في الطريق. إنه سيحقق ما علم الله فيه وجهلته الملائكة ، حين اتهموه بأنه سيفسد في الأرض وسيسفك الدماء، كثيرون في التاريخ كانوا يستجيبون لتوقعات الملائكة ولكن الذين يتجاوزون العقبات هم الذين كانوا يتلمسون ما علم الله فيهم.

إنهم سيقيمون في الأرض دار السلام ﴿يهدي به الله من اتّبع

رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ (المائدة: ١٦).

والمرافعة التي نحن بصدد دراستها، موضوعها الشرعية: لمن الشرعية؟ لمن الطاعة؟ وكيف نحقق الشرعية؟ وما هي حدود الطاعة؟

إن هذا الموضوع مشكلة إنسانية خلال التاريخ كله، وكلما تقدم التاريخ، يثار هذا الموضوع بإشكالية أكبر. والآن ما هي الشرعية؟ وماذا قال (مولاي محمد علي) في هذا الموضوع؟ وماذا يمكن أن نقول في هذا الموضوع؟ وماذا يمكن أن يقول من يأتي بعدنا في هذا الموضوع؟ ثم كيف واجه محمد (ص) هذا الموضوع؟ وكيف يمكن إضاءة المواجهة التي واجهها محمد (ص) على مرّ التاريخ؟

في البدء لا يمكن أن يعيش الناس بدون شرعية. كأن مشكلة الشرعية لم تبرز في الحياة الإنسانية بإلحاح، إلا بعد أن تعلّم الإنسان الزراعة. لأن دخول الإنسان عهد الزراعة هو الثورة الإنسانية الكبرى، لأن الإنسان قبل الزراعة؟ كان مثل بقية المخلوقات التي لا تنتج غذاءها، وإنما تأكل من الطبيعة، فكان كسائر المخلوقات.

ولكن لمّا تعلّم الزراعة، خرج من أسلوب بقية الحيوانات. ولعل معنى الشرعية، ومعنى الحرام (التابو) الممنوع، بدأ يشكّل مشكلة إنسانية، حين زرع. إن الشجرة المزروعة لم تعد مثل بقية الشجرات، إنها اكتسبت مفهوماً جديداً. هذه الشجرة المزروعة صارت محرمة قربانها بدون شروط... لقد دخل الإنسان مرحلة تقسيم العمل، ودخل عهد إنتاج غذاء أكثر من قِبَل عدد أقل، فوجد وقت الفراغ للإبداع في مجالات أخرى. ولكن المشكلة الأساسية الشرعية:

كيف نتعامل مع هذه الشجرة؟ وكيف نبقي على العدالة في عهد الزراعة؟ لأن الزراعة نعمة كبرى لا يمكن الرجوع عنها، ولا بد من التكيف معها، ولا يمكن التكيف إلا مع العدل، فكيف يمكن إقامة العدل؟

الإنسان حين زرع الشجرة، صحيح أنه أكل مما زرع، ولكنه كشف الزراعة بالملاحظة. تأمل ما حوله فوجده خاضعاً لقانون، وجد بالمراقبة أن هذه البذرة التي يلتهمها يمكن زرعها.

لما دخل عالم الزراعة، دخل عالم المعرفة قبلها، فكأن الشجرة المزروعة نتيجة جهد المعرفة. المعرفة هي التي استنبتت الشجرة، والمعرفة هي التي ستُعلِّم كيفية العيش مع الشجرة. القصة طويلة وشيقة، ومأساوية في آن واحد. منذ عشرة آلاف سنة تعلّم الإنسان الزراعة واستأنس الحيوان، واسترقَّ الإنسانُ الإنسان، وصار الإنسان جزءاً من الأرض، يباع في الأرض. وخلال العشرة آلاف سنة عاش الإنسان مأساة التكيف مع الزراعة، ولم يتكيّف، وظل الإنسان يستعبد الإنسان. قلّة من البشر يعيشون بترف على أكتاف عدد كبير من الناس.

واكتشف الناس الكتابة، وتراكمت المعرفة، وجاءت مشكلة أن الإنسان جنس واحد، فقبل ذلك من قِبَله، ورفضه من رفضه، وجاء الأنبياء والآمرون بالقسط من الناس ليكونوا إلى جانب وحدة الإنسانية، أخذوا شيئاً فشيئاً بمعاناة شديدة. أخذ يترسخ معنى العدالة والشرعية. وكان أصحاب الامتيازات دائماً ضد وحدة الإنسانية وضد معنى العدالة. وكان أصحاب الامتيازات، (أبناء الله وأبناء السماء)!!.. ولكن الأنبياء والآمرين بالقسط من الناس، قالوا: نحن جميعاً أبناء الله، وأما أنتم فلستم أبناء الله أيضاً.. ﴿ألم ترَ إلى

الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ (البقرة: ٢٥٨)، ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ (النازعات: ١٧).

ولما دخل البشر عهد الثورة الصناعية، صارت الإشكالية أكبر، لأن حجمها صار أكبر، فصار في الإمكان أن ينتج عدد قليل، ما يكفي عدداً كبيراً.

وبدأت منافسات شديدة بين أصحاب الامتيازات، إلى أن زال التنافس بينهم وتضامنوا للمحافظة على الامتيازات. والقصة معروفة وواضحة، ولكنها أيضاً خفية، لم تُكشف بعد بوضوح مبسّط جلي. إن هذا الغموض والخفاء هما اللذان يمكّنان أصحاب الامتيازات من الاحتفاظ بامتيازاتهم في العالم، وعلى الآمرين بالقسط من الناس أن يوضحوا هذا، وحين يتضح هذا فسيبطل السحر! ومع الثورة الصناعية، بدأت الطباعة فكانت الانقلابات البشرية، وظهور الديموقراطيات في الحياة الإنسانية، وإن كان لم يتكيّف معها إلاّ الذين ملكوا المعرفة، المعرفة هي التي زرعت الشجرة، والمعرفة هي التي اهتدت إلى استئناس الحيوان، والمعرفة هي التي يسّرت وسائل المعرفة، والإنسان صار يساوي المعرفة، وعلى قدر معرفتك أنت إنسان، وعلى قدر معرفتك أنت حر. على قدر معرفتك تستحق العدالة وتحقق العدالة، وما دام هناك جاهل، هناك إنسان لم يتأنسن بعد... ولإبقاء الامتيازات لا بد من احتكار المعرفة، بلهيب سيف متقلب. ففي الحرب العالمية الأولى كان النزاع بين أصحاب الامتيازات، لأن نصيب بعضهم كان أقل من نصيب البعض الآخر.

والإشكالية الكبرى أن الجهل يمكّن أصحاب الامتيازات من التلاعب بالشرعية، فالجاهل يمكن التلاعب عليه، ويمكن استخدامه

ضد مصالحه، يمكن أن يخون نفسه عن جهالة، يمكن أن يكون أداة لأصحاب الامتيازات. هذا ما كان يحدث في العالم، حين رفع (مولانا محمد علي) الهندي صوته ودخل الصراع مع اللهيب الذي كان يقوم في العالم. كيف دخل محمد علي؟ وماذا حدث له؟ إنه شاهد إخوانه يجنَّدون للحرب لصالح أصحاب الامتيازات. وألمانيا، المحرومة آنذاك من المستعمرات، كانت المنافس الحقيقي. وتركيا، التي كانت تمثل العالم الإسلامي والبقية الباقية من اسم الخلافة الإسلامية ـ الرجل المريض ـ الذي هو موضع النزاع الحقيقي، حاولت أن تكون مع الحلفاء، ولكن رُفضت لأنها الفريسة التي يتنازع عليها فاضطرت أن تكون مع ألمانيا. ومحمد علي، المسلم الذي حاول قدر الاستطاعة أن يكون مسلماً وأن يكون مدركاً المشكلة في بعدها الإنساني، أعلن أنه لا يجوز للمسلم أن يتجنّد مع الإنكليز، الذين يستعمرون الهند للحرب ضد المسلمين الأتراك.

هنا أشعر أنه يجب أن أنبّه إلى شيء: وهو أننا وبخاصة الجيل الناشيء لا علم له، وأنا بالذات لا علم لي بالتفاصيل، ماذا حدث في الهند، هذا العالم الضخم ولماذا كان (لمحمد علي) هذه المكانة؟ وماذا حدث بالضبط وبالتفصيل؟ ومن هو محمد علي هذا؟ ولماذا دُفن هذا الهندي في بيت المقدس؟ وماذا حدث للهند وماذا حدث لخلفاء محمد علي؟

المأساة التي نعيشها نحن المسلمين مأساة معرفية، مأساة مرجعية، مأساة تسهيل المراجع.. وما لم نكوِّن الأداة المعرفية، ما لم نعدْ كتابة التاريخ من وجهة نظرنا، ونجعله ميسراً لنا وسهل الرجوع إليه، وتناوله، لن نخرج من التيه.

إننا لم نكوّن جهاز معرفتنا الذي يمكّننا خلال ساعات قليلة من معرفة محمد علي والمجتمع الذي كان يمثله، مشكلتنا مشكلة معرفة وليست مشكلة خصوم أقوياء. إلى الآن لم ندرك الأمر، لا نزال لجهلنا المطبق نظنّ أننا يمكن أن نحمي أو نحرر أنفسنا بالسلاح الذي نشتريه مقتطعين ثمنه من لقمة الخبز ومن ثمن الكتاب. نشتريه بأثمان باهظة.. ثم لا يلبث أن يتمّ تدميره بسرعة لنعود ونشتريه مرة أخرى بأثمان أعلى. إننا ومحمد علي والعالم الإسلامي، المعرفة عندنا شيء ثانوي. لم نتوجه إلى المعرفة ولم نجعلها من أولوياتنا. وجاءت الحرب الثانية، وكانت إنكلترا بين من يملكون المعرفة.. لأنهم ـ مع أنهم ملكوا المعرفة ـ ولكن البعض استأثر بالمستعمرات وسخّر مرة أخرى أبناء المستعمرات في حرب الامتيازات. ولكن النظام العالمي الجديد الذي ظهر بعد الحرب العالمية الثانية هو حصول تفاهم بين من يملكون المعرفة وصاروا صفاً واحداً وإن كانوا يتجاذبون الامتيازات إلاّ أنهم متفقون فيما بينهم ويعرفون الحدود التي يلتزمونها.

النظام العالمي الجديد هو أن الحروب توقفت بين أصحاب الامتيازات واتحدت مصالحهم والمواجهة صارت بين ١١٪ الذين لا يرون العالم إلاّ سوقاً وطاقة ومواد أولية فقط، وليس إلاّ. ويجب حماية هذا الوضع إلى آخر رمق، وكل من يرفض هذا الأمر الواقع سنئده، سندفنه حياً وبمعونة إخوانه، وسوف لن يتمكن أحد من أن يظهر حزناً، أو عطفاً، أو شفقة، سندفنه برضى أمه وأبيه، وسنقتله بيد أخيه، وأيّكم يجرؤ أن يفتح فاه إلاّ بتمجيد النظام العالمي الجديد هذا...

من هذا الوقح الذي له حق الإنكار؟ إنه يدافع عن العار الذي ينبغي أن نزيله بكل فخار!!.

إن (مولانا محمد علي) اعترض على هذا الأخ الذي يقتل أخاه وأخته في سبيل المستكبرين في الأرض، في سبيل المترفين، في سبيل أصحاب الامتيازات، في سبيل من حوَّل العالم إلى سوق، وطاقة، ومواد خام، وكل من يعترض على هذا ينبغي أن يقدم إلى المحاكمة، بتهمة الخيانة العظمى.

كان محمد علي يعتمد في المرافعة على حرية الرأي وحرية العقيدة يقول:

ما التسامح بعد كل ذلك؟ إنه كما ورد في القول المشهور: «سيدي إنني أخالف كل كلمة مما ذكرت ولكنني سأقاتل لآخر قطرة من دمي دون حقك في أن تقول ما تريد».

ذلكم هو التسامح... وإلاَّ فلا معنى للتسامح.

«إذا ما أعطاك رجل أو هيئة من الرجال ضماناً لتحمل بحرية آراءك الخاصة وتطبقها فإنني أعتقد أن من واجبهم أن يلتزموا ذلك الضمان...

إننا نبتغي حقنا في التمتع بحماية القانون لعقائدنا وتعاليمنا الدينية المتميزة ولتندم الحكومة فتقول قد رأينا خطأ سبيلنا»...

«هل الحكومة ملترمة عهدها في إطلاق حرية العقيدة؟»..

«أم أنها ستقول: كلا إننا أقوياء، إننا أشداء، إن لدينا مدمرات، إن لدينا طائرات.. إننا قد دحرنا أقوى أمم أوروبا.. وفي حلفنا ست

وعشرون دولة. وكذلك رجال الهند وأموالها وسائر مواردها... فلا يمكننا التسامح حيال آرائكم وتكاليفكم الدينية».

في قانونهم «حرية العقيدة» وفي قانونهم «من يدعو القوات المسلحة للتمرّد على الأوامر خيانة عظمى».

ومحمد علي بمهارة يبرز التناقض: إما إلغاء حرية العقيدة، وإما قبول دعوة الجنود أن يطيعوا الله الذي يؤمنون بتشريعه ويعصوا الملك أو الملكة أو القانون. وبمهارة كبيرة وحذق رائع، أظهر التناقض الموجود في قوانينهم، وهو كما يظهر من المرافعة حاضر البديهة سريع الجواب، شديد الإيمان، كبير الوثوق بدينه، وبالقضية التي يترافع عنها.

لأجل أن نفهم الموضوع بشكل أوضح، ينبغي أن نعرض القضية بشكل آخر ونضع المشكلة على المحك. ذلك أن الجندي في العالم المعاصر يُنظر إليه كبندقية أو سوط أو بوق، إنه شيء يؤمر فيطيع. جميع دول العالم تعلّم جنودها أن ينفذوا الأوامر، وليس لهم حق الاعتراض عليها إلاّ بعد تنفيذها. انظر إلى هذه المهزلة، ما قيمة الاعتراض بعد التنفيذ؟ ومع ذلك، هذا هو الذي يُعلّم في جميع أنحاء العالم كالببغاوات، يرددون هذا.

إن هذا الشيء الذي أجمع عليه العالم في نظام الجندية، يخالفه الإسلام مخالفة صريحة لا لبس فيها حين يقول: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» ﴿فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾ (الشعراء: ١٥١).

لبّ المشكلة العالمية هنا بين أن يكون الإنسان مثل البندقية تستجيب

دائماً للطلب. لا شك أن البندقية التي لها قدرة على عدم الاستجابة عند الطلب بندقية لا يوثق بها، ومرفوضة عند العسكريين، كذلك الشخص الذي يناقش الأمور ولا ينفذ إلا الأوامر الصحيحة التي يعيد اختبار صحتها بنفسه، ولا يكتفي بأوامر قادته، لا يصلح أن يكون عسكرياً عند هؤلاء.

إن هذه المشكلة بالذات، هي مشكلة الإنسان، ومشكلة العالم، ومشكلة الصلاح والفساد في العالم كله. ولكن كيف نجعل الإنسان يصل إلى هذه الدرجة؟ الجاهل لا يمكن أن يصل إلى هذا، ومرة أخرى المعرفة هي التي تحرّر، والجهل هو الذي يحوّل الإنسان إلى شيء، إلى أداة. وعدم نشر المعرفة من أكبر الجرائم، والذين يكتمون العلم مهددون بالنار، هذا هو الدين. وكثيراً ما يختلط الأمر، ولا نجاة إلا بالمعرفة، والمتدين الجاهل، مثل غير المتدين الجاهل، كلاهما واحد. هذا ما يعلمنا إيّاه التاريخ، والتاريخ هو مصدر العلم والمعرفة والله سبحانه يردنا إليه حين يريد أن يثبت صدق قوله، يقول إن لم تصدقوا هذا ﴿انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ (الأنعام: ١١) التاريخ هو مرجع القرآن، وبدون معرفة التاريخ لا يمكن فهم القرآن.

ولذا أعيد القول، وبكل التواضع والثقة، أرى أنه ينبغي أن أقدم وجهة نظري كمسلم يراقب الساحة العالمية، كيف ينبغي للمسلمين أن يقدموا أنفسهم في هذا العالم الصاخب؟ على المسلمين فوراً أن يثقوا بالتاريخ، وأن لا يشعروا بمركّب النقص، فيظنوا أن الاحتكام إلى التاريخ إعراض عن الله، بل الاحتكام إلى التاريخ هو لبّ الاحتكام إلى الله، لأن الله تعالى هو الذي حكم التاريخ بسنن لا تتبدل ولا تتغير، والتاريخ هو الحكم الفصل، والتاريخ هو آيات

الآفاق والأنفس، والتاريخ أبو العلوم، ورحم المعارف البشرية، حتى علما النفس والاجتماع هما من علم التاريخ، والذي جعل ابن خلدون عالماً اجتماعياً لم يشهد التاريخ مثله، إنما هو كونه مؤرخاً قبل أن يكون عالم اجتماع، إن علم الاجتماع انبثق من علم التاريخ.

التاريخ هو معرفة كيف بدأ الخلق، تاريخ الخلائق، من الذرة إلى المجرة، ومن بدايات الحياة الأولى، إلى المجتمعات المتطورة، والذي يجهل التاريخ لا يوثق بعلمه وهو متبع لهواه شاء أم أبى.

والتاريخ هو كلمة الله المجسّدة، كلمة الله المادية المرئية والملموسة. التاريخ هو سنة الصيرورة، سنة الزيادة في الخلق. التاريخ هو الذي يغربل الصواب من الخطأ، وصدق الله تعالى: ﴿وكذلك يضرب الله الحق والباطل فأمّا الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ (الرعد: ١٧) الذي له العاقبة. (وهو الخير والأبقى) ولا يعرف الأبقى إلا خلال الزمن. كل ما ثبت نفعه خلال الزمن، كل ما ثبت نفعه خلال أطول زمن هو الحق، حتى يأتي ما هو أنفع وأبقى.

التاريخ هو الذي يقول لنا، إن المجتمعات هي التي نظرت إلى الإنسان على أنه شيء ينبغي أن يسمع ويطيع ولا يعترض. والتاريخ يقول لنا إن الإنبياء والآمرين بالقسط من الناس هم الذين نصحوا للناس أن يتبعوا ويطيعوا المعروف وينتهوا ويعصوا المنكر، والله لا يعفيك إذا ألغيت ذاتك، وأطعت الناس، أعظم شيء نزل من السماء وأعظم شيء تولد في الأرض، الثقة بالإنسان في أنه يمكن أن يعرف الصواب والخطأ. فيعمل بالصواب ويترك الخطأ ويقول عن الصواب

صواباً وعن الخطأ خطأ. فالذي يلغي هذا هو الخطأ ولو نسب إلى السماء ولو نسب إلى الأرض.

أعظم شيء نزل من السماء ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ (الشعراء: ١٨٨). ﴿يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه، وصاحبته وأخيه، وفصيلته التي تؤويه، ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه﴾ (المعارج: ١١ ـ ١٣).

إنه المبدأ الذي يفجر الطاقة الإنسانية، وما لم يتحرّر هذا الموضوع، لن يتحرّر الإنسان. لا بد من الفهم.. والناس: فاهم معلن، وفاهم كاتم صامت، وثالث لم يفهم.. وهم على التوالي المذكورون في خاتمة فاتحة الكتاب (المستقيمون، والمغضوب عليهم، والضالون) والأخيرون هم الأكثرية المستغلَون ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾ (الأنبياء: ٢٤). لا بد من هدايتهم وهم مجال الدعوة حتى لا يقولوا (ما سمعنا بهذا). هذا ما أراد أن يفعله محمد علي. أراد أن ينبه الجاهلين وأراد أن يكشف تناقض الذين يكتمون الحق ويخفون الصواب ويفرضون الصمت. لا بد من الشهادة بالحق للحق. النزاع بين من يفهم الصواب ويريد نشره وبين من يكتم الحق ويريد إبقاء الناس جهلة، ويبذل الجهد حتى لا يسمع الناس الحق، وحتى لا يستيقظوا ليحتفظ بامتيازاته، والجاهلون هم موطن النزاع بين من ينشر العلم وبين من يكتم العلم ويفرض الصمت.

النزاع الحقيقي إذن هو بين نشر العلم وكتم العلم، ينبغي أن يبقى النزاع بهذا الوضوح والتألق. النزاع بين إيجاب العلم وبين منع العلم، بين وضع العلم والمعرفة أمام الناس وإبلاغهما لهم، وبين منع وصول العلم والمعرفة، والحيلولة بين العلم والمعرفة وبين الناس. النزاع

الحقيقي الأولي البسيط هو هذا، وينبغي إبقاؤه بهذا الوضوح والصراحة، لأن بقاء الأمر بهذا الوضوح والصراحة يساعد على نجاح العلم وانتشاره.

ولكن كثيراً ما يحصل التشويش وإخفاء هذا الوضوح، بنقل النزاع إلى أشياء أخرى، وملابسات أخرى. فيمكّن من إخفاء النزاع الأصلي وذلك لأن ظهور المعارض للعلم وانتشاره والسعي لإخفائه يجعل الذي يمنع العلم مكشوف الساحة، تنفر منه القلوب، وتعرض عنه النفوس ويخسر فوراً المعركة أمام الناس ويخسر المعركة في الأعماق. مما يؤدي إلى الانهزام في السطح أيضاً، وهذا ما يؤكد الله تعالى عليه من أن الحق إذا جاء سيزهق الباطل، إن هذه الآية عميقة، إنها تقرر أن ظهور الحق وحده كافٍ لموت الباطل، من غير أي هجوم عليه، من غير ممارسة قتله، بمجرد أن يظهر الحق يموت الباطل.

أريد أن أؤكد على هذه النقطة، وأنا شعرت في بحثي هذا أني وصلت إلى نقطة هامة جداً جداً وهي جلاء هذه النقطة، وإبرازها بوضوح لأن خفاءها يجعل الأمر ملتبساً، ويؤخر ظهور الحق بوضوح، مما يؤخر انهزام الباطل بسرعة، وهنا نصل إلى نقطة مهمة في الحياة الإنسانية والمشكلة العالمية في الصراع بين الحق والباطل.

طالما ظن الناس أن الباطل يجب قتله، فتوجهوا إلى الإعداد لقتل الباطل، بدل أن يتوجهوا إلى توضيح الحق وإظهاره، وترك الباطل لحاله، لأنه عند ذلك سيموت موتاً طبيعياً. ولكن محاولة الناس قتل الباطل، قبل إظهار الحق بوضوح، تجعلهم يمدون في حياة الباطل ويعطونه حقاً في البقاء. بل ويظهر الباطل وكأنه مظلوم ومعتدى عليه، وله حق الدفاع عن النفس. بل ويمكن أن يظهر بمظهر

الشهيد، وبالمقابل يخسر الحق مضاءه ويظهر بمظهر المعتدي والظالم، بينما اهتمامه بظهوره فقط، والتزامه البيان وعدم لجوئه إلى الاعتداء لقتل الباطل، يجعله في مكان السلطان المتألق، الذي مجيئه فقط يكفي لزوال الظلام من دون إعلان حرب.

وإني لا أشك أن هذه النقطة هامة وخفية جداً، وإني على يقين من أن هذا سيظهر جلياً في المستقبل، وسيدرك أهل الحق القوة العجيبة الموجودة في إظهار الحق، وسيفهمون كيف يميتون الباطل موتاً طبيعياً، لا قتلاً. وسيفرح الناس بموت الباطل موتاً طبيعياً، وسيشعرون بالراحة وسوف لن يبكوا على الباطل لموته، وسوف يستقبلون الحق بكل بهائه وجلاله وعظمته.

وبعد إلقاء هذا الضوء الخافت على هذه المشكلة، أريد أن أعرض كيف أن الرسول محمد (ص) فهم هذا أشد الفهم وأعمقه، وكيف بحذق ومهارة ووضوح منع محاولة قتل الباطل منعاً باتاً، وحتى أنه منع الحق من الدفاع عن نفسه، حين يهجم الباطل عليه.

إن أكثر من نصف عمر الدعوة المحمدية كان مكرساً لجعل النزاع بين نشر المعرفة وبين منع المعرفة، ومَنَعَ مَنْعاً باتاً أن يلجأ أيٌّ من أصحابه إلى أي شكل من أشكال العنف وحتى الدفاع عن النفس، وهذا واضح في السيرة النبوية لأنه مورس خلال أكثر من نصف زمن الدعوة، ممارسة عملية وقولية من القرآن الكريم ومن الرسول (ص)، وكان المسلمون على وعي وطاعة أيضاً، فلم يخالفوا أمر القرآن الكريم ولا دعوة الرسول (ص)، بالتزام قول الحق وعدم تجاوزه خلال تلك المدة الطويلة، الصعبة، الشاقة إلى درجة أن بعضهم شعر أنه في الجاهلية كان يحق له أن يدافع عن نفسه

فكيف حرم في الإسلام هذا الحق؟.. كانوا يسمعون قوله تعالى: ﴿كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة﴾ (النساء: ٧٧). ويقول: ﴿لا تطعه واسجد﴾ (العلق: ١٩) لا تترك إعلان المبدأ ونشر المبدأ خوفاً منهم. ولكن لا تستعمل يدك ولا تدافع عن نفسك.

ويقول الرسول (ص): «صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة»، ويقولون له: «يا رسول الله لو أمرتنا لنهجمن عليهم ولنميلن عليهم» فيقول: «لا لم نؤمر بذلك».

ما هذا الالتزام الواعي الصابر؟ ولماذا هذا الأمر النبوي والإلهي بهذا الالتزام؟ لا بد أنه أمر مهم جداً جداً في الحياة الإنسانية. إنهم بهذا كانوا يغرسون الشرعية، ويمدّون جذورها في أعماق الإنسان. كانوا قد أنشأوا جواً نظيفاً معقّماً ولم يكن أحد من قريش يتوقع من محمد (ص) وأصحابه عدواناً ولا دفاعاً عن النفس.

وكان القرشيون يثقون بمحمد (ص) وأصحابه في أموالهم، وأعراضهم، ودمائهم، أكثر من ثقتهم بأبنائهم البررة المخلصين لهم، وبأخوانهم، انظر أيها المسلم إلى هذا الجو النظيف، النقي، الذي هو معقم أكثر من غرفة عمليات القلب المفتوح.

ويؤكد الله تعالى مراراً وتكراراً أنهم لم يَنْقُم منهم مخالفوهم إلا لإيمانهم بالله ونشرهم لتعاليمه وتلاوتهم للقرآن جهراً في صلاتهم، وكم كرّر القرآن الكريم القول: ﴿وما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ (البروج: ٨). ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾ (غافر: ٢٨). ﴿الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله﴾ (الحج: ٤٠).

هذه الصورة من الوضوح والنصوع، والتألق، بحيث لا يمكن أن ينكر أحد من المسلمين أن الوضع لم يكن هكذا، ولكن يجهلون قيمة هذا الواقع الجلي، ويتساهلون في مخالفته، ويحتالون على تفسيره بأن هذا الوضع لم يعد قائماً الآن وليس علينا أن نلتزم هذا الذي التزمه المسلمون، والقرآن الكريم والرسول (ص) بدقة متناهية ومن دون أي سماح بالمخالفة. إن لي الحق في أن أقول إن هذا الوضع لم ينسخ ولم يفت أوانه، وأن الذين يخالفونه يدفعون ثمناً باهظاً، ولا يصلون إلى نتائج بل يتراجعون.

بينما هذه الطريقة طريقة محمد (ص) هي الناجحة سابقاً، وستنجح لاحقاً وسوف لن يجد الناس عنها محيداً في المستقبل.

إن نظام الله حين يلتزم الإنسان بشروطه الواضحة الجلية يؤدي إلى أن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، هذا نظام الله.

وإن الأذى الذي يلحق بهم وهم على هذه الطريقة الواضحة شيء محتمل، وليس شيئاً ساحقاً، ماحقاً، ﴿لن يضروكم إلاَّ أذىً﴾ (آل عمران: ١١١). ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾ (آل عمران: ١٢٠).

﴿يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ (المائدة: ٦٧)... ﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا﴾ (إبراهيم: ١٢).

إن إظهار الحق، وعدم قبول السكوت عليه، والتزام عدم الدفاع عن

النفس إزاء العدوان، كلها تجعل الوسط والمناخ وسطاً، ذهبياً لنمو الحق، واستطالته، وانتشاره برسوخ وثبات. والذين يدرسون نشوء الحضارات يتحدثون عن أن الحضارة تنبت في الوسط الذي يوجد فيه التحدي، بشرط أن لا يكون التحدي ساحقاً ماحقاً، ولا رخواً، لا يبعث على السعي.

ما دام الإنسان يطمع في النجاة، ويخاف من الفشل، فهو الذي يبذل أقصى جهده. وأما الذي يئس من النجاح فلا يسعى ويكف عن الحركة، وهذا ما قال الله عنه: ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ (يوسف: ٨٧). وأما ضرورة الخوف أيضاً لأن الذي لا يخاف لا يستعد لدفعه. وفي هذا يقول الله: ﴿فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون﴾ (الأعراف: ٩٩). ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً﴾ (الأنبياء: ٩٠).

هذا الأسلوب بشروطه الدقيقة يجعل الاستمرار والبقاء في ميدان الدعوة ممكناً ونامياً بأقل الخسائر وأحسن النتائج.

فمن هنا يمكن أن نعلم أن التزام الرسول وأصحابه بالتبليغ وعدم رد الأذى، لم يكن شيئاً ثانوياً، يمكن تجاهله، ويمكن تجاوزه من دون أن يفسد مناخ الدعوة.

وبمقدار ما وضّح الله ضرورة التزام الصبر، وبمقدار ما التزم الرسول (ص) وأصحابه بدقة نجد المسلمين يتهاونون في هذا الموضوع ولا يعيرونه اهتماماً أبداً، وكأن إغفال هذا الأمر لا يفسد أمر الدعوة.

هذا التناقض الذي وقع فيه المسلمون يدل على شيء آخر مهم، وهو

أن الناس حين يتجاهلون موضوعاً تجاهلاً تاماً، ولا يستحضرونه في أذهانهم، لا تعود النصوص تفيد شيئاً ولا تعود تؤدي دوراً حيوياً في التوجيه. وهذا موضوع مهم لا بد من الانتباه إليه. ولا بد من اليقظة التامة والمراجعة الدائمة، خشية أن يكون الإنسان وقع في الخطأ، ليبحث أين الخلل حتى يزيل الخطأ، إن الخلل في المجتمع مثل الخلل في الآلة الميكانيكية. قد يكون الخلل في نظر الممارس تافهاً، ولكنه يمنع الآلة من أداء عملها، وكذلك المجتمع.

ولا بد من درْس هذه المواضيع ومتابعتها في زواياها المظلمة، حتى تصير واضحة للعيان، فحيثما يوجد الظلام والخفاء توجد المشاكل، وحيثما يوجد النور والوضوح يحل النجاح.

وقد يقول المسلم إلى حد ما: فهمنا الالتزام الصعب، الذي التزمه المسلمون في النصف الأول من الدعوة الإسلامية، ولكن الأمر مختلف في النصف الثاني من الدعوة. فحينها جاء الإذن بالقتال ورد العدوان والإعداد المكين، وهذا العهد نسخ العهد الماضوي فلم نعد في حاجة إليه. ولن يرجع ذاك العهد الأول الذي أُمر المسلمون فيه بالصبر على الأذى وعدم الدفاع عن النفس.

وبعونه تعالى سنبذل كل ما في وسعنا لجلاء هذا الموضوع أيضاً. لأن خفاءه يسبب آلاماً تضيّع الجهد والوقت، وذلك كما قال محمد إقبال:

لحظة يا صاحبي إن تغفل
ألفَ ميل زاد بعد المنزل

ينبغي أن نقسم المراحل إلى ثلاث للتوضيح والبيان:

مرحلة الدعوة الأولية أُنُفاً كما فعل الرسول (ص) وقد، بيّنّا ذلك في ما سبق، والتزمه الرسول (ص) حتى وصل إلى الحكم برضا الناس، واستقبله أهل المدينة بـ (طلع البدر علينا) ولم يكن معه جيش ولا سلاح، وكنت مرة أبحث هذا الموضوع فعرضته كما سبق فقال لي بعض الشباب بحماسة جليّة: يا فلان تقول هذا والتاريخ علمنا أنه لم تقم هناك ثورة إلا بالدماء؟ فقلت له: لقد نسيت أو تجاهلت... نعم قامت الثورات الدموية ولكن غفلت عن ثورة رسول الله (ص) أنها لم تكن دموية، ولم يقتل المسلمون ولا رجلاً واحداً، ولم يقتل من المسلمين حسب ما أذكر إلا ياسر وسميّة.

أما المرحلة الثانية بعد الوصول إلى الحكم بالطريق السلمي والشرعي، وبعد إنشاء المجتمع المتميّز، فهي مرحلة الجهاد على الذين يمارسون ما ورد في قوله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم﴾ (الممتحنة: ٨).

لم يكن القتال لإزالة الكفر، لأن الكافر له حق أن يبقى كافراً بعد الانتصار عليه، وله حق المعاملة بالبر والقسط، ما دام لا يقاتل في الدين، لا يقاتل من أجل الدين.

هذه الآية توضح جيداً، أنه لا يجوز القتال من أجل الدين، لأنه ﴿لا إكراه في الدين﴾ (البقرة: ٢٥٦)، القتال هو من أجل منع الذي يقاتل من أجل الدين، قتال الذي يُكره الناس على دين ما لأن

الله يقرر أن ﴿لا إكراه في الدين﴾، ولا بد من تكرار هذا وإيضاحه، لأن الناس يظنون أن القتال يكون من أجل الدين بينما هو لأجل منع الإكراه في الدين، لا للإكراه في الدين.

القتال حتى لا تكون فتنة وتعذيب لأجل الدين: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ (البقرة: ١٩٣).

كما كان القرشيون يفتنون الناس عن دينهم، القتال في الإسلام لنشر حرية الدين والعقيدة، يحق للناس أن يدينوا بأي عقيدة، والذي لا يجوز هو الإكراه ﴿لا إكراه في الدين﴾.

هنا الحديث ليس عن نوع الدين. لا يجوز القضاء على الدين الفاسد بالإكراه ولا يجوز نشر الدين الصحيح بالإكراه. هنا حصانة للحرية الإنسانية في اختيار الدين والرأي الذي يريده الإنسان، والشيء الذي تهتم به الآية هنا هو الإكراه فإذا ارتفع الإكراه فلا حرج في نوع الدين الذي يدين به الإنسان. من هنا نعلم أن الاهتمام بتوفير حرية الاختيار، أهم من الدين الذي يختار، والإدانة لا تتوجه إلى ما يختاره الإنسان من دين بل إلى الذي يفرض عقيدة معينة بالقوة، ولو كان الذي يفعل هذا مسلماً. ولهذا فإن علياً رضي الله عنه لم يقاتل الخوارج ولم يسمح بمقاتلتهم لأجل عقائدهم، وقال لأصحابه: لا تقاتلوهم حتى يسفكوا دماً حراماً. فلما بدأ الخوارج يقتلون من ليس على رأيهم قاتلهم علي رضي الله عنه ليحول بينهم وبين قتل الناس.

ينبغي أن يعود هذا المفهوم إلى الفكر الإسلامي بكل وضوحه وجلائه، وينبغي إظهار أن من يعطي حرية الاختيار للناس هو الذي

يثق بالفطرة الإنسانية، والضمير الإنساني. والذي يثق بمبدئه أيضاً لا يحاول الإكراه. فمنع الإكراه فيه ثقة بالإنسان وثقة بالمبدأ. والذين يمارسون الإكراه يفقدون هاتين الثقتين، يفقدون الثقة بالإنسان ويسيئون الظن في اختياره، ويسيئون الظن بالمبدأ، أو بالدين الذي لا ينتشر إلا بالإكراه... فهو خسر الرهان مرتين قبل أن يدخل المعركة. وهذا واضح في التاريخ وعواقب الأمور. ونحن الذين نعيش في القرن العشرين لدينا على صدق هذين الأمرين من الأدلة التاريخية الواقعية ما لم يكن عند الذين عاصروا نزول القرآن، وأرجو أن يتوسع المسلمون في فهم هذه الأمور حتى لا يسيئوا إلى عقيدتهم ولا إلى دينهم ولا يظنوا بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴿يظنّون بالله غير الحق ظنّ الجاهلية﴾ (آل عمران: ١٥٤).
الله جلّ علاه سمح بوجود المعارض له وأعطاه حق البقاء والوجود، فهل نحن البشر لنا حق منع المعارضة ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾ (فصلت: ٢٣). لا شك أننا خسرنا، والخاسرون في العالم الآن هم المسلمون، ولا بد أن يغيروا ما بأنفسهم من سوءِ الظن بالله، حتى يغير الله ما بهم من الخسران في العالم الذي يعيشون فيه.

وحين أقرّر هذه الأمور، وأراها بدهية، أكون مغروراً، وأكون غير فاهم ما عليه المسلمون من الشبهات والظنون، فإذا ما سمعوا، أو قرأوا قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غِلْظة﴾ (التوبة: ١٢٣). يظنون أن القتال والمعاملة الغليظة لأجل كفرهم فيفهمون الكفار هنا بالذي يكفر، مثلاً الكفر الموجود في قوله تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ (المائدة: ٧٢)، هذا الكفر الموجود هنا، ليس هو الكفر الموجود في الآية السابقة. لأن الكفر الموجود في الآية الثانية بالإجماع لا يقاتل عليه من أجل قولهم إن الله

ثالث ثلاثة، بل لهم حق المعاملة بالبر الذي هو المعاملة مع الوالدين، من الولد البار مثل يحيى بن زكريا عليه السلام: ﴿وبرّاً بوالديه﴾ (مريم: ١٤). الكفر الموجود في الآية الأولى هو المعنى الذي حدده الله في آية الممتحنة لما قال: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ (الممتحنة: ٨).

وكما في آية الحج: ﴿أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ (الحج: ٣٩ ـ ٤٠).
الأمور تصير واضحة ولا تناقض ولا تدابر بينها، ولكن أهواءنا هي التي تحرف الكلام عن مواضعه، فكل آيات الجهاد والقتال والاستقتال والوعد بالأجر العظيم للجهاد، والترهيب الشديد من ترك الجهاد في القرآن كله وفي أحاديث الرسول (ص) ليس المراد به الجهاد ضد العقائد الكافرة وإنما ضد الإكراه في الدين لإزالة الإكراه في الدين، وحماية حرية الاعتقاد في العالم كله.

وإن كان هذا التصور غريباً حتى عند المسلمين، ولكن عندي أمل في أن الزبد سيذهب جفاء، وأن الذي ينفع الناس سيمكث في الأرض وإن حصل من هذا الفهم والتفسير تعجب من المسلمين واستغراب له فسيضطرون إلى الرجوع إليه وقبوله، والارتياح له بعد أن يتأملوا آيات الكتاب وأحاديث الرسول (ص) وأعماله وأعمال الراشدين من خلفائه. وكذلك سيرتاح الذين يعرفون اتجاه التاريخ ومستقبل البشرية لأن الذين لا يحمون حرية الفكر والاعتقاد هم الذين يتساقطون وتتهاوى عروشهم فتلك بيوتهم خاوية، وأسلحتهم معطلة ولم تغنِ عنهم شيئاً إذ كانوا يجحدون بآيات الله في الكتاب

﴿لا إكراه في الدين﴾ وبآياته في التاريخ حيث تهاوت الأفكار التي فرضت بالقوة مع كل أسلحتها التي كان في إمكانها تدمير العالم جميعاً... والحبل على الجرار!!..

فسيسقط الذين يستكبرون في الأرض ويجعلون أهلها شيعاً يستضعفون طائفة منهم يذبّحون أبناءهم ويخرجونهم من ديارهم، وعد الله قريب، يرونه بعيداً ونراه قريباً ﴿ونريد أن نمُنّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونَجعلَهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ (القصص: ٥).

إلا أن يدب في هؤلاء المستضعفين أيضاً داء الأمم، داء الاستكبار، فسيحل بهم قانون الله ﴿وإن عدتم عدنا﴾ (الإسراء: ٨).

فمن هنا نعلم حين فرض الإسلام (لا إكراه في الدين) كم جعل مجال جواز شن الحرب مجالاً ضيقاً، فلا يجوز شن الحرب إلا على الذين يُكرهون الناس على دين معين ولا يجوز شن الحرب إلا على شريعة الغاب.

فإذا كان المسلمون جهلوا دينهم فلا بد من إعادة بيانه مهما أراد الذين يريدون ليطفئوا نور الله سواء ممن ينتسبون إلى الإسلام أو ممن يعادون الإسلام: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله مُتمّ نوره ولو كره الكافرون﴾ (الصف: ٨).

المرحلة الثالثة، أو الوضع الثالث وهو حين يبدأ الفساد في الذين استخلفهم الله في الأرض ومنَّ عليهم من بعد الاستضعاف. ربما هذه الحالة هي التي يقع فيها الاشتباه

على اختلاف مراحلها المبكرة في الفساد أو المتناهية فيه. ونحن نذكر هذه المرحلة أيضاً بإيجاز. بينما هذه المراحل لا بد من وضعها كلها تحت المجهر وبحثها البحوث المستفيضة، حتى لا تبقى الثغرات التي يمكن أن يدخل منها الخطأ. فهذه الحالة هي التي كان رسول الله (ص) يذكرها كثيراً ويحذر منها ويقول في حجة الوداع: لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض. وليس المراد بالكفر هنا الكفر بالله وإنما المراد الاقتتال من اختلاف الآراء والاعتقادات، وحتى ولو كان المراد به الكفر، فقد تبين ولا بد أن يتبين، أن القتال في الإسلام ليس لأجل الكفر والفساد في الاعتقاد. هذا ينبغي أن يُفرغ منه وإلا فسيستمر القتل وسفك الدماء والفساد في الأرض.

لهذا قد قلص الإسلام مجال الحرب وسفك الدماء حين قال: لا إكراه في الدين، فصار مجاله ضيقاً.

إلا أن المسلمين رجعوا عن هذا الشيء العظيم الذي جاء به الإسلام حين منع إباحة الدماء من أجل الاعتقاد.

في هذه المرحلة القرآن، بحسب ما يتراءى لي، اكتفى بالقانون الذي سنّه في طريق الوصول إلى الاستخلاف في الأرض بعد أن بيّن الواجب عليهم في أسلوب نشر الحق إلى أن يمنَّ عليهم ويستخلفهم في الأرض، فهذا هو طريق القرآن الكريم للاستخلاف سابقاً ولاحقاً، قول الحق ﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً﴾ (الأحزاب: ٣٩). و﴿وإن عدتم عدنا﴾ (الإسراء: ٨).

قانون واحد في البدء وأثناء السير وفي الختام، وفي العودة ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ (المجادلة: ٢١) لأن الأسلوب الذي وصلوا به إلى الاستخلاف قمين أن يستمر بهم في الاستخلاف ما لم يغيروا ويبدلوا ﴿سنّة الله... في الذين خلَوْا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ (الأحزاب: ٦٢). ﴿ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾ (فاطر: ٢٣).

ولكن سنّة الرسول (ص) كثرت فيها الأحاديث التي تنبأت بما سيحدث من اختلاف وانحراف واقتتال، وحرص الحرص الشديد على التزام كلمة العدل عند الذين يجورون ولم يسمح لهم وحذّرهم من الخوض فيها وقال لهم: «إنها ستكون فتنة يكون المضطجع فيها خيراً من الجالس والجالس خيراً من القائم والقائم خيراً من الماشي والماشي خيراً من الساعي، قال يا رسول الله ما تأمرني: قال من كانت له إبل فليلحق بإبله ومن كانت له غنم فليحلق بغنمه ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه. قال فمن لم يكن له شيء من ذلك؟ قال: فليعمد إلى سيفه فليضرب بحده على الحرة ثم لينج ما استطاع النجاء».

وفي حديث قال قلت يا رسول الله إن دخل عليَّ بيتي وبسط يده ليقتلني قال فقال رسول الله (ص): «كن كابن آدم». وتلا الراوي: ﴿لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك﴾ (المائدة: ٢٨).

وفي حديث عن أبي موسى الأشعري في الفتن «فاكسروا قسيّكم واقطعوا أوتاركم واضربوا سيوفكم بالحجارة فإن دُخِل ــ يعني على أحد منكم ــ فليكن كخير ابنيْ آدم».

وفي حديث أبي ذر قال: «قلت يا رسول الله: أفلا آخذ سيفي فأضعه على عاتقي؟ قال: شاركت القوم إذن؟ قلت: فما تأمرني؟ قال: تلزم بيتك قلت: فإن دخل عليّ بيتي قال: فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألقِ ثوبك على وجهك يبؤ بإثمك وإثمه».

كأن (ص) كان ينظر إلى الغيب من وراء حجاب حين أمر المسلمين أن يتلفوا أسلحتهم وأن لا يدافعوا عن أنفسهم حتى إذا دخلوا على بيوتهم يريدون قتلهم.

هذه الأحاديث موجهة إلى الذين سيأتون من بعد حين يقعون في الفتن، هذا موجه إلينا نحن. إنها معجزات في فهم سنن الله في المستقبل أيضاً. فهذا الرسول النبي الأمي (ص) الذي يقول: «إن الله يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه، وحامله والرامي به». يأمرنا أن نتلف أسلحتنا أولاً حتى لا نستعملها عند الاضطرار، وثانياً حتى نُخرج من أنفسنا نية استعمالها، وثالثاً ربما حتى مجرد احتواء الأسلحة قد يكون مسوغاً للاتهام، وهذه الثالثة لم تظهر بوضوح إلا في أيامنا هذه، فإن لم تكن الأسلحة موجودة فسيختلقها الخصوم.

العجب أن يخفى هذا على المسلمين، ومن شدة الظهور الخفاء، ينبغي ألاّ يختلط الجهاد والسلاح والإعداد بالقوة. إذ ليس كل إعداد صحيحاً وليس كل قتال جهاداً، فهذا الذي اختلط الحابل فيه بالنابل، والخارجي بالمجاهد، فمتى تزول هذه الاختلاطات من نفوس المسلمين؟ هل علينا من حرج إن قلنا إن المسلمين كلهم إلا من رَحِمَ ربك، صاروا على مذهب الخوارج.

كان رسول الله (ص) يحذر من انتشار الجهل حتى لا يوجد من

يعرف كيف يقسم الميراث. الآن صار الجهل والخفاء لأحكام الشرع، حتى لا تجد في الأمة من يُهتدى فيه إلى الصواب ومن يذكر شروط الجهاد فيظنون أن الجهاد هو قتل من لا يعجبك رأيه فإذا لم تكن الجاهلية هذه فما هي؟ الله الله يا مسلمون ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ (النجم: ٢٣). فالذين قتلوا علي بن أبي طالب مثل عبدالرحمن بن ملجم وأنشأوا القصائد في مدحهم مثل عمران بن حطان، إنهم كانوا يظنون أنهم هم المؤمنون فقط ونشيد منشدهم.

آألـفـا مـؤمـن مـنـكـم زعـمـتـم
يـقـتّـلـهـم بـآسـك أربـعـونـا
كـذبـتـم لـيـس ذاك كـمـا زعـمـتـم
ولـكـن الخوارج مـؤمـنـونـا

هذا الذي ذكرته هنا إيجاز مخلّ والجهل فاشٍ. وحتى العلماء إلا من - رحم ربك - لا يذكرون الفرق بين الخوارج والجهاد، ولا يعلمون الفرق. ويظنون، كل من يقتل من لا يعجبهم رأيه مجاهداً، فهذا الجهل الفاشي الطامي من قبل العلماء، إلا من رحم ربك وقليل ما هم، هو الذي يجعل شبابهم يقعون في الجهالات وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ويحيون الفريضة الغائبة، والعلماء يسكتون وحتى الذي يدينهم لا يدينهم عن علم ومعرفة وإنما إرضاء لبعض الأطراف.

فما لم ننشر ونُحيِ هذه القوانين والسنن الإسلامية، سنظل نحصد الحسرة والندامة. وإن الله لن يمل بل سنمل نحن وسوف لن يغير الله سننه وقوانينه حتى يغير البشر ما بأنفسهم. وربما آن الأوان ليتذكر من

يتذكر. ألم يكفِ التاريخ المتطاول في ممارسة العنف، وفي كل مرة تتكرّر الفتن يرقق بعضها بعضاً؟ إن الذين لا يرون حلاً للمشكلة إلا بالعنف يعيدون المشكلة من جديد، بشكل أعنف من الذي سبق، فهذا معنى يرقق بعضها بعضاً، أي الفتنة اللاحقة أسوأ من السابقة.

واستيلاء هذه الفكرة على النفوس يسدّ منافذ الفكر، ولا يفتح أمامهم مجالاً للتفكير في أهمية العلم والمعرفة ونشر الفكر، وبذلك تتوقف المعرفة. بينما لو توجه الفكر إلى عرض الأفكار التي تستولي على القلوب وتأسر النفوس لكانوا أغنوْا التجربة وتوسعوا في المعرفة، وانفتحت أمامهم، مجالات للإبداع. فلا بد من توضيح الأفكار، وتنوير القلوب، وتكوين النفوس التي تستطيع الدخول إلى الساحة على بصيرة، والثبات فيها على يقين، حتى يلتئم الشمل ويتضح الطريق، وتتكون نواة الفكرة النيرة، وتعود سنة الأنبياء من جديد والخروج من الظلمات. وحين تتضح هذه الأفكار وتظهر حملتها، فسيعلم الفرقاء المتنازعون على اختلاف تصوراتهم، كم كانوا بعيدين عن الصواب، وكم من جهود بذلت ونفوس أزهقت. فلا بد من أن يتفق الفرقاء جميعاً على أن يدينوا العنف، ويتآزروا على إنهائه، ويتواصوا على الثبات، على العلم والسلم، ويُعرضوا عن الجهل والعنف، وينظروا إلى كل الذين لا يزالون يعلقون آمالهم على العنف. كم هم يزيدون الطريق طولاً؟ ويدفعون الثمن باهظاً، ويبقون الناس في حيرة ويملأون النفوس يأساً. إن كل مرة تتكرّر المأساة، سواء نجحوا بواسطة العنف أم فشلوا. أمَا آن للمثقفين وأصحاب العقول أن يبصروا الطريق ويُبصِّروا الناس، ويستفيدوا من عِبَر التاريخ، وسنن الذين خلوا من قبل؟ إن القرآن يسلسل أعمال الأنبياء من عهد نوح عليه السلام إلى خاتمهم محمد (ص) وينطقهم بأوضح بيان ويقول: ﴿واتلُ عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبُر عليكم مقامي وتذكيري

بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليّ ولا تُنظرون﴾ (يونس: ٧١).

كم هذه الآية بليغة وواضحة، في الفكر والعمل والتحدي. وعلى الذين لهم أسوة حسنة بالأنبياء أن يقوموا الآن، كما قام نوح من قبل آلاف السنين، قبل الديموقراطيات المعاصرة وقبل الديموقراطيات الغابرة أيام اليونان، ليعيدوا إلى الفطرة البشرية، أسلوب التعامل معها، ويعلنوها صريحة مدوية، وأن يقوموا ويذكّروا بالعلم والمعرفة والتاريخ والكتاب. إن الذي يعارض العلم والمعرفة والتاريخ والكتاب والأنبياء والآمرين بالقسط من الناس، إن الذين يعارضون هذا، فليجمعوا أمرهم وليحضروا شركاءهم، وعليهم أن لا يكون شيء من أمرهم خفياً. فليأتوا ولا ينتظروا.

إن نوحاً عزم عزماً أكيداً واضحاً، أن يثبت على العلم والسلم بوضوح فاقع مضيء، لا لبس فيه، ولا غموض، والتحدي واضح جلي. لا بد من إظهار هذه المعادن النفيسة في التاريخ القديم والتاريخ الحديث، ولا بد من إظهار تسلسل الكفاح البشري. إن الأنبياء في الشرق كلهم جاؤوا بهذا الطريق النير الواضح. وحتى الحضارة الغربية التي انتسبت إلى المسيح أزالت من دعوة المسيح الدعوة السلمية. إنه لموضوع شيق للدراسة والتنقيب في تاريخ العالم. كيف سار العلم والسلم؟ وكيف ينبغي أن يسيرا من جديد؟ إذ لا حل للمشكلة إلا بالعلم، والعلم يصحح الطريق ويزيل الخطأ ويهتدي إلى سبيله، فهو كما قال مالك بن نبي: والعلم بحرصه على الحقيقة يصبح أخلاقاً لا يطيق الصبر على الخطأ حتى يجري التصحيح اللازم عليه.

وهذا ما يتحدى الله به البشر، من أن عواقب الأمور في المستقبل

هي التي ستظهر الحق وإذا ظهر الحق هلك الخطأ ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾ (الإسراء: ٨١).

ومولانا محمد علي كان يعاني هذه المشكلة التي عاناها الناس من عهد نوح قبل آلاف السنين وعاناها محمد علي قبل سبعين عاماً. من يومنا ذاك، وكأن المشكلة التي كان يعانيها لا تزال قائمة، ولم تتقدم إلا قليلاً. ولكن، لقد أضافت هذه السنين التي مضت من ذاك اليوم أدلة ساحقة ماحقة. فكأن محمد علي أعاد مرة أخرى، وجدد في التاريخ دعوة أبي الأنبياء نوح عليه السلام، لمّا قام وأعلن رأيه، وذكّر الناس بآيات الله ولم يبال بالملك ولا بالجيوش ولا بكل أدوات الاستعمار. إنه بكل الجلال وكل الجمال ترافع هذه المرافعة الفذة المتألقة، وعلينا نحن أن نزيدها تألقاً ووضوحاً وإضاءة، ونبلغ بها المدى الذي ينبغي أن يبلغه. وإني على يقين من أن هذا الأسلوب الواضح العريق في تاريخ النبوة من عهد نوح إلى يومنا هذا ومع كل الآمرين بالقسط من الناس، إن هذا الأسلوب هو الذي سيسقط المستكبرين في الأرض ليدخلوا جميعاً في العلم والسلم كافة ولا يحتكروا العلم. وعلى المستضعفين أن لا يعجبوا بمال قارون، ولا بقوة فرعون ولا يتمنوا ما عندهم. كم هو رائع عرض القرآن وكيف وصف الذين أُعجبوا بقارون، كيف وصفهم بأنهم قصار النظر، وأن إرادتهم لا تبتعد كثيراً، وأنهم يريدون حياة دنيا. وهناك قال الذين أوتوا العلم منتقدين لنظرات الذين تمنوا مثل ما أوتي قارون وظنوا أنه ذو حظ عظيم..

﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثوابُ الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يُلقّاها إلا الصابرون﴾ (القصص: ٨٠).. ﴿تلك الدارُ

الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ (القصص: ٨٣).

إن الأفكار المسيطرة تحول دون تفهم الأفكار الصحيحة مهما كانت الأفكار الصحيحة واضحة جلية. والآن على المستضعفين في الأرض أن يعلموا، وأنا على يقين من ذلك، أن المستكبرين في الأرض لا يسخرون العالم بالقوة وأن قوتهم لا تساوي شيئاً. وأنهم مثل سحرة فرعون يسترهبون الناس ويخيّلون للناس أن هذه القوى يمكن أن تفعل شيئاً وهي لا تساوي شيئاً، ونحن المستضعفين في الأرض لسنا في حاجة إلى أية قوة مهما كانت كبيرة أو صغيرة للتحرّر وإنما في حاجة إلى شيء واحد. أن نتمكن من كلمة واحدة أن نقول كلمة (لا) لا نسكت ولا ننفذ أمرك. فقط هذه الكلمة ولا شيء غيرها. هذا ما قاله (ص) لقريش: كلمة واحدة تعطونيها، تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم.

ولنذكر الحوار الذي يقصّه الله علينا في القرآن عن أن الشيطان سيقول يوم القيامة للناس: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ (إبراهيم: ٢٢).

والمستكبر الآن هو كالشيطان ليس له أي سلطان وإنما بالوهم يأمرنا فننفذ أمره، فإذا قلنا لا نقبل هذا، فلن يستطيع أن يفعل شيئاً وهذا صار واضحاً جلياً وعلى الشباب أن يفكروا بعقول نيرة. ويبطلوا هذا السحر الذي استولى علينا.

وبفضل الله فإن الشيطان غبي والمستكبرين أغبياء، يغرهم سلطانهم فيتجاوزون حدودهم، فيكون ذلك سبباً في أن نكشف السحر.

إن بعض الناس ينكرون السحر ولكن لم يحدث في التاريخ أن قام أحد بسحر أكبر مما يقوم به المستكبرون في الأرض حين يوهمون المستضعفين في الأرض أنهم يستطيعون إرغام الناس على طاعتهم.

والحديث ذو شجون وسيكون كلام الذين يأتون من بعدنا أعلى مقاماً وأوضح بياناً، وأعمق أثراً، وطوبى لأولئك الذين يصنعون سبل السلام ويبنون دار السلام ويُخرجون الناس من الأوهام.

وإني أنصح طلاب العلم والحلم أن يتأملوا هذه المرافعة التي أمامهم، وأن يقرؤوها بتدبر وتأمل وأن يعيدوا قراءتها، وأن لا تكون قراءتهم قراءة ختمية. وكم من الناس قراءتهم قراءة ختمية، ولا يمكن أن تتبين الفرق إلا إذا كنت توّاقاً ذوّاقاً تعرف مواقع النجوم ومواقع السجود، تقدر الفكرة وتقلبها وتقدر ما أضيف إليها وما أنير من حولها. لا بد من إعادة قراءة الأفكار الجيدة، الفينة بعد الفينة، والفترة بعد الفترة لتجدها كأنك لم تقرأها ولم تمر عليها. وليس كل الناس يصلون إلى هذا التقدير والتذوّق ولكن إذا حصّلت شيئاً من ذلك فلا تضيعه ولا يغرّنك كثرة المعرضين وقلة الفاهمين، وتذكّر قولهم، انفرادك في الطلب دليل على صدق الطلب.

جودت سعيد محمد

بئر عجم

١٩٩٢/٦/١٩

١

عصر الظلمات العربي

المواطن العربي اليوم يستخدم التلفون الجوال، يسكن عمارة شاهقة، ولربما ركب سيارة فارهة، والجندي العربي يقاتل بالصواريخ، والجراح العربي يجري جراحة معقدة، وفي بعض البلدان العربية بلغ عدد الجامعات كمّاً كبيراً، مما يوحي أن العالم العربي بخير. ولكن التفحص العميق للمشكلة يحمل أخباراً غير سارة. فلم تتطور الخدمات إلا باتجاه عملقة أجهزة الأمن، والثروة القومية بددت في شراء أسلحة ميتة، وكل شيء في البنية التحتية لا يعمل، والنمو يتراجع في معظم بلدان العالم العربي مع انفجار سكاني مخيف ومستقبل مظلم للشباب، والمواطن لا يصدق نشرة الأخبار المحلية، والمواطن العربي أُحصي عدداً بأدق من عمل «وكالة ناسا» لارتياد الفضاء، وصُنف في خانات أمنية لا تنتهي، مراقباً بالعشي والأبكار في تنفسه ورسائله، وتسجل شجرته العائلية لسبع حلقات. الإنسان العربي يلبس بذلة أنيقة، وتلمع في صدره ربطة عنق جميلة، ويضع

على عينيه نظارة مصنوعة في إيطاليا، شكله الخارجي كفرد لا ينقصه شيء عن أي مواطن أوروبي بفارق أنه ولد أخرس يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً، أتقن فن الصمت وتلقي الأوامر، وموت روح المبادرة، وفقد روح الجماعة، يردد مقولة ديكارت: «عاش سعيداً من بقي في الظل». نحن دخلنا عصر المحطات الفضائية ولكن من الباب الخلفي لنكرس أصنام قريش بما يحسدنا عليه أبو لهب، وفي بعض المحطات لا يطل سوى ثلاثة رموز في مركب أقانيم من عقيدة تثليث جديدة. وكانت الحياة السياسية قبل نصف قرن أفضل حالاً، فاقتلعت أول جذور الديموقراطية والمساواة الاجتماعية والتعددية السياسية وتراجعت الخصوبة الثقافية لحساب الفكر الأيديولوجي في مصادرة خانقة للعقل وتأميم الفكر حتى إشعار آخر، ويتم نبش كتب لمفكرين تتم هرطقتهم بعد مرور ربع قرن على كتابتها. وفي الوقت الذي يتأهب العالم لاستعمار المريخ عام ٢٠١٥م ما زال عندنا من يؤمن أن الأرض لا تدور. وفي الوقت الذي يخطط الآخرون لألف سنة قادمة في استيطان المجرة ما زلنا نحن على الأرض في بعض المناطق نتناقش حول قيادة المرأة للسيارة. وفي الوقت الذي يحاسب الفرد على قتل شجرة في بريطانيا، فإن عندنا من يفكر ويخطط لحملة تطهير عرقي لبعض الشجر وتدمير الغطاء النباتي بحجة الحساسية، في بيئة تئن من الرمال والجفاف، كمن يتبع وصفة مشعوذ بمعالجة الحساسية بقطع الأنف، والعطاس باقتلاع الرئة، شاهداً على وعي بيئي متخلف مدمر. نحن إذاً نتقدم إلى الوراء، ويمشي أحدنا مكباً على وجهه، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم؟ إن حظنا سيئ أننا ولدنا في هذا العصر، وننتسب إلى ثقافة تحتضر، ولسان محاصر بثلاث وعشرين بوابة مراقبة، وكل هذا الوصف المرعب هو النصف السهل في المشكلة، فالمريض لا يختلف حول

علته جاهلان، ولكن اجتماع كل جهلاء القرية لا يقربهم من الصحة إلا بعداً، كما فعل أطباء صلاح الدين الأيوبي الذي أصيب بالتهاب كبد وتعرض للجفاف فعالجوه بالفصادة فقضوا عليه. العقول هاجرت، والأموال طارت على أجنحة إلكترونية، والاستبداد ازداد رسوخاً، والديكتاتوريات أصبحت أشجاراً باسقة مدت ظلالاً من الرعب على شعوب بأكملها، وضربت جذورها أميالاً في التربة النفسية، وانقلب الفرد إلى كائن مسخ يتقن الكذب والتمثيل بأفضل من القرود، والإذاعات نفخت ألوهية الحكام فصارت أكبر من اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. المواطن العربي لا يرى المشاكل بل يصطدم بها اصطداماً كما ينطح الأعمى الجدار فيجرح رأسه ولا يتعلم من خطئه، بما لا تفعله الأميبيا، فيسرع إلى الحلول الجاهزة والسريعة لمشاكل في حجم الجبال تعسّ من قرون، ويعمد إلى شراء آلة لا يحسن استخدامها، ويعجز عن صيانتها، ولا يفكر في تطويرها.

جاء في «كليلة ودمنة» أن مجموعة من اللصوص أرادت السطو على منزل، وشعر رب المنزل بحركتهم فهدته زوجته إلى حيلة أن يتحدثا عن ثروته الطائلة التي جمعها بالسرقة فإذا دخل البيوت نزلها على ظهر شعاع من ضوء القمر. كل ما يحتاج له ترديد سبع مرات شولم.. شولم، فلما همّ زعيم العصابة أن ينزل السطح بالطريقة نفسها دقت عنقه. نحن نريد معالجة أمورنا بالصعود على أشعة ضوء القمر.

ضرب المفكر علي شريعتي المثل عن استعمال الآلة بين الشرق والغرب، أنها عند الشرقي تخرب بعد فترة قصيرة من استعمالها، ويبقى يستعملها محدودة الوظيفة قرناً من الزمن بدون فكرة

إصلاحها، وتبقى تؤدي وظيفتها عند الأوروبي حتى بعد إحالتها للمتحف. وهذا المنظر رأيته أنا شخصياً في مصاعد قديمة تعمل في ألمانيا ومدينة مونتريال في كندا.

هل هذه صورة قاتمة للواقع؟ المشكلة أن الواقع أسوأ بدرجات من هذا الوصف!

ولكن كل ما ذكرناه لا يعني أكثر من وصف موجع ولا يتقدم باتجاه الحل، ويبقى السؤال: لماذا يحدث ما يحدث؟ لماذا تعيد الثقافة إنتاج نفسها على هذا الشكل المريض بدون تطور يذكر؟ ما هو سر هذا الاستعصاء الخبيث في الثقافة العربية الإسلامية؟ ما هو نوع البرمجة الذهنية عند الفرد العربي؟ ولماذا لا يدخل العصر؟

المواطن العربي كفرد مادة خام قابلة للتصنيع في أي ماكينة اجتماعية، شهادتنا في ذلك أبناؤنا الذين يذهبون للغرب، فينخرطون في الماكينة الغربية فيبدعون ويلمعون؛ فإذا عادوا إلى الوطن انكمشوا مثل القماش السيئ بعد الغسيل، في شهادة عن بيئة عقيمة وجو خانق؟ والسؤال الموجع: لماذا؟؟

إذا كان كل مواطن يغلق بابه على نفسه، ويعيش مع نفسه وعياله، فقد تحول إلى ذرة رمل تائهة، غير متماسكة مع غيرها، في صحراء تضرب فيها العواصف في مؤشر خطير على انقضاء أجل الأمة أو يكاد.

نحن نمدح أنفسنا إلى حد القرف، ونكذب بأشد من أشعب حتى نصدق أنفسنا؛ فذاتنا مبرأة من العيوب فوق الخطأ ودون النقد.

إن عدم تحمل النقد، وانعدام آلية المراجعة، واتهام الآخرين بقصورنا، وعزو فشلنا إليهم تبرير غير مجدٍ، وتورط في حلف مع الشيطان في طريق الفحشاء والفقر لا عودة منه.

أما تحرير آلية النقد الذاتي، وتنشيط مفهوم التوبة، فتعني السير في خط آدم، الذي تلقى من ربه كلمات فتاب عليه. لقد تورط الشيطان في ثلاثة أخطاء قاتلة: حين نسب خطأه إلى غيره ولم يراجع نفسه، ثم اعتز بمصدره العرقي، وأخطأ ثالثاً في الفيزياء حين ظن أن الطاقة أفضل من المادة، والفيزياء تعرف اليوم أن الطاقة والمادة وجهان لحقيقة واحدة.

العرب يعيشون في عصر لم يولدوا فيه، أو ولدوا في عصر لا ينتسبون إليه، تشكل الحداثة لهم الجن الأزرق المكرر في قصة سندباد البحري، عندما اختلط عليه الوهم مع الحقيقة، قبل أن يعرف من هو ملك الجان الأزرق؟ نحن نعيش نشوة الماضي كالسكران المترنح في عصر لم نتكيف مع إحداثياته؛ فلا نعرف ماذا جرى في العالم ولا نمشي في الأرض لننظر كيف بدأ خلق العالم الجديد وأنه أنشئ النشأة الآخرة. نحن لا ننتسب إلى العصر لسبب بسيط: أننا لم نشارك في بنائه. نحن استهلكنا ما عندنا من أدوات معرفية؛ فما عندكم ينفد وما عند الله باق. نحن اليوم نشتري الحضارة ولا نبنيها، وأهم شروطها ليس الإنتاج التكنولوجي بل الإنتاج المعرفي. نحن نعيد إنتاج ثقافتنا وهناك الكثير من الأفكار التي تشكل الخريطة الذهنية عندنا هي أفكار ميتة جدير بها أن تودَّع إلى المقبرة في جنازة خاشعة تليق بها. نحن ننتسب إلى ثقافة ميتة لا تؤدي دورها، ورؤوسنا تعاني من دوار مخيف مع إعصار الحداثة، وشكلنا في العالم لا يسرّ الناظرين، من الجزائر إلى

أفغانستان. ليس أبغض على النفس من الانتقاد ولكن النقد الذاتي وضع ديناميكي حي متطور في إنضاج الإنسان. إنها أداة نفض مستمرة للوعي كي يبقى نشيطاً حياً. إنها يقظة واستنفار للإرادة وشحذ المثل الأعلى، وهي تطهير أخلاقي في مستوى الفرد، كما أنها بناء أسرة متماسكة، والعيش في جو جماعة صحي، وتطهير الوسط السياسي من الإرهاب والتسلط، فضلاً عن بناء علاقات حسنة بين الجماعات البشرية. المسلمون اليوم يخلطون بين ذواتهم وبين الإسلام، ويعتبرون أنفسهم أنهم استثناء للقانون البشري، في تعالٍ أحمق يدفعون ثمنه يومياً. إنها كارثة عندما يختلط الإلهي بالبشري. الإسلام مبدأ من لدن حكيم عليم، والمسلمون بشر يخطئون ويصيبون، ويقتربون ويبتعدون، أو يصعدون ويهوون إلى أسفل سافلين فهل نعقل هذه القاعدة؟ عندما نعطل آلية النقد الذاتي نعطل الوعي، ونزيل أي إمكانٍ لتصحيح الخطأ والنمو في المستقبل، وهي كارثة ونحن على كل حال في وضع أكبر من الكارثة؟

وقع الذئب يوماً في فخ الصياد، فاقترب منه الثعلب بحذر كي لا يصيبه ما أصابه. فنظر إليه الذئب بعين حولاء ونفس ذاهبة: يقولون إن يوم القيامة اقترب فهل هذا صحيح؟ قال الثعلب: القيامة ليس عندي خبر عنها، ولكن الأكيد أن قيامتك قامت؟!

٢

مثلث المواطن والمثقف والسياسي

الحاجة إلى رياضيات اجتماعية جديدة

في سيمفونية اجتماعية تضم مواطناً أعمى ومثقفاً أخرس وسياسياً أصمّ تصدر ألحان الأوركسترا أقرب إلى حفلة تعذيب. صم بكم عمي فهم لا يعقلون. المواطن اليوم بدون ثقافة ترشده، والمثقف بدون تيار يدعمه، والسياسي بدون جماهير تمحضه الطاعة المخلصة؛ أقرب إلى التطويق من مجموعتين: الأولى تمارس النفاق والتمجيد، تشحن وعيه يومياً أنه ثالث ثلاثة بعد الإسكندر الأكبر وقورش العظيم، كسّر مسلّمة المستحيلات في المثل العربي يمثل نهاية التاريخ، فلن تنجب الأمة نظيراً له، في شهادة مدمرة عن معنى عقم الأمة. والثانية: تتربص به ريب المنون، تشحنها الكراهية تبرمج آلية العنف والعنف المتبادل، بغير أمل في الخروج من نفق الثقافة المسدود، في مجتمع أتقن فن الصمت وممارسة الإضراب العام الخفي في إجازة مفتوحة إلى يوم يبعثون.

المواطن الذي يتلقى وعيه السياسي من مواطن جاهل مثله كالأعمى الذي يقود أعمى. في النهاية يقع الاثنان في الحفرة. المواطن الذي يلقِّح وعيه من أقنية سرية تنقل إليه المعلومات مشحونة بالهلوسة، تكبر مثل كرة الثلج بالشائعة، تفرج همه بالنكتة بدون انفراج، أو تصور حل يتقدم ليلغي كل الحلول، أو تزين له التنظيمات السرية العنيفة انتحاراً، تواجه فيه نملة حمقاء ديناصوراً لاحماً يهز الأرض بأطنانه الثقيلة، أو في أحسن الأحوال ثور أهوج يتورط في مواجهة مصارع إسباني رشيق، يلوح له بالخرقة الحمراء، مدرب جداً على القتل، يطعنه في المكان المناسب، في الوقت المناسب، في النقطة القاتلة، على مرأى من جمهور مستعد دوماً أن يصفق للذي فاز بالانقلاب، يردِّد المثَلَ الشعبي الانتحاري «ياللي أخذ أمنا نسميه عمنا» يحكي حال أمة في غيبوبة عن التاريخ، ينسى مثَلَ الثور من قصص «كليلة ودمنة»: ألا إني أُكِلْتُ يومَ أُكِلَ الثور الأحمر، ويغيب عنه المعنى القرآني الهائل أن من قتل نفساً استباح الأمة كلها؛ وأي إنسان تنتهك حرمته بـ(صفعة) يعني تلقائياً أن (تصفّ) الأمة كلها على (الدور) بما فيها الحاكم بانتظار ضربة السيف.

الطاقة لها ثلاث معادلات: الإهمال أو التنظيم أو الانفجار. يصدق هذا على الكهرباء والماء والجنس وقوة الجماهير، فكلها طاقات عمياء تنفجر أو تنظم أو تعطل. الكهرباء تنفجر بانفراغ الشحنة العالي بالصواعق، والماء المنهمر يتدفق بالسيل العرِم يغرق الأرض بالطوفان، والجنس المحبوس لا يجد أمامه إلا ركوب أمواج الإباحية؛ باستيراد كل بطاقات الأفلام الخليعة، تنقلها الدشوش الزاحفة على سطوح المنازل، تقود إلى استهلاك الطاقة الحيوية ومرض الروح وانفجار خفي لسرطان تتفسخ فيه الأخلاق في عفن تقرأه في سيماء الوجوه

البلهاء ولحن القول البذيء. وانفلات طاقة الجماهير تقود إلى تدمير البنية التحتية من نماذج أفغانستان والصومال مُهَدِّدةً بالرجوع إلى عصر إنسان «نياندرتال» قبل ١٥٠ ألف سنة. وهو خطر قد ينزلق فيه أي مجتمع غير محصن ضد أوبئة العنف؛ فالنسيج الحضاري كما يقول المؤرخ ديورانت هش للغاية سريع التمزق، أضعف من نسج العنكبوت، كسبي يتراكم عبر التاريخ، يجب المحافظة عليه بإصرار وحكمة.

الكهرباء كانت مجهولة لا تتبدى إلا في صورة الهول الأعظم الصاعقة، وتم حبسها في سلك كمارد لا تستغني عنه الحضارة لحظة يضخ الطاقة في مفاصل الصناعة. والماء كان يسيل على وجه اليابسة منذ أن خلق الله الأرض وما عليها فَحُبِس خلف جدار بالسد يمنح الماء باقتصاد ينمي الزرع والضرع. والجنس تم تنظيمه أنثروبولوجياً بالعائلة في أربع وظائف: ممارسة الجنس الحلال بمتعة، وإنجاب الأطفال لـ(حفظ النوع) واستمرار الجنس البشري، و(ترقية النوع) من خلال العمل التربوي بنقل كامل التراث الإنساني من مفاهيم وقيم وعادات، وأخيراً تنظيم الإنفاق. وتم تنظيم الجماهير في أحزاب ومؤسسات وحكومات شعبية تربيهم أن يكونوا مواطنين مسؤولين، وليس رعايا السلطان العظيم يفعل بهم ما يشاء.

تنظيم الطاقة يقود إلى إضاءة المدن وكهرباء السدود والزواج السعيد والأمة الراشدة. وتوعية الجماهير طاقة تقود إلى تمليح المجتمع بالفكر الصحي والكوادر الفنية وبناء المؤسسات (مثلث النهوض بالأمة) لتنتهي بنضج الأمة وولادة آلية نقل السلطة السلمي كما نراه اليوم في العالم، في الوقت الذي يعيش العالم العربي عصر المماليك البرجية والبحرية ودول طوائف الأندلس قبل كنسهم من خانة

التاريخ بغير رجعة، شاهداً على طاقة حيوية خمدت، وحضارة فارقها نبض الحياة.

الجماهير طاقة عمياء بدون ثقافة ترشدها بالوعي السياسي فتتعلم التعبير وتقرأ حقها الدستوري وتستطيع أن تنجز مظاهرة سلمية بدون تدمير المرافق العامة.

سياسة بدون قوة الجماهير تشبه منظر الكاريكاتور، عندما تختل النسب في خارطة الرسم بين رأس كالكرة العملاقة وأياد وأقدام مثل عيدان الكبريت. كائن خرافي من هذا النوع بتضخم فلكي للمركزية واحتكار مكثف للقوة بأثقل من نجم نتروني، يمتنع عن الحركة إلا بطريقة واحدة مقلداً حركة كرة القدم. شكل الحركة في هذا الكائن الكروي يخضع للدحرجة، أو ركل أقدام الأحداث في ملعب التاريخ، وعندما تواجه هذه الكتلة المدورة منزلقاً خطراً تهوي إلى القرار السحيق تحت ثقلها الخاص لا يوقفها إلا قانون العطالة الذاتية في برمجة لا تنتهي للكوارث.

من يدخل المعاصرة يجب أن يودّع عصر بيعة الخلفاء العباسيين؛ فلا يمكن بناء أنظمة حديثة بمركزية مكثفة تصل إلى جرعة السمية. النحاس والحديد معادن يحتاج لها الجسم، والتيروكسين هورمون يضخ الفعالية في البدن، ولكن تراكم الأول يؤدي إلى تشمع الكبد، وزيادة الثاني تقود إلى رقص الأصابع والنرفزة وخفقان القلب ورشح العرق الدائم المزعج.

جدلية المثقف والسياسي أن الأخير مستباح الدم كهدف ممتاز، في حين أن المثقف يختبىء في الظلمات مثل الزوايا الميتة في مرايا

السيارات. لم يكن عبثاً أن لعن القرآن المثقف الأخرس بألفاظ لا تقبل التأويل، عندما يكف عن بث موسيقى الوعي المنعشة، أو يجند كلماته للطاغوت في ممارسة حرفة بدون حرفة؛ فيشتري بآيات الله ثمناً قليلاً، أو يمارس السحر فيلتفّ على الواقع بالكلمات، فيكسب القاموس لفظة، ويخسر الواقع حقيقة.

كل الحداثة التي نعيشها اليوم تأسست منذ عصر كوبرنيكوس عندما انقلب التصور في مدارج معرفة الكون والتشريح والجغرافيا؛ فلم يكن هناك شيء أوضح من حركة الشمس بين الغدو والآصال، وتبين أن نظرة الناس إليها والكنيسة في ضلال مبين، لا تزيد عن وهم راكبي القطارات، عندما يظن الجالس أنه متحرك. ولم يكن الانقلاب في السماء فحسب؛ فتم اختراق تابو الجسد عندما وضع فيزاليوس مبضعه على جسد الإنسان لينطلق علم التشريح، وتم قلب جغرافية العالم بالدوران حول الأرض، وتحول مركز الحضارة إلى بحر الظلمات خلف أعمدة هرقل، وحبس العرب في زنزانة المتوسط وخسروا المحيط إلى الأبد. كل الظن في عالمنا العربي أن الحكام يفعلون ما يشاؤون، والشعوب لا تزيد عن أقمار تدور حول هذه الشموس العملاقة. نحن أمة مسحورة في حالة غيبوبة اجتماعية، يخيل إليها أن الأصنام فيها حياة والعصي تتسربل بجلود الحيات.

نحن اليوم بحاجة إلى نظرية كوبرنيكوس اجتماعية تقلب هذه المفاهيم؛ نعرف منها أن الأرض تدور حول الشمس، وأن الحاكم قمر يطوف بشمس المجتمع، وأن المرض ينشأ من انهيار جهاز المناعة الداخلي، وأن الغربان تحوم حول جثة البقرة الميتة، وأن البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خَبُث لا يخرج إلا نكداً، وأن السياسي حفيد المثقف، وأن الرياضيات تعطينا فكرة التابع والمتحول

والتفاضل والتكامل. نحن بحاجة إلى رياضيات اجتماعية جديدة.

المثقف ملح المجتمع ونوره ولكن إذا فسد الملح فبماذا يُملّح، وإذا انطفأ السراج فمن يوقد؟

حتى ينكشف الغطاء عن عين المواطن الأعمى فيبصر، وحتى ينطق المثقف فيرتفع الخرس، وحتى يسمع السياسي فيزال الطرش فتتفتح منافذ الفهم لتصبح الأمة راشدة.. من أين نبدأ ومن هو المفتاح الرئيسي في معادلة التغيير؟

٣

أتراه كالفأر يا أبت؟

مسألة الأحكام العرفية

في شتاء عام ١٩٩٨م هطل مطر غزير فوق مدينة مونتريال الكندية فغرقت المدينة الجميلة بماء منهمر. وخلال ساعتين هبت ريح صرصر عاتية قادمة من القطب الشمالي دفعت الحرارة إلى الثلاثين تحت الصفر. إن أهل كندا معتادون على البرد القارس والشمس الساطعة أو الأمطار الغزيرة، ولكن ما حدث كان خلاف المألوف من تعاقب غير عادي بين ريح دافئة ومطر غزير ثم انكسار حاد في درجة الحرارة. وهكذا تحولت أطنان الماء إلى أثقال مجمدة فوق أفنان الشجر وأسلاك الكهرباء ومنصات التوتر الكهربي العالي سرعان ما هوت بما حملت، فانقطع التيار الكهربي عن ثلاثة أرباع المدينة التجارية، وتعطلت ثلاثة مولدات عملاقة للكهرباء من أربعة وبقي مولد واحد يمد المدينة بالطاقة والدفء والحياة. إذا كان الناس في مناطق الحر يصمدون لجنون الحرارة إذا ضربت إلى الخمسين،

فإن هبوط الحرارة في مونتريال إلى الثلاثين تحت الصفر بدون كهرباء يعني موت الناس فعلاً متجمدين في بيوت أصبحت ثلاجات حقيقية. استنفرت الحكومة الكندية كل الإمكانات لإنقاذ أرواح الناس فهيأت الملاجىء لمن يريد، واختار آخرون اللجوء إلى أصدقائهم وذويهم يحتمون من صقيع البرد في تزاحم ضغط أهل المدينة إلى ربع الحقل السكني الذي اعتادوا أن يعيشوا فيه. وهكذا احتشد الناس لأسابيع متكومين فوق بعض وهم يتأملون هشاشة الحضارة أمام غضب الطبيعة. وحتى هنا يعتبر الكلام عادياً، فهي كوارث بيئية يمكن أن تحدث في أي مكان على وجه الأرض. ولكن في سياق هذه الأحداث والناس يتدافعون قد خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت برداً، تخوفت الحكومة من السلب والنهب والاعتداء بعد أن هجر الناس بيوتهم يصفر فيها إعصار فيه قر، فأعلنت الأحكام العرفية لمدة ثلاثة أيام، ونزل الجيش بالآليات الثقيلة إلى الشوارع أمام دهشة الناس لمنظر يرونه لأول مرة في حياتهم، أو ينقل إليهم أحياناً على شاشة التلفزيون من أخبار الانقلابات العسكرية من العالم الثالث المليء بالبؤس. وتقدم رئيس الحكومة الكندية يتحدث إلى الشعب موضحاً بدقة ما معنى حالة الطوارئ؟ وما هي الأحكام العرفية؟ ولماذا تطبق؟ ـ ولفترة ثلاثة أيام ـ ذلك وعد غير مكذوب. في الحين الذي تمدد الأحكام العرفية القائمة في بلد عربي عشرات السنين لمدة ثلاث سنوات جديدة دفعة واحدة في روتين اعتاده الناس. عندما بدأ رئيس الحكومة (كريستيان) يشرح للمواطن الكندي معنى الأحكام العرفية كان في الواقع يشرح شيئاً لم يعرفه الناس قط في حياتهم، في الحين الذي يوجد فيه أناس على ظهر الكرة الأرضية لا يعرفون سوى حالة الطوارئ والأحكام العرفية سبيلاً في الحياة. كان يروي قصة الظلام الذي يغلف أفق العالم العربي لفترة قرون وليس ثلاثة أيام، وعلى

صورة مخففة للغاية عما يضرب مفاصل المواطن العربي بما هو أشد من أعاصير البرد وغضب الطبيعة في كندا. قال الرئيس الكندي: إذا أوقفك جندي وحاول استجوابك فلا تقاومه. وإذا اعتقلت مفرزة عسكرية من تشتبه بهم أنهم مفسدون في الأرض فلا ترتعبوا. كان كلام ممثل الحكومة الكندية يردد مأساة المواطن العربي اليومية منذ أن استباحه الحجاج وأبو مسلم الخراساني، ولكنه كان للمواطنين الكنديين شيئاً غريباً يطرق مسامعهم بعد أن اعتادوا السلام والأمن والكرامة والرفاهية والثقة في حكوماتهم أنها لا تكذب عليهم وتعمل لمصلحتهم وتتبدل بأصواتهم، فلا يعتقل الفرد بموجب تقرير سري خطته يد مخبر في الظلام، أو يوضع لفترة عشرين سنة في معتقل لا يزوره أحد ولا يعرف أهله هل هو حي فيرجى أم ميت فينعى! إن الأمة العربية اليوم في وضع موت مقيم في ظل الأحكام العرفية تنتظر بعثاً جديداً والموتى يبعثهم الله. بدأ المواطنون الكنديون يحاولون أن يتصوروا بصعوبة كيف يتصرفون في مدة الـ٧٢ ساعة القادمة، أما مأساة العالم العربي فهي مزدوجة إذ لا يعرف إلا الأحكام العرفية، وهو لا يعرف أنه في قبضة الأحكام العرفية، ويظن أن طبيعة الأمور هكذا. ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾ [الزخرف: ٢٣]. كان الخليل بن أحمد يضع الناس في قسمة رباعية يأتي في أسفل القائمة أسوأهم (من لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم). نحن في قبضة الأحكام العرفية منذ أيام كافور الأخشيدي ولا نعلم ما معنى القانون، ومعنى أن يعيش الإنسان خارج حالة الطوارئ والأحكام العرفية، فنحن ولدنا مدانين بيصمة على الحبل السري مذنبين بدون ذنب في ظل حكم السيف. في أحد المعتقلات العربية نشأت صداقة بين الجلاد (أبو حميد) وبين معتقل سياسي، وفي يوم اقترب منه فهمس في أذنه مواسياً فقال له: إن الله قدّر عليك هذا الشيء وعندما ينقضي رزقك من هذا المكان

(إذا خلصت نياتك) فسوف يفرج عنك. أجاب السجين: من الغريب أن الله رب العالمين يقضي بحكمه في بلد عربي بأن يعتقل الإنسان على التقرير السري الكاذب، ويلقى في السجن لسنوات بدون محاكمة، ولا تطبق عليه حتى معاهدة جنيف لأسرى الحرب، ولكن قدر الله في سويسرا أن الإنسان لا يحتجز إلا بمذكرة قضائية وبتهمة مثبتة، أما الشرطة في أميركا فتقول له لا تنطق بشيء قبل أن يحضر محاميك حتى لا يحسب كلامك عليك! فكيف نفهم الموضوع؟ ارتبك الجلاد فبهت واختلط عليه الأمر جداً فهو ابن الثقافة المريضة نفسها ولم يفهم الموضوع: أين عمل الله وأين عمل البشر؟ تروي لنا ثقافتنا أن ابن حاكم مصر عمرو بن العاص صفع غلاماً مصرياً لأنه سبقه فقال له أتسبقني وأنا ابن الأكرمين. والشاهد في القصة أنها كانت واقعة بين أطفال، وقد يقول أحدنا إنها لا تستحق أن يهرع المصري وهو الرجل الذي ما زال يحمل آثار السياط الرومانية على جلده أن يعلو ظهر جمل يخبّ به إلى المدينة شهراً في الصحراء ليقابل الخليفة ابن الخطاب لينصفه وقد فعل، وخلّد التاريخ قولته المشهورة «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً». إن المصري أدرك بحدسه أن القضية أكبر من الصفعة، فمن قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن صفع آخر بغير حق فقد اخترق كرامة كل فرد في المجتمع. وأي فرد يعذب لانتزاع الاعترافات منه فكل إنسان في هذا المجتمع قابل أن يُفعل به ذلك. كان تقدير المصري أن صفعة كف بغير حق تعني اختراق الكرامة الإنسانية، وفي الوقت الذي يعتدى على مواطن واحد بغير حق وهناك أناس فوق القانون، فإن ضربة السيف في طريقها لتلحق صفعة الكف، وكل الناس (على الدور)، والمسألة قضية وقت لا أكثر، والوباء لن يعف عن أحد بمن فيهم من هو في رأس هرم السلطة، والقضية هي متى يحين دوره. إنها مؤشر مجتمع الخوف

وعدم الأمان لكل فرد في إجازة مفتوحة حتى إشعار آخر. ولكن أكثر الناس لا يعلمون. عندما خرج المعتقل السياسي حاول أن يشرح طبيعة هذه الكوليرا الفكرية لعقلاء المجتمع. كان البعض يهرب من مجرد السماع فيغلق أذنيه ويستغشي ثيابه ويقول: بيننا وبينك حجاب، لأنه قد يسأل عن مسؤولية سماع هذه الأفكار الهدامة. إننا لا نعرف الأهمية الحيوية لاستيعاب مثل هذه الأفكار فضلاً عن نشرها وترويجها كفكر صحي يخلص الأمة من عقال. إن انخفاض درجة الوعي وصل حداً أننا نخاف من سماع هذه الأفكار. وكل ما ذكرناه حتى الآن لا يحكي أكثر من حالة مريض يشعر بالإنهاك قد يكتشفها أي ملاحظ بسيط أن أوضاعنا ليست على ما يرام. من وجهة نظر سياسية يرى المثقفون أن الديموقراطية هي الدواء ولكن رصيدها هو وعي المواطن قبل صناديق الاقتراعات. ومن وجهة نظر القرآن فإن هناك أمراً لا تضر معه معصية، كما لا تنفع مع الشرك طاعة. وهي كلمة (السواء) في تحقيق العدالة الأرضية، وهكذا فإن التوحيد يصبح أرضياً أكثر من كونه سماوياً، ويصبح سياسياً أكثر من كونه علم لاهوت وعقائد أهل الكلام. وهذا يفسر مشقة المهمة التي قام بها الأنبياء في التغيير الاجتماعي لأنهم دعوا إلى تغيير قضايا تمس أهم الأمور حيوية في حياة الناس بإزالة طبقة الامتيازات. لو قام حاكم عربي فأعلن أن الأحكام العرفية رفعت وحالة الطوارئ ألغيت فهل ترفع؟ هل يقف الفساد عن الانتشار؟ هل ينضبط أصحاب الامتيازات؟ هل يصبح المواطنون سواء فلا أحد فوق القانون؟

إن هذا الوضع يذكر بقصة (الوزير وابنه والفأر) التي جاءت في مقدمة ابن خلدون، فهو يروي واقعة عجيبة عن سيطرة العادات العقلية عن الرحالة المغربي (ابن بطوطة) الذي كان يروي ما شاهده

في رحلاته فكان الناس يتهمونه بالكذب لأنهم لا يتصورون خلاف ما اعتادوه.

يقول ابن خلدون: «وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه ومكث في السجن سنين ربى فيها ابنه في ذلك المحبس، فلما أدرك وعقل سأل عن اللحمان التي كان يتغذى بها فقال له أبوه هذا لحم الغنم، فقال وما الغنم؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها فيقول يا أبت تراها مثل الفأر! فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفأر؟». مهما شرحت نعمة الحالة الدستورية لإنسان لم يذق في حياته سوى بؤس طعم الأحكام العرفية فسيظل يسأل أتراه كالفأر؟

٤

خرافة التسلح

في الوقت الذي يدفع العرب مليارات الدولارات للتسلح من ميزانيات تئن تحت العجز ينقل لنا العلم معلومات مثيرة عن رحلة السلاح النووي على لسان أكبر خبير، واسأل به خبيراً، ولا ينبئك مثل خبير؟!

في المقابلة التي أجرتها مجلة «دير شبيغل» الألمانية العدد (٣٢/ ١٩٩٨) مع الجنرال لي بتلر Lee Butler، قائد القوة النووية الأميركية الضاربة السابق، وجهت له سؤالاً حرجاً: جنرال بتلر، كان من المحتمل إذا شمرت الحرب عن ساقيها، أن تضغط بإصبعك على الزر النووي فتنطلق صواريخ الترسانة النووية الأميركية بكامل طاقتها تدمر الأرض عشرات المرات؟؟

أجابهم وقد اعتدل في جلسته يعرّف بنفسه: «نعم بكل تأكيد، ربما

أعلم ذلك أكثر من أي إنسان آخر على وجه البسيطة!! كل مستقبلي وعملي العسكري كان مرتبطاً بالسلاح النووي. كنت أُدَرِّس نظرية الردع النووي في أكاديمية القوى الجوية لطلابي. كنت أحلّق بالقاذفة B52 تحمل في أحشائها الرؤوس النووية. مؤخراً كنت أنا من يقود الزحف النووي العالمي. تحت قيادتي كامل القوة النووية الاستراتيجية الأميركية، القاذفات والصواريخ في البر والبحر. كنت أساهم في تطوير الرؤوس النووية. وكنت أنا من يقرر كيفية استعمالها. أنا من جلس في مفاوضات التسلح أو مراقبة نزع التسلح. كنت أقدم خدماتي لرئيس الولايات المتحدة الأميركية كخبير في الأسئلة النووية. وأريد أن أفيدكم أن كل خطط الهجوم النووي في حالة القيامة النووية كانت تحمل توقيعي».

كان الجنرال بتلر المشرفَ على خارطة للعالم تضم ١٢٥٠٠ موقع يجب تدميرها نووياً يوم القيامة النووية، تصل إلى أي نقطة بمدى ثلث ساعة، بخطأ لا يتجاوز ١٥ متراً، منها خرائط تفصيلية لمسح مدن بالكامل. تابع الجنرال قوله: «كان تصرفنا كالسكران في يده مسدس يلعب الروليت الروسية، وعندما ضغط الزناد للمرة العاشرة نطق ببلاهة: انظروا ما زلت على قيد الحياة؟ إننا لم نكن نعي تماماً ما الذي سيحدث للكون في حال اندلاع الحريق النووي؟! كانت رحلة طويلة صرفت أميركا خلالها ستة ملايين مليون دولار طورت ما يزيد على سبعين ألف رأس نووية بـ١١٦ نموذجاً محمولاً على ظهر ٦٥ نموذج قذف صاروخي، بدءاً بقنبلة هيروشيما ثم صعوداً (Maximizing) بتطوير القنبلة الحرارية النووية (الهيدروجينية Hydrogen-bomb بعيار فلكي من مستوى (ميغاطن) حتى وصلت جرعة التفجير في الستينيات إلى ما يزيد على قوة تفجير

هيروشيما بثلاثة آلاف مرة، ثم تطوير الجيل الثالث (قنبلة النيوترون) Neutron-bomb بتكثيف جرعة الإشعاع على حساب الضغط والحرارة فيقضى على البشر ويتم استلام المدن نظيفة، إلى رحلة تصغير الحجم Minimizing فأنتجت قنابل صغيرة من أجزاء من قنبلة هيروشيما يمكن حشوها بالمدفعية، ومن كرات التفاح الصغيرة هذه حمل الحلفاء في حرب الخليج الأخيرة ما يقرب من ٦٠٠ رأس نووي صغير، على ما روته مجلة «الشيفرة» Code الألمانية. بجانب هذا مسحت خلال نصف قرن الماضي الجو الخارجي بتطوير نظام الساتلايت (الذي تحول إلى شبكة الدشوش الزاحفة على سطوح المنازل)، والبر من خلال تطوير نظام كمبيوتري (الإنترنيت)، كما رسمت قيعان البحار بخرائط تفصيلية، من غواصات نووية مستخفية بالليل ساربة بالنهار، تحولت في النهاية إلى خرائط (الكارتوغرافي Cartography) يستفيد منها صيادو الحيتان والأخطبوط، وتصمم بموجبها غواصات من نموذج (الطائر العميق الجيل الثاني Deep-Flight-II) تتحمل الضغط إلى عمق أحد عشر ألف متر، ويكتشف في القاع عشرة آلاف مليار طن من مادة (الميتان المبلّر Cristalized Methan) بطاقة لا تكاد تعرف النفاد، هذا عطاؤنا فأمسك أو أنفق بغير حساب؟».

من الجدير بالذكر أن الجنرال بتلر اعترف بأنهم لم يجلسوا ليحسبوا على وجه الدقة ماذا سيكون وضع العالم، عندما يزحف الرؤساء من المخابىء النووية بعد الحريق الأعظم، ﴿يخرجون من الأجداث إلى سطح الأرض كأنهم جراد منتشر، مهطعين رؤوسهم يقولون هذا يوم عسر﴾ [القمر: ٧ ـ ٨]. كل ما فعله الجنرال عندما سئل: ماذا كتبت في أوراقك حيال قيامة قبل القيامة؟ قال: كانت حسابات

رياضية فقط عن كمية التدمير التي سوف تنزل على رؤوس البشر والمنشآت الحيوية. لا معلومات عن انقلاب المناخ وكسوف الشمس الطويل!! لا خبر عن الحرائق التي تلتهم الغابات فتحيل الأرض إلى جهنم تتلظى! لا إحصاءات عن الإشعاعات التي ستفتك ببني آدم؟! لا مخبر عن تقطيع كامل النسيج الحضاري؟! لم تكن تقاريرنا تتضمن كلمة واحدة عن كل هذا؟؟ أما حين السؤال عن الضحايا فكانوا يستعملون منطق الشيوعي (جوزيف ستالين) Joseph Stalin: مقتل إنسان تراجيديا أما مقتل الملايين فهي مسألة إحصائية؟؟!!.

على الرغم من تخصيص ٣٥ مليار دولار في أميركا لتطوير السلاح النووي هذا العام، يقرر لي بتلر، الجنرال السابق والقائد الأعلى للزحف النووي يوم النبأ العظيم، ومدير الخطط الاستراتيجية النووية في البنتاغون، في القيادة العامة في (أوماها) Omaha في (نبراسكا) Nebraska بكلمات مختصرة الحقيقة التالية:

«إننا نضيع الفرصة الثمينة لتطوير قواعد جديدة للأمن في العالم حيث لا يوجد مكان للسلاح النووي»؟!.

هكذا كتب الرئيس أيزنهاور عام ١٩٥٦: «يجب على الطرفين المهتمين بالحرب أن يجلسا في يوم ما إلى طاولة المفاوضات وهما مقتنعان أن عصر التسلح قد انتهى وأنه يتوجب على البشر الخضوع لهذه الحقيقة أو اختيار الموت». وكررها غورباتشوف في كتابه (البريسترويكا): «إن غواصة نووية واحدة تحمل في أحشائها من الطاقة النارية ما لم يستخدم في كل الحرب العالمية الثانية». وبموجبها طرح فكرتي (الغلاسنوست والموراتوريوم = الانفتاح والتخلي عن القوة من طرف واحد). وأكدها الرأس العلمي في مشروع مانهاتن،

روبرت أوبنهايمر، أول من اخترع السلاح النووي: «كأن العالم على صورة عقربين تحت ناقوس زجاجي واحد يمارسان الانتحار المزدوج».

تحمل الحرب اليوم ست مفارقات. ففي الحرب العالمية الثانية قتل الحلفاء ٢٠٠ ألف إنسان في مدينة (درسدن) الألمانية واليوم يحرصون على أن لا يجرح مدني واحد في بلغراد. والحرب كانت تفاجىء الخصم بالسلاح الاستراتيجي واليوم لا يستخدم مع توافره في أعجب مفارقة تاريخية. وقنبلة النيوترون أخطر تطور للقوة كانت بهدف استلام مدن نظيفة من الأناس، والناتو اليوم يهدم المنشآت ويحافظ على البشر. وكان الخصم قديماً يهدد غريمه بالزحف العرمرم ليأتينهم بجنود لا قِبَل لهم بها والناتو اليوم يصرح للخصم أنه لن يرسل الجنود. وكانت الحرب كما ذكر توينبي المؤرخ (تسلية) الملوك يتفرجون على الأقران يتذابحون واليوم أصبحت الحكومات شعبية تخشى من سخط الجماهير فلا ترسل أبناءها قرابين للسياسة إلا الدول خارج إحداثيات العصر. ويعتبر العسكري ڤيكتور فيرنر أن الحرب تحولت اليوم إلى كائن خرافي مثل غوليفر في مدينة الأقزام بكائن شكله إنساني ولكن طوله ووزنه بقدر ناطحة سحاب يدبّ في شوارع لا تتحمل وطء أقدامه، ولا تحدث إلا في الأساطير. إنها تبدلات جذرية في صورة الحرب وتطور السلاح.

الباكستانيون ثملون اليوم بالخمر النووي، والعرب يرون في هذا التطور ظهيراً لهم في صراعهم مع جالوت النووي الجديد في المنطقة (إسرائيل)، والمسلمون مستبشرون يهللون بولادة طفل نووي لهم. والعالم يعلن عن ولادة قنبلة نووية إسلامية؟

السكر النووي خطر، والطفل الجديد قد يكون مشوهاً، ولم يكن للقنابل دين في يوم من الأيام؟ وما يحل مشكلة العرب اليوم أمام (جالوت) الجبار ظهور فتى صغير اسمه (داود) يحمل في يده مرقاعاً وحجراً.

السلاح النووي صنم، والتسلح خرافة تنتمي إلى العهد القديم، والشعوب قوة لا تقهر والجيوش والأنظمة سهل هزيمتها، والأسلحة المتطورة شرك لدولنا الفقيرة، والعالم ينتظر ولادة إنسان الفكرة وتوديع أداة القهر، فنتعلم أن أفضل ما يستخرج من الإنسان بإقناعه لا بتخويفه؟!!... ومن كان له أذنان للسمع فليسمع.

٥

نعال للجمال

يرى الفيلسوف الألماني نيتشه أن الحرب تنشأ من فكرة بريئة ومبررة هي الدفاع عن النفس، ولكن إنشاء (وزارة الدفاع) يحمل سوء النية في الجيران أنهم يعدّون لهجوم، وإذا كان كل طرف يستعد للدفاع عن النفس ويتسلح فقد بدأت الحرب فعلاً، ولا تحتاج إلا أن يشعلها أشد الطرفين خوفاً ويأساً. هذه هي فلسفة الحرب والتسلح.

لا تمر فترة تطول أو تقصر إلا ونسمع عن مرور مسؤول غربي يقوم بجولة في المنطقة العربية ينهيها بصفقة بيع أسلحة متطورة بمليارات الدولارات. وتتدافع أمامنا مجموعة من الأسئلة: لماذا تشتري هذه الدول الأسلحة المتطورة وهي لا تملك قدرة صيانتها؟ ثم كيف تشتري سلاحاً سيصبح (خردة) لاغية بعد عشر سنوات؟ كيف تشتريها وهي تعلم أو لا تعلم أنها ستدمر في أعالي السماء أو قيعان البحار في الساعات الأولى من أي حرب عندما تشكل خطراً جدياً

على صانعيها كما رأينا في الساعات الأولى من مواجهة السلاح الأميركي والعراقي الذي هو أصلاً ليس إنتاجاً عربياً؟ ثم هل تستطيع هذه الدول استخدامها حقاً أم لا بد من أطقم فنية مساعدة إذا وقعت الواقعة؟ ثم ضد من سوف تستخدم هذه الأسلحة صدقاً وعدلاً؟ هل نفعت هذه الأسلحة ضد إسرائيل حتى اليوم؟ أم زادت من وطأة استعباد الشعوب في قبضة دول تغولت؟ أم زادت من مرض عدم الثقة بالجيران ونشوب الحروب في المنطقة؟ كيف تشتريها وميزانيتها تئن تحت الديون الخارجية؟ ولكن بالمقابل أليس الأفضل لبعض دول المنطقة أن تضع يدها في يد الشيطان لو أدى الأمر لإنقاذها من جار عربي لا تأمن بوائقه؟ إن الغربي قد يبقي عليك ويمتص دمك بالتدريج، أما الجار العربي فينسفك نسفاً فيذرك قاعاً صفصفاً لا ترى فيه عوجاً ولا أمتى! فلم يأت هذا الخوف المتبادل لولا وجود (فزّاعة) في المنطقة. ولكن أليست الدول العظمى هي التي تبقي على هذا التوازن الخبيث فتحافظ على (الفزاعة) ويستمر سيلان بيع الأسلحة مثل جهنم تقول هل من مزيد، وتحافظ على الهيمنة على المنطقة في حجر واحد يضرب ثلاثة عصافير. إنها لعبة ذكاء لا يهنأ الغرب عليها.

لقد وصل الأمر بالأسلحة المتطورة أنها مزودة بكود كمبيوتري يمكن تعطيله في الجو أو الأرض في اليوم الموعود إذا أزفت الآزفة، وكتب على هذه الأسلحة منذ لحظة خروجها من مصانعها أنها لن تنصر من يستخدمها ضد من يملك أسرار تقنيتها، فهل يعقل أن يبيعك عدوك سلاحاً تتفوق به عليه؟ إنها حماقة لا يقدم عليها هبنقة!

إذاً لماذا تشتري دول المنطقة هذه الأسلحة المتطورة؟ هل هي مجبرة على ذلك؟ وإذا كان كذلك فمن أين جاء ضعفها حتى رضخت

إلى هذا الحد؟ إن الأسلحة التي تدفع فيها الأموال مصيدة لكل مشاريع التنمية، لأن الأنظمة تدفع ثمن السلاح ليس بتقليص رفاهية النخب الحاكمة أو الحد من امتيازاتها، بل من جيب المواطن برفع أسعار المواد الأولية كي تستطيع سداد الديون.

إن الحاكم ينسى أن أعظم قوة تحميه ليست السلاح بل قوة شعبه التي لا تقهر، ولكن المشكلة في العالم العربي أن الحاكم لا يُسأل عما يفعل وكل ما عداه يسألون. والأمة تمارس الهجرة الخارجية والداخلية بالانسحاب الكامل من خارطة الوعي السياسي.

إن البلد الوحيد الذي هزمت فيه إسرائيل ولم تغن عنها ترسانتها من الأسلحة كان في مكان غير متوقع في أضعف بلد عربي: في لبنان، ولم تكن القوة التي واجهت إسرائيل جيوشاً نظامية تملك أسلحة متطورة ولم يكن خلفها حكومة وكان البلد غارقاً في حرب أهلية.

الأسلحة خرافة. والحروب مصيدة وارتهان. وقد تستطيع دولة متخلفة أن تبدأ الحرب ولكن خاتمتها ليست في يد هذه الدولة، بل في يد الكبار الذين يمولون هذه الحرب بالسلاح، ويقررون من ينتصر في النهاية، ليس لمصلحة أحد الطرفين قطعاً، بل لمصلحتهم بالدرجة الأولى كما حكموا للعراق ضد إيران، ولو بقتل الآلاف من الجنود الإيرانيين بالأسلحة الكيمياوية بحيث رضي الخميني بالصلح وهو يقول: إنني أفعله كمن يتجرع السم! ثم أعادوا الكرة فحطموا العراق.

نحن لم نفهم الغرب بعد، فهو داخلياً رائع بفعل آليات التوازن الموجودة بين العمال ورأس المال، وبسبب وجود الحريات، وترسخ

الديموقراطية، وقوة الإعلام، وفصل السلطات، وسيادة القانون، ونقل السلطة السلمي، ولكن التوازن الداخلي في دول الغرب لا يقابله هذا التوازن مع الخارج، فهم لا يتعاملون مع شعوب تحاسبهم بل مع أفراد يسهل التفاوض معهم مسلطين على شعوب فقدت قدرة تقرير المصير، جاهزة لأن يعتلي ظهرها أي مغامر يدفعها للمسير بعصا بدون جزرة. الغرب هنا لم يعد الغرب العادل بل مصالح شركات ومؤسسات عبر القارات تلتهم الشعوب الضعيفة في صفقات أسلحة مريبة. إن الغرب يعرف أن هذه الأسلحة ميتة تشبه أصنام قريش لا تضر ولا تنفع، ولكننا نحن لم ندرك هذا التحول العالمي، والغرب يراهن على هذا العمى حتى اللحظة الأخيرة، فلماذا لا يبيع هذه الأصنام، لقوم ما زال يحكمهم السيف الأموي، يؤلهون القوة، ويعبدون حكامهم، ويصب عليهم الذل صباً مع كل شروق شمس، ولا ينفعهم السلاح إلا في زيادة الأغلال على الأعناق فهم مقمحون. إن الغرب طوَّر كل أنواع الأسلحة واستخدمها، وخاض كل الحروب الدينية والقومية والعالمية، ولكنه وصل في النهاية إلى طريق مسدود، ولم تكن هذه الخاتمة متوقعة كما لم تنتج من وصايا الإنجيل وتعاليم المسيح، بل ولدت بكل بساطة من رحم التطور العلمي، فمع وضع اليد على السلاح النووي ونظائره من الكيمياوي والبيولوجي، أدرك الغرب أن القوة صنم لا يعول عليه، وانقسم العالم إلى شريحتين شمالية تملك كل القوة وتتفاهم بدون قوة، وجنوبية لا تملك أي قوة ولا تتفاهم إلا بالقوة، في منظر مفارق جداً. الغرب يملك كل السلاح ولا يستخدمه ونحن في العالم العربي لا نملك أي نوع من التقنية ونتلمظ لامتلاكه، بما فيه الصنم النووي الذي ثبت أنه سلاح ميت ليس للاستعمال، وفي الوقت الذي نريد دخول النادي النووي نرى الإعلانات قد زينت مدخله بأنه قد بدأ يغلق أبوابه ويودعه زبائنه، كمن يذهب للحج وعرفات فارغ.

إن إيران لم تنتصر على الشاه بالسلاح بل بالأيدي العزل والمقاومة السلمية في ثورة تحرر فيها الإنسان من مرض القوة وهزم السلاح. لا غرابة أن تتحول إيران إلى الديموقراطية الآن. وفي تركيا حُظر على أربكان العمل السياسي فلم يستخدم أسلوب الجزائر بقطع الرؤوس بالفؤوس، بل حض أتباعه على أسلوب الأنبياء بالصبر وتحمل الأذى ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ [الأنعام: ٣٤] واليوم تتحول الصومال وأفغانستان إلى بلد يضم العظام وهي رميم وبنية تحتية مدمرة. إن المشاهد الناجحة هي من إيران وتركيا. هل هناك استعصاء ثقافي في بنية العقل العربي؟ ستبقى الأمور هكذا وندفع الفواتير مع الفوائد المركبة حتى نعقل، ونعرف أن السلاح صنم، وأن القوة خرافة، وأن أعظم حرية هي تحرر الإنسان من وهم القوة، وأن قوة الشعوب لا تقهر وهي أهم من تكديس السلاح، وأن التناقض العربي العربي هو الجوهري والأساسي، ظهر هذا واضحاً في زلزال الخليج الأخير ونسينا يومها إسرائيل، وأن الصلح العربي العربي أهم من الصلح العربي ـ الإسرائيلي، وأن الصراع العربي ـ الإسرائيلي هامشي وجانبي ولو خسف الله الأرض بإسرائيل لبقيت حروب داحس والغبراء. ولكن هل نعقل؟ أليس منكم رجل رشيد؟ ويبقى السؤال: إلى أين تمضي رحلة تكديس سلاح ليس للاستعمال، وأمة تهوي إلى قاع الفقر، وخطط تنمية تمشي إلى الخلف؟

هناك وصفة ولكنها خارج منظومة تفكيرنا: فلا حاجة لنا بهذه الأصنام التي ندفع فيها دمنا، ويجب أن نتخلص من مصيدة شرائها، ونحافظ على أسلحة بسيطة لمكافحة الجريمة داخلياً، ونراهن على إعادة الثقة بين الشعوب وقياداتها، والتخلص من روح الغدر

كأسلوب لتصحيح الأوضاع في العالم العربي. ولكن هيهات هيهات لما توعدون.

يبدو أن لا أمل ولا نور في نهاية النفق المسدود ولن تتغير الأمور حتى تنضج الأمة وببطء من خلال المعاناة والعذاب الأليم وليس من خلال ما نسطر من أفكار. ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧].

يروى أن طفلاً يتيماً نشأ في كنف وصي فكان يأتي في نهاية كل عام فيجرد له حساب المال الذي تركه له والده. ولكن فقرة كانت تتردد بانتظام لم يكن الغلام قادراً على استيعابها. كان العم يردد (وصرفنا كذا وكذا من المال ثمناً لنعال الجمال). عندما شب الغلام عن الطوق وبدأ يفهم الحياة سأل وصيه: يا عماه كل سنة تقول لي إنك اشتريت نعالاً للجمال ولكن ما أعرفه أن الجمال لا يوضع لها نعال!! قال الوصي: طالما عرفت فأنت أحق بمالك تتصرف به فأنت اليوم راشد.

ونحن في العالم العربي سوف نستمر في دفع ثمن نعال الجمال من الأسلحة حتى نرشد فنكف عن شراء هذه النعال.

٦

حقيقة القوة أم قوة الحقيقة؟

تفكيك سيكولوجي لميكانيزم استخدام القوة في المجتمع ونتائجها

عندما سقطت سنغافورة في يد اليابانيين في الحرب العالمية الثانية، وقع في شباك الأسر مجموعة من النساء الغربيات. كان أول شيء فُرض عليهن في معسكر الاعتقال، الاعتياد على الطاعة، في صورة الانحناء إلى درجة الركوع. وعندما تحدث غاندي إلى العمال في جنوب أفريقيا، قال لهم: يجب أن نحرر الإرادة من الطاعة للنظام العنصري، فقد يهشمون عظامي، ولكن لن يروضوا إرادتي، ولن يستلبوا النور الداخلي للروح. واعتبر القرآن أن الاقتراب من الله لا يتم بدون السجود، بعد ممارسة العصيان ﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾ [العلق: ١٩]. من نظَّم المعارضة النسائية في المعتقل الياباني كانت كاتبة صحفية، وغاندي طوَّر مع زميله عبد الغفار خان، أسلوب العصيان المدني في القارة الهندية، ضد آلة العنف

البريطانية بدون أي عنف. السيدة (سذرلاند) في معسكر الاعتقال الياباني، قضت نحبها في المعتقل بعد سنوات مريرة من العذاب والكفاح، وغاندي تم قتله بيد متعصب، كأي ڤيروس خطير، ينهي حياة إنسان هام.

لا يتم العنف بدون استخدام آلته؛ من التهديد بالتصفية الجسدية بالمسدس، أو الحرمان من الحرية بالسجن، أو العزل الاجتماعي بالاتهام بالجنون، أو فك المتمرد عن مجتمعه بالنفي.

الحاكم الذي يمارس البغي بآلة العنف قد يأخذ رضوخاً من الأمة، ولكنها تمارس المقاومة بطريقتها الخاصة، بالانفجار اللاحق، أو إعلان حالة الإضراب العام الخفي والانسحاب من الحياة.

العالم العربي اليوم يمارس كله الإضراب الخفي في ثلاثة أشكال: بتدني الإنتاجية، وتعطل الخدمات الأساسية، بنظافة البيوت من الداخل، وقذارة الشوارع العامة في الخارج. وأخيراً بتخريب المرافق العامة من ضوء وشجرة وعمود كهرباء، في شهادة صاعقة عن تمزق الشبكة الاجتماعية، وتحول المجتمع إلى شبح، بانتقام مبطن من فرد مهان أمام دولة تغولت.

المواطن العربي يعلن عن حضوره بما هو أشد من الغياب، مواطن بلا وطن، يفقد القاعدة الفيزيولوجية لمعاشه من طعام ومسكن وجنس، مع تبخر الأمن الاجتماعي، بدون أية ضمانات، فلا أمان لأي شيء أو إنسان، في أي مكان أو زمان، في مجتمع تقع إحداثياته خارج التاريخ والجغرافيا، يعيد ضخ المياه في أصنام قريش الميتة، اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، في قسمة ضيزى.

القوة مغرية تثير الشهية لامتلاكها، ولكنها مصيدة مشؤومة للحاكم والمحكوم. القوة أداة ممتازة لممارسة الإكراه، ولكنها تولِّد الخوف، والخوف نسيج خبيث مدمر يفرز هورمونات الكذب.

المواطن العربي اليوم أتقن دور التمثيل تماماً، مثل حيوانات السيرك، فأجاد التمجيد والرقص والتصفيق، يكذب علناً، ويلعن سراً، تحت مقولة شعبية راسخة «الإيد اللي ما تقدر تعضها.. بوسها وادع عليها بالكسر»، أو بتعبير الفرزدق عندما ودع الحسين باتجاه المَذبحة: «قلوبنا معك وسيوفنا عليك»، في تنزيل جديد لسورة المنافقين، وانشقاق في الضمير العربي بين الإرادة والقدرة إلى يوم يبعثون.

قد يغتصب رجل امرأة، تحت التهديد بالسلاح؛ لممارسة الجنس الحرام ولكنه لن يقطف الحب مطلقاً، بل يزرع الكراهية، ويحصد الانتقام. وقد يغتصب الفرد إرادة أمة بالجيش والأمن، ولكنه يحصد إضراباً خفياً عاماً، وتحويل المجتمع إلى فريق من الصيادين بقيادة الحجّاج، يصطادون الفرص، فلم تعد الخدمات العامة حقاً دستورياً.

الإكراه يقابل بأحد شعورين، حسب حجمه: بالمقاومة، أو الخوف، ويتظاهر الأخير بالهرب أو الاستسلام الذليل، فكلها آليات تدعم الخوف، وكما يقول عالم النفس السلوكي (سكينر) متسائلاً عن علاقة المشاعر بالأفعال: هل نهرب لأننا نخاف؟ أم نخاف لأننا نهرب؟ نحن نرى العقرب فنخاف من لسعتها؛ فنسرع إلى سحقها لشعورنا بالتمكن منها، ولكن رجل السلطة نخاف منه، فتبيضّ وجوهنا ذعراً منه.

الخوف يعالج بالكذب أو التملق حسب معدن الإنسان وجرعته. إذا

زادت جرعة الخوف تحول إلى هلع يدشن بطقوس الوثنية، والتقديس الكاذب.

المواطن العربي ولد في مجتمع الخوف، مذنباً بدون ذنب، مداناً على بصمة الحبل السري، مكتوب عليه الخوف يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً.

تنقل لنا النظريات المعاصرة للطب النفسي ثلاث ملاحظات عن بحر النفس الداخلي وتموجاته (Intrapsychic): أن كل شعور يولّد شعوراً لاحقاً، وكل شعور يتفاعل مع الآخر، وأن المشاعر السلبية التي يجهد الذهن لطردها إلى الخارج تكافح لتعود مرة أخرى إلى حقل الروح. الشعور بالإحباط يولّد العدوانية، والشعور بالخوف من شخص يرتبط بالكراهية، كذاكرة سلبية، والحقد، كما يقول أبو حامد الغزالي، هو جرعة الكراهية بتركيز قاتل.

إن زرعت بذور الكراهية نمت شجرة العنف بكل قوة، لتعطي ثمراتها من الخوف. الشجرة الجيدة تعطي ثماراً يانعة، والشجرة الخبيثة تعطي ثمرات رديئة. ومن ثمراتهم تعرفونهم، فهل تنبت شجرة التين حسكاً، أم تنبت الجنان من أُكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل؟ شجرة العنف جذورها الكراهية وثمرتها الخوف، وشجرة السلام جذورها الحب وثمرتها الأمن.

أربعة أشياء في الحياة تستحق السؤال: ممَّ صُنِعت الروح؟ ما هو المقدس؟ ما هو الشيء الذي يستحق أن نَعيش لأجله؟ أو نموت في سبيله؟ والجواب يختصر في كلمة واحدة: الحب. خمس محطات متماسكة لبرمجة العنف في المجتمع، ولكنها تبدأ من صنم يجب

تحطيمه بأشد من أصنام إبراهيم: القوة... فمن رحم القوة يتولد الإكراه، ومن آلة الإكراه ينشأ الخوف، ومن تربة الخوف ينمو الكذب، ومن مستنقع الكذب تولد مشاعر الكراهية، والكراهية تبرمج للعنف في المجتمع، في دورة ملعونة، تزداد اتساعاً باضطراد، من العنف والعنف المضاد، المعلن منه لا يزيد عن رأس جبل جليد التايتانيك، المخفي الشارد في ظلمات الأوقيانوس البارد، يتربص بالمجتمع ريب المنون، في ارتطام يقوده إلى قاع التاريخ على غير موعد. اعتبر القرآن أن أعظم مرضين تبتلى بهما النفس الإنسانية هما الخوف والحزن، وأن الحقنة الروحية التي تتنزل بها الملائكة على عباده الصالحين، هي التحرر من هذين المرضين ﴿تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا﴾. [فصّلت: ٣٠] الخوف والحزن مربعات التجمد في الزمن، في الماضي أو المستقبل، الإنسان يحزن لما حدث، ويخاف مما سيأتي من الشر، أو هكذا يتوهمه.

ولكن كيف يتحرر الإنسان من الخوف ويلغي العنف من المجتمع؟

إذا كفرنا بصنم القوة، سطعت شمس الفكرة فينكسر مسلسل العنف، ويستبدل بمسلسل الرحمة، طالما لم تعد (القوة) المؤسسة المركزية في بناء المجتمع.

مسيرة الإنسان في التاريخ اعتمدت القوة كآلة تفاهم، ومسيرة الأنبياء اعتمدت (الفكرة) كأسلوب تخاطب. فأجمل ما في الإنسان جهازه العصبي، وليس العضلي، وأفضل ما يستخرج من الإنسان بالإقناع، وليس الإكراه، وأعظم ما في الوجود قوة الحقيقة، وليس حقيقة القوة. ينقسم العالم اليوم إلى شريحتين، شريحة شمالية تملك كل تقنيات القوة، ولا تحل مشاكلها بالقوة، وشريحة لا تملك

التقنية، وهي لا ترى حل مشاكلها إلا بالقوة، وينزف اقتصادها في شراء سلاح لن تستخدمه إلا ضد شعوبها أو الجيران، في أشد من حماقة هبنقة وأشعب معاً.

يروي الجاحظ عن الأصمعي أنه سأل يوماً غلاماً: يا بني هل تريد أن تكون أحمق ويكون لك مائة ألف دينار؟ فكّر الغلام ثم أجاب: لا يا عماه!... يكرر الأصمعي: ولكنها يا غلام فرصة مثالية للغنى؟! يجيب الفتى: يا عماه أضيع المائة ألف وأبقى أحمق.

٧

السجون الأربعة

نحن نولد مسجونين بحكم مؤبد في قفص البيولوجيا، مربوطين إلى سلاسل النسبية للبعد الرابع (الزمن)، أسرى في أغلال الثقافة وإكراهات المجتمع. نحن خلقناهم وشددنا أسرهم. ندخل أجسادنا فنتسربل فيها محكومين بالجينات تشكل قدرنا من صحة ومرض وجمال وتشوه. الجينات، الشيفرة السرية للخلق تعطينا لون العينين وطول القامة وقسمات الوجه ولحن الصوت، كما تحدد طول العمر من خلال ساعة مبرمجة على رنين منبه الموت مع كل انقسام كروموسومي. الجينات في الخلايا تحدد العمر والاستعداد لمرض السكر والميل للتسرطن وخلل فقر الدم المنجلي. نحن سجناء عالم بيولوجي بقفل أثقل من نجم نيوتروني في قدر لا فكاك منه. علينا أن نتنفس وإلا اختنقنا أن نأكل ونشرب وإلا هلكنا. أن نمارس الجنس وإلا انقرضنا. يطحننا المرض وتفترسنا الشيخوخة. علينا أن نمشي على الأرض بقانون الجاذبية فلا نستطيع الانتقال بسرعة

الضوء في استحالة يفرضها قانون النسبية باستهلاك طاقة لانهائية وتوقف كامل في مربع الزمن. نحن نرزح تحت ثقل قوانين الفيزياء تحكم بقبضتها على رقابنا في أغلال إلى الأذقان مقمحون. نحن نأتي إلى الحياة بدون إرادتنا، ونخرج منها بدون إرادة ورغبة بعد أن ذقنا حلاوتها، في نقطة ضعف تسلل منها الجبارون لمسك رقاب العباد.

نحن نولد في عصر نعيش ثقافته لا نتحكم في وقت المجيء إليه في ثانية واحدة منه تقديماً وتأخيراً، تدفعنا يد جبارة إلى مسرح الأحداث فنشارك على خشبة مسرح، ثم ينتهي دورنا فنمضي وندلف إلى مستودعات النسيان فلا تسمع لهم ركزاً.

اعتبر الفيلسوف الفرنسي باسكال أن الإنسان يسبح في اللحظة الواحدة بين العدم واللانهاية، فهو كل شيء إذا قيس بالعدم، وهو لا شيء إذا قيس باللانهاية، وهو بعيد كل البعد عن إدراك الطرفين؛ فنهاية الأشياء وأصلها يلفهما سر لا سبيل إلى استكناهه، وهو عاجز عن رؤية العدم الذي خرج منه واللانهائي الذي يغمره.

نحن لا نستطيع ركوب آلة الزمن فنعود إلى زمن الأنبياء، كما لا يمكن القفز فوق حاجز الزمن فنعيش بعد ألف سنة. نحن محكومون بأجل لا فكاك منه، وزمن نعيشه مفروض علينا لا يخترق إلا بطريقة واحدة: الخيال. هكذا تصور دافنشي الطائرة، وكتب جول فيرن قصة «عشرون ألف فرسخ تحت الماء»، ورفض المسيح عليه السلام مملكة بيلاطس بقوله: مملكتي ليست من هذا العالم.

نحن أسرى ثقافة ننتسب إلى حوض معرفي يبرمج عقليتنا، ويمنحنا

الدين الذي نمارس طقوسه، ويشكل شجرة المعرفة عندنا محروسة بلهيب نار وسيف يتقلب. نحن نستحم فنخلع كل ملابسنا، ولكننا في الشارع نلبس كل الملابس تحت مفهوم اجتماعي هو ستر العورة. المجتمع يمنحنا الدين فنعتنقه. من يولد في بافاريا في جنوب ألمانيا قد يخرج كاثوليكياً، ومن يولد في طوكيو قد يكون من جماعة سوجوجاكا البوذية، ومن يولد في جنوب العراق قد يكون شيعياً. كذلك كان الانتساب إلى منطقة ما قدراً ندفع فيه الثمن من مصائرنا؛ فمن يولد في راوندا يهرس كموزة في حقل، أو يمشي بساق خشبية وذراع معدنية في أفغانستان، ومن كان ألبانياً في كوسوفو يخسر كل شيء ليقرر مصيره أساطين السياسة في لوكسمبرغ، أو يعتلي صهوة سيارة «جيمس» في الخليج ترجع رفاهيته إلى صدفة جيولوجية أكثر من عَرَق الجبين، ومن يحالفه سوء الحظ فيولد في بعض مناطق العالم العربي قد يكون رهين الاعتقال، لا يرى خروجاً من ظلماتٍ بعضها فوق بعض، في حالة استعصاء ثقافية بدون أمل في الخروج من النفق المسدود، لا يستطيع فتح فمه إلا عند طبيب الأسنان، أو هارباً خارج وطنه بجواز سفر من الدومينيكان أو الأرجنتين، أو لاجئاً سياسياً في السويد وألمانيا، أو مهاجراً كندياً إذا أسعفه الحظ والمال، أو قد يكون من السعداء النجباء من شريحة الـ٥٪ له كل المال وكل الامتيازات، يساق له رزقه رغداً في العشي والأبكار، في بلد هي مزرعة له ولعائلته.

مع هذا فإن هامش الحركة في (المكان) و(الفكر) و(اللغة) أفضل من البيولوجيا، فقد يفر عراقي إلى بريطانيا بدلاً من وطنه، وقد يعتنق فنان بريطاني الإسلام مغيراً عقيدته، كما قد يتعلم طبيب أردني يتخصص في الغرب اللغة الألمانية، ويرتفع الإنسان بالعلم بدون حدود فيتخلص من الطبقة والفقر.

احتفلت الكنيسة بعد الحريق في ذلك العام كعيد للمسيحية في انتصارها على الهراطقة وتطهير الأرض منهم، وكان حريق (برونو) استعراضاً رائعاً لجبروت الكنيسة وقسوة أحكامها ضد المرتدين، كما كان هذا الدرس المؤلم عظة وعبرة لمن تسول له نفسه الارتداد عن عقيدتها. وكان قد اجتمع خمسون من كبار الكرادلة لهذا الاحتفال البهيج بحرق (ملك الهرطقة!) الذي ساح في نصف أوروبا ينشر زندقته، واجتمع معهم قطيع بشري هائل يتمتع برؤية النار تلتهم جسد هذا (المجرم) حسب تعبيرهم.

يروي شهود عيان أن علامات التعذيب كانت واضحة على برونو قبل الحريق: «كان ممتقع اللون شاحباً قد بدا عليه الهزال بسبب النزيف المتكرر، الذي تعرض له تحت آلة التعذيب الجهنمية المعروفة في ذلك العصر. كانت يداه متدليتين بدون حياة، وكانت مفاصله مخلوعة، وعندما (شبحوه) على آلة الموت كانت الآثار بادية عليه في مناطق انقلع عنها اللحم فبان العظم».

إن المرء لا يحتاج إلى الإغراق في التخيل لتصور هذه المسرحية المقبضة للروح والفصل المظلم والمخجل من تاريخ إجرام الكنيسة ومحاكم التفتيش.

وبعد ٤٠٠ عام، في ١٧ شباط/فبراير من مدخل الألفية الثالثة عام ٢٠٠٠م احتشد جمع غفير هذه المرة في المكان على شكل مظاهرة لإعادة إحياء ذكرى هذا الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى يواجه الكنيسة وكل الفكر الظلامي.

إن ما حدث لم يكن واقعة فريدة شاذة في أوروبا، بل كانت ظاهرة

اجتماعية متكررة، لا يكاد يصدقها الإنسان لولا رواية التاريخ. من هنا كانت قراءة التاريخ مهمة لمعرفة تطور المجتمع الإنساني، وأن عصر الظلمات العربي الحالي الذي نستحم في مستنقعه إلى شحوم الآذان، ويطوقنا كالقدر المنحوس، ونحن نستقبل الألفية الثالثة، ليس جديداً في تاريخ الإنسان. إن محاكم التفتيش انتقل موضعها بعكس حركة الشمس من الغرب لتتوطن في الشرق مثل انتقال الأمراض، واندثرت من المركز لكنها ما زالت ناشطة في الأطراف.

لقد غربت عند الغرب شمس هذه المآسي، ولكن شمسها ما زالت تسطع عندنا بأشد قوتها في دلوكها ولا يزال أمامنا الطويل من مسيرة العذاب حتى نصل غسق الليل، فما زلنا نعيش عصر محاكم التفتيش وقد احتجزنا في مربع الزمن عند العام ١٤٢٠ ميلادي وليس الهجري في تخلف خمسة قرون كاملة.

إن القرآن ذكر نموذجين لوقوف رجل واحد في وجه الطوفان يفكر باستقلالية ويتحدى القطيع الإنساني المتواطىء على الخطأ بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

إن القرآن بنى فلسفته كلها على (المسؤولية الفردية) والحساب يوم القيامة فردي وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴿لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ [الأنعام: ٩٤] فلو جنَّ كل الناس فصفقوا وألهوا فرداً منهم فليس مبرراً أن ينساق الفرد مع القطيع الضال، ولو انحرف كل الناس فيجب أن يعتزلهم الفرد وما يعبدون من دون الله. وعندما شعر بعض الفتيان بأن الحياة تسممت في مجتمعهم آثروا أن ينهوا حياتهم سعيدين في كهف بارد مظلم بعيداً عن

مجتمع تحول إلى قطيع هائم على وجهه يطيع ساداته وكبراءه فأضلوه السبيل. وهذا ما فعله برونو مع كل الفرق والأحزاب التي تواطأت على الخطأ فآثر الموت على الضلال.

إن الجنس البشري يتقدم ببطء ومعاناة بفضل هذه النماذج الإنسانية المتألقة كمنارات فبهداهم اقتده.

ذكر القرآن نموذج رجل سورة (يس) حين أدلى بشهادته متحدياً كل المخاوف ولم يحدد لنا القرآن أن نهايته كانت القتل سوى أنه خوطب ﴿قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي﴾. وذكر نموذجاً ثانياً وقف أمام كل ضغط الحضارة الفرعونية ليعترض على محاولة قتل موسى (عليه السلام) لآرائه، فلا يقتل الإنسان من أجل آرائه مهما كانت ولكن يعاقب على فعل ضار فعله، وموسى لم يفعل أكثر من مواجهة حضارة مريضة بأفكار صحية. ويعقب القرآن على مصيره ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾ [غافر: ٤٥].

وتعيد مجلة «دير شبيغل» (Der Spiegel) الألمانية فتح ملف هذا الرجل الذي لم تبرد حوله بعد ألسنة اللهب تحت عنوان «تحالف غير مقدس»، وتعني عمق الإشكالية التي طرحها في وجه الكنيسة والعلم معاً، بتصوره كوناً لانهائياً يعج بالحياة. وفي الوقت الذي أعادت الكنيسة الاعتبار لغاليلو عام ١٩٩٢م فإن هذا الرجل (العاصفة) لم تُعد الكنيسة تأهيله حتى اليوم. كما أن كتبه كانت على رأس قائمة الكتب المحظورة وبقيت ممنوعة النشر والتداول بقرار كنسي لفترة ٣٦٢ عاماً من عام ١٦٠٣م حتى رفع عنها الحظر عام ١٩٦٥م!.

يروي لنا التاريخ أن حرق النساء كان أكثر من حرق الرجال في التاريخ الأوروبي، وحسب الإحصائيات التي ذكرتها مجلة «دير شبيغل» الألمانية قفز الرقم إلى خانة فلكية بحرق مليون إنسان معظمهم نساء بتهمة السحر، ومن هؤلاء «جان دارك» (Jeanne D'Arc) التي تمت محاكمتها بين ٢١ شباط/فبراير و٣٠ أيار/مايو من عام ١٤٣١م في (محكمة التفتيش) الإنكليزية بحضور ستين من القضاة ورجال الدين، وتضمنت التهمة ما لا يقل عن ٧٠ نقطة، منها مزاولة السحر، وعدم قبول حكم البابا. فليس لها من قاض إلا الله، وال (جرأة) من فتاة في التاسعة عشرة من العمر!

كانت جان دارك تؤكد للمحكمة إيمانها العميق بالخالق والمسيحية، ولكن كل هذا لم يشفع لها، وفي ٧ تموز/يوليو تم حرقها على قيد الحياة، وتنبأ كاتب إنكليزي مرموق بحكم التاريخ باكياً فقال «قضي علينا أن نحرق قديسة»، وبعد ٤٦٤ عاماً في عام ١٩٢٠م اعتبر البابا (بيندكت الخامس عشر) جان دارك قديسة.

٨

فرد في مواجهة مجتمع

«جرّد الرجل من ثيابه ثم ربط لسانه وأحكم وثاقه وشد إلى خازوق من الحديد فوق ركام من الحطب وأحرق حياً على مشهد من جمع غفير متعظ». هكذا وصف المؤرخ الأميركي ويل ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) نهاية حياة مفكر.

كان ذلك قبل أربعة قرون في عام ١٦٠٠م. وفي يوم موعود من شهر شباط/فبراير القارس وقف جمهور محتشد فاغر الفم خائف، وهو يعاين مصير من سمح لعقله بالتفكير ولسانه بالتعبير. وكان رهط من قضاة محكمة التفتيش يراقبون سير العملية بدقة، وهم يشمون رائحة اللحم المشوي، وتمتلىء آذانهم بأنات الإنسان المحترق، يصطلون بالنار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون شهود، بإحراق رجل بتهمة الارتداد عن المسيحية.

كان المكان روما، وكان اليوم ١٧ شباط/فبراير، وكان من أصدر الحكم هيئة قضاة من محكمة التفتيش، وكان المتهم فيلسوف يقال له «جيوردانو برونو» (Giordano Bruno).

وفي يوم السبت ١٩ شباط/فبراير من عام ١٦٠٠م صدرت صحيفة «آفيزي دي روما» (Avvisi Di Roma) بهذا الخبر: «يوم الخميس صباحاً تم إحراق راهب دومينيكاني مجرم من (نولا) حياً، الذي أحطناكم علماً عنه فيما سبق من نشرات جريدتنا، إنه هرطوق عنيد للغاية، اختلق العديد من الآراء على هواه ضد عقائدنا، وخاصة ضد مريم العذراء والقديسين. هذا الخبيث اختار بإصراره الموت الزؤام، وكان يقول إنني أموت شهيداً وأموت سعيداً ولسوف تصعد روحي من ألسنة النار علواً إلى الجنة. ولكنه الآن سيعلم هل نطق بالحقيقة وأي منقلب انقلب؟».

وبعد ٢٨٩ عاماً في ٩ تموز/يوليو عام ١٨٨٩م أقيم نصب في مكان الحرق نفسه أعطي اسم «كامبو ديل فيوري» (Campo Del Fiori) ويعني باللغة الإيطالية (معسكر النار) تخليداً لحرية الفكر التي أطلقها الفيلسوف، بعد صراع مرير بين الكنيسة وحركة من أتباعه رأت فيه شهيداً للعلم وحرية الرأي. ومن اللافت أن وقائع محاكمات هذا الرجل المتعددة اختفت كما دخلت يد التزوير إلى بعضها إلى درجة التشكيك في إحراق الرجل، كما أشار إلى ذلك الكاتب الألماني «يوخن كيرشهوف» (Jochen Kirchhoff) أستاذ الفلسفة في جامعة همبولدت (Humboldt) في برلين في كتابه عن برونو، والوثيقة الوحيدة التي ظهرت للنور احتاجت إلى حوالى ثلاثة قرون حتى اطلع عليها الناس في عام ١٨٨٩م.
كانت هذه الوثيقة تحكي زيارة جمعية «أخوان النبي يوحنا مقطوع

الرأس، حيث تم إخبارهم في الساعة الثانية صباحاً أن هناك حفلة إعدام في اليوم التالي ستنفذ في رجل عاثر الحظ. وفي الساعة السادسة مساءً اجتمع نفر من رجال التلقين والاستتابة مع القسيس المعاون في كنيسة القديسة (سان أورزولا) San Orsola ثم ذهبوا إلى السجن في برج (نونا) Nona وأدّوا هناك الصلوات المعتادة للمحكوم بالإعدام (جيوردانو برونو ابن المتوفى جيوفاني برونو) وهو أخ منشقّ عن الكنيسة من (نولا) وهرطوق مكابر عنيد.

جاء في الوثيقة: «لقد وعظه الأخوة بكل حب، وناشده بالتوبة والتبرؤ من آرائه اثنان من آباء الدومينيكان، واثنان من الجزويت، واثنان من الكنيسة الجديدة، وكذلك اثنان من كنيسة القديس (هيرونيموس) Hieronymus. وأظهروا له بحماسة كبيرة واطلاع واسع خطأه الكبير، ولكنه أصرّ على موقفه حتى النهاية، واستمر سادراً في حماقاته، ولوى عنقه واستكبر استكباراً، ولم يزده دعاؤنا إلا فراراً، وأضاع رشده بآلاف الأخطاء».

نعم، لم يلن ولا مرة واحدة. وأخيراً اقتاده حرس المحكمة إلى مكان الحريق فخلعوا عنه ملابسه، وأوثقوه إلى عمود غليظ، وأحرقوه حياً! وأثناء هذا وفي كل الوقت كان أخوتنا يرافقونه وهم يترنمون بالأناشيد الدينية، وكان رجال الاستتابة حتى الرمق الأخير يحاولون عبثاً أن يثنوه عن موقفه ويكسروا جدار عناده بدون جدوى، حتى سلّم روحه البائسة المشؤومة إلى بارئها.

نحن نظن أننا أحرار في المجتمع وهذا أكبر من هلوسة، ونحن في الواقع مكبلون بأشد من أصفاد اليدين والرجلين. فالوسط ينحت لغة الطفل في تلافيف الدماغ، وآباؤنا يحددون لنا القدر البيولوجي

لأجسادنا ومعها المجال مفتوحاً لكل الاحتمالات والاستعدادات، والمجتمع يهبنا المعادلة الاجتماعية بعد البيولوجية فيجعل من الفرد بشراً سوياً، كما يفرض علينا السلوك السوي، ويعاقبنا إذا خرجنا عن القانون بأشد من معاملة الدجاج وهي تبصر الدم في دجاجةٍ مجروحة فتنقرها حتى الموت، وعندما يشذ الفرد عن القطيع يعامل بالسخرية والأذى والاتهام بالجنون والنفي على ثلاثة أشكال: من ظهر الأرض إلى قبر السجن، ومن دفء الجماعة إلى برد العزلة، أو من شاطىء الحياة إلى سفينة الأموات مع أنوبيس في العالم السفلي. هامش الحرية كما نرى كالصراط يوم القيامة، أرفع من الشعرة وأحدّ من السيف، نحن نعيش إكراهات متتالية من المهد حتى اللحد، في قبضة الجينات وزنزانة الزمن وقفص الثقافة ومعتقل المجتمع.

ومع هذا لا يتقدم المجتمع إلا بهامش الحرية الضئيل من خيال الأفراد المبدعين، يتجاوزون بخيال مجنح إشكاليات القضبان والمعتقلات، فيتنسم في حديقة الدماغ رؤى المستقبل في إمكانات جديدة واختراعات مبتكرة ونشأة محدثة في تطور سفر الإنسان. وعند هذه الزاوية الضيقة تتشكل جدلية الحركة بين ثبات المجتمع كعلاقات تشريحية وحركته كفيزيولوجيا وتطور. العقارب تعيش على ظهر البسيطة بدون تغير يذكر في نمط حياتها منذ ٤٠٠ مليون سنة. ولكن الحيوانات محكومة بنسيج فولاذي آسر للتصرفات تعيد دورة إنتاج نفسها بدون أي تقدم، مثل القطار المحكوم بالمشي على القضبان لا يخرج عنها إلا لمواجهة حادث مروع. العجل يمشي بعد الولادة بساعات والأرانب تنضج في شهر فتسعى. ويبقى الإنسان الكائن الوحيد الأضعف طراً في مملكة الحيوان، ولكن الفرد يمتص خلال سنوات قليلة خبرة كل الجنس البشري المتراكمة في ثلاثة ملايين من السنين؛ فينطلق ويحمل الكراهيات وأخطاء الثقافة من

خلال ثلاث لغات متتالية (سيميائية) من تكشيرة الوجوه وحركات اليدين و(صوتية) بالصراخ أو الاستحسان وثالثة بـ (الكتابة) وهي القشرة السطحية لنقل النظام المعرفي، وتبقى الطبقات الكتيمة العفوية من التشكل الأركيولوجي الثقافي خلف الكثير من سلوكنا اليومي. نحن والحيوانات نعيش على ظهر الأرض منذ ملايين السنين ولكن الإنسان وضع قدمه على القمر ونزلت مراكبه على سطح المريخ ويرسو اليوم على ظهر الكروموسومات؛ فيكتشف أسرار الشيفرة السرية للوراثة وتصرفاته الحافلة بالأسرار، ويعرف أن ٩٥٪ من حركة الإنسان يقودها (لا وعي) أعمى.

ثقب العين صغير ومنه يرى الإنسان العالم، ومن هذا الثقب لا يرى إلا الضوء العادي في شق ضيق من عالم فسيح من طيف الموجات، ما يُرى منه عشر معشار ما لا يرى، ولم يكن غريباً أن أقسم القرآن على ما تبصرون وما لا تبصرون. مع كل هذه المحدودية للرؤية فإنه يفهم قوانين الكون ويطور ببصيرته بصره فيرى توهجاً لامعاً للنجوم من عمق المحيط وفي الكون على مسافة تسعة مليارات سنة ضوئية.

الإنسان كمبيوتر مختزل لكل الوجود في داخله، يحمل إمكانات تطور بدون توقف، فيه شريحة كمبيوترية من روح الله، مزود بوثيقة وكالة عامة من الخالق لاستخلاف الكون. كان الفيلسوف إقبال يناجي ربه حزيناً: يا رب هذا الكون لا يعجبني، فيأتيه الجواب: اهدمه وابنِ أفضل منه.

٩

أحرق حياً

في الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر ١٤١١م أُعتقل المصلح الديني التشيكي (جان هوس) Jan Hus وأخضع لحفلة تحقيق جهنمية من أجل كتاباته وأُدين في ٦ تموز/يوليو ١٤١٥م بسبب ثلاثين جملة اعتبرت (هرطقة) وحكم بأن يحرق (حياً) على النار ذات الوقود ونفذ الحكم في يوم إصداره. وفي ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٥٣م أدين الطبيب الإسباني (ميشيل سرفيتيوس) Michel Servetios مكتشف الدورة الدموية الصغرى بسبب قوله بالتوحيد وتعميد البالغين؛ فلا يعقل تلقين العقيدة لمن لا يعقل، وتكليف اللامسؤول بالمسؤولية، أو أن الرب انشطر إلى ثلاثة أجزاء بدون أن ينشطر؟ وكان خلف إصدار الحكم (كالفن) المؤسس الرئيسي للبروتستانتية في سويسرا ولم تشفع له دموعه وتوسلاته في تحويل الحكم إلى الشنق أو قطع الرأس فالنار أطهر للبدن وأزكى للروح! فأحرق (حياً) وكالفن ومن معه عليها شهود لا يهتز لهم رمش

عين. وفي ٢١ آذار/مارس ١٥٥٦م كان المصلح الديني البريطاني (توماس كرامر Thomas Crammer يشغل منصب (أسقف كانتربري)، أول مترجم للإنجيل إلى اللغة الإنكليزية، يضبط على آرائه الخطيرة في الإصلاح الفكري ويساق إلى المحرقة ليشوى على نار هادئة وجمع غفير عليها قعود يتأملون زفرات الألم مع حشرجة الروح في تضاعيف الدخان المتصاعد. وفي ١٩ شباط/ فبراير عام ١٦٠٠م مع فجر القرن السابع عشر كان المصلح الديني (جيوردانو برونو) الإيطالي على موعد مع المصير نفسه فأحرق (حيّاً) على ألسنة اللهب المتصاعدة (حياً) عن عمر ٥٢ سنة، بعد اعتقال مضن دام ثماني سنوات في الفاتيكان والخضوع لكل أنواع التساؤلات ليتم اصطياده برأيه الكوسمولوجي عن كون بدون حدود ومجرات لانهائية تتزاحم في الملأ العلوي: «الأرض ليست مركز العالم ولا الشمس، وفيما وراء العالم الذي نراه عوالم أخرى إلى مالانهاية، وربما كانت هناك كواكب كثيرة تسكنها كائنات حية ذكية فهل مات المسيح من أجلهم؟».

التاريخ الإنساني حافل بتعذيب الإنسان وحرقه من أجل رأيه أو دفعه إلى تجرع السم كما حصل مع سقراط بتهمة إفساد عقول الشبيبة. فليس غريباً أن يفرد القرآن سورة خاصة لهذا الفصل المروع بعنوان (البروج) عندما تلقى الجموع في خنادق الموت تحرق بالنار من أجل آرائهم. ولا يشذ تاريخنا عن هذه القاعدة، فابن تيمية رآه الرحالة (ابن بطوطة) وهو يضرب بالنعال يُجرّ من المنبر تطير عمامته ويساق إلى التعزير وطالبوا بقتله على مذهب الإمام مالك، وفي النهاية رمي مع تلميذه ابن قيم الجوزية في سجن القلعة في دمشق حتى الموت محروماً من كل شيء بما فيها مواد الكتابة فكان يكتب بالفحم على الحيطان. ابن حنبل ضرب حتى حافة الموت. وأبو حنيفة

مات في الأغلب مسموماً. وابن جرير الطبري المؤرخ دفن بالليل سراً عام ٣١٠هـ بسبب رميه بالزندقة وهو الذي وصف الفقيه (الإسفراييني) كتابه (التفسير الكامل) بأنه لو سافر رجل إلى الصين من أجله لما كان كثيراً. ويسأل الحجاج عالماً ما اسمك؟ فيجيب: سعيد بن جبير فيذبحه قائلاً: بل أنت شقي بن كسير؟ في تصفية أموية لكل المادة الرمادية في المجتمع (قشرة التفكير في الدماغ). وفي يوم العيد يقف أحد الجلادين يخاطب الجمهور: «إنكم تضحون اليوم وأنا سأضحي الجعد بن درهم» ثم ينحره كالكبش الأملح. ووصف ابن أبي أصيبعة (شهاب الدين السهروردي) بأنه «أوحد في العلوم الحكمية بارع في الأصول الفقهية مفرط الذكاء جيد الفطرة» ولكن خصومه شنعوا عليه ورموه بالتفلسف والإلحاد بعد أن ناظرهم في حلب فأفحمهم فعملوا محضراً بكفره ورفعوه إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي بدمشق وطلبوا منه استئصال الشر بقتله حتى لا ينفث إلحاده بكل بلد يحل فيه فكان لهم ما أرادوا وقتل سنة ٥٨٧هـ عن ٣٦ عاماً وأخذ لقب (الشاب المقتول) في التاريخ. وأما (سلطان العلماء) الشيخ (العز بن عبد السلام) فقد أغرى به خصومه الملك (الأشرف) بن الملك العادل الأيوبي أنه «زائغ العقيدة منحرف عما صح من العقائد الدينية الصحيحة» وأفتوا بأنه كافرٌ حلال الدم؟! ورسى مصيره بأن حكم السلطان عليه: «بألا يفتي ولا يجتمع بأحد وبأن يلزم بيته». وكان مصير الحلاّج أن ضبطه الوزير المحقِّق بكلمة قالها القاضي (يا حلال الدم) فحكمه بالإعدام وهو يصيح فيهم: الله.. الله في دمي، فضرب ألف سوط وقطعت أطرافه وأحرق وهو يردد قول أبا العتاهية:

دب السقام فيّ سفلاً وعلوا
وأراني أموت عضواً فعضوا

وفي قرار لعن أبي الوليد (ابن رشد) ذكر صاحب كتاب (الذيل والتكملة) ابن عبد الملك نص الإدانة الكامل عن: «قوم خاضوا في بحور الأوهام... فخلدوا في العالم صحفاً، ما لها من خلاق، مسودة المعاني والأوراق، ونشأ منهم شياطين يخادعون الله والذين آمنوا... فكانوا أضرّ عليها من أهل الكتاب، قصارى همهم بث عقاربهم في الآفاق؛ فاحذروا هذه الشرذمة حذركم من السموم السارية في الأبدان. ومن عُثر له على كتاب من كتبهم فجزاؤه النار التي بها يعذب أربابه، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه، والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم إنه منعم كريم»؟؟!! فطرد من المسجد ونفي إلى قرية الليسانة اليهودية ومات شيخاً محطم القلب، ليطرد بعدها خلال جيل واحد كل أهل قرطبة في عقاب كوني جماعي، فلا يبقى في المسجد إلا المحاريب تبكي وهي صامتة والمنابر ترثي وهي عيدان؟!.

بقدر ما كان القرن السابع عشر في أوروبا تنويرياً بقدر ما حاول المفكرون الاختفاء والانزواء أمام غول الكنيسة والتشدد العقائدي. فخنس (غاليلو) واعترف بأنه أحمق مأفون يردد الخرافات، وسبقه (كوبرنيكوس) الذي لم تكتحل عينيه برؤية كتابه المطبوع إلا قبل موته بساعة. وكان (ديكارت) يردد «عاش سعيداً من اختفى في الظل»، ولم تطبع بعض كتب (أسبينوزا) إلا بعد موته، في ظروف مخيفة أُلقي القبض فيها على مفكر معاصر له هو (أدريان كويرباغ) حاول نشر آراء مماثلة له فحكم بالسجن عشر سنوات مات بعد قضاء ثمانية عشر شهراً منها في مكان ضيق مكبلاً بالأصفاد. وعندما أراد (أسبينوزا) نشر كتابه (الأخلاق مؤيدة بالدليل الهندسي) أشاع عنه رجال الدين أنه يريد نشر كتاب يقيم فيه الدليل على عدم وجود الله؟؟ وتمت محاولة اغتياله بطعنة سكين في

الرقبة ثم مات منفوثاً بالسل مطارداً بقرار لعنة رهيب: «بقرار الملائكة نلعن باروخ أسبينوزا.. وليكن مغضوباً وملعوناً، نهاراً وليلاً، وفي نومه وصبحه، ملعوناً في ذهابه وإيابه، وخروجه ودخوله، ونرجو الله أن لا يشمله بعفوه أبداً، ونسأل الله أن يخلص أولي الطاعة منهم وينقذهم، وأن لا يتحدث معه أحد بكلمة، وأن لا يقدم له أحد مساعدة أو معروفاً، وأن لا يعيش معه أحد تحت سقف واحد، وأن لا يقترب منه أحد على مسافة أربع أذرع، وأن لا يقرأ أحد شيئاً جرى به قلمه أو أملاه لسانه». وتتكرر قصة أسبينوزا في أيامنا على صورة كتاب يناقش (النزعة المادية في العالم الإسلامي) فيصف مفكراً مسلماً مبدعاً هكذا: «مادي ماركسي وضعي دارويني قدري معتزلي باطني شيعي ماسوني غاندوي يعتنق المادية وينشر الزندقة ويدعو لها بصراحة»؟!

طرح الكاتب الوردي سؤالاً خطيراً: لو عاصرنا النبي (ص) وهو يُضرب بالحجارة في الطائف هل كنا معه أم كنا مع الضاربين؟ يجب أن نوسع تصورنا فنحاول أن نستحضر طبيعة الحياة وموازين القوى يومها والدعاية المضادة.

مغزى هذه القصص التي ترتجف منها المفاصل أن المجتمع لا يتقدم إلا بالفكر على جسر من المعاناة فوق نهر من الدموع، وأن الجديد يعارَض دوماً، وأن النافع يثبت وأن التاريخ تقدمي.

١٠

ثمن حرية الرأي

لا يمكن ولا يعقل أن يواجه فرد مجتمعاً وفي أخطر أفكاره ما لم يكن واحداً من اثنين: مجنون أو قديس، وهما على كل حال قطبان متقاربان بين الجنون والعبقرية. ولم يكن غريباً أن اتهم الأنبياء بأنهم مجانين، عندما وقفوا فرادى عزّلاً في وجه كل التيار الاجتماعي المعاكس، وهذا ما فعله الفيلسوف الإيطالي (جيوردانو برونو) بالضبط في مطلع القرن السابع عشر، ولكنه دفع الثمن غالياً من حياته، ولم يكن هناك مفر، وهذه هي حركة التقدم في التاريخ، فلم تكن أوروبا لتتقدم إلا على جسر من حرية الفكر فوق طوفان عارم من الظلامية والتعصب والخرافة. حريق (برونو) هو يوم الفرقان بين عهدين في أوروبا، فمن حمم ألسنة اللهب ولدت أوروبا خلقاً جديداً ونشأة مستحدثة، ومن طينه صارت جوهراً، ومن رماد «برونو» شيد كون آخر، وكل ما ننعم به اليوم من ثورة «الإنفوميديا» (Infomedia) (المعلومات والاتصالات والإعلام) هو

من ذلك الحريق الهائل الذي روّع العالم، وفتح الطريق للعقلانية وتوديع الفكر الكنسي إلى غير رجعة.

ولد برونو عام ١٥٤٨م في نولا (Nola) على بعد ١٦ ميلاً من (نابولي). وفي عام ١٥٧٢م رسم في دير الدومينيكان كاهناً، ولكنه أثناء مكوثه في الدير كان قد التهم المكتبة بما حوَت من مؤلفات عربية مترجمة إلى اللاتينية! وتأثر بابن رشد وابن سينا والفيلسوف اليهودي ابن جابيرول، وسحر بأفلاطون والفلسفة اليونانية وافتتن بمذهب ديموقريطس الذري الذي تابعه أبيقور. وفي عام ١٥٧٦م كانت قد تسربت الشكوك إلى قلبه بما فيه الكفاية فخلع بعد ١١ عاماً لباس الرهبنة واختفى عن الأنظار، بعد أن أعلن شكوكه في فكرة ألوهية المسيح والتثليث والقربان والتجسد «فكيف يمكن أن يكون هناك ثلاثة آلهة في واحد» و«كيف يتحول الخمر والخبز إلى جسد المسيح ودمه؟». كما أعلن ثورته على الفكر السكولاستي (المدرسي) وفكر أرسطو.

إن ثورة برونو الفكرية سبقت (ڤولتير) بقرنين وهذا قدر كثير من المفكرين الذين يسبقون أفكار عصرهم. بعد ذلك تابع برونو ولفترة ١٦ عاماً تجوالاً في أوروبا لا يعرف الاستقرار والراحة لعقل متمرد على العصر يطرح أسئلة مزعجة ويثير تساؤلات عن قضايا جذرية. فانتقل إلى البندقية ثم بادوا (Padua) في إيطاليا، ثم عبر الألب في سويسرا وحاول أن يتقرب من المدرسة (الكالفينية) فكان مثله كالمستجير من الرمضاء بالنار، ونار التعصب واحدة عند الفريقين. وحالما فتح فمه بالنقد تم إلقاء القبض على من طبع أفكاره ومثل أمام محكمة الكنيسة. فهرب من هناك إلى فرنسا عام ١٥٨١م طمعاً بظل عابر من التسامح الديني بين الكاثوليك والبروتستانت،

وأعجب به الملك الفرنسي هنري الثالث لمعرفته بطرق تقوية الذاكرة. ثم غادر فرنسا بعد عامين في ١٥٨٢م وهو يصف الوسط الفكري: «سترون فوضى مشوشة ونتفاً من النشالين، وألواناً من الزيف والخداع، ومغامرات الأوغاد، والقرارات الحمقاء، والآمال المشلولة، والصدقات الشحيحة، والرجال المخنثين، والسرطانات الروحية، والأفكار الهزيلة، وحب الذهب في كل مكان». ثم وقَّع على روايته الكوميدية التي حملت عنوان (حامل المشعل) والتي ضمّنها هذه الألفاظ النارية: «برونو المتخرج من أكاديمية الإزعاج». وفي عام ١٥٨٣م تخلص منه هنري الثالث فأوصى به لسفيره في لندن حيث اجتمع برونو هناك بألمع عقول العصر من أمثال أرلي ليستر وأدموند سبنسر وجبرايل هارفي، وكان اجتماعه مع الملكة إليزابيث الأولى لعنة عليه لأنها كانت من النقاط التي أخذتها عليه محكمة التفتيش بالاتصال بالهراطقة (الكفار) البروتستانت. وعندما غادر بريطانيا كان تعليقه على نظام التعليم في جامعة أوكسفورد أنه: «أرملة التعليم الصحيح وأنه: مجموعة من الجهل المتحذلق العنيد امتزجت بفظاظة خرقاء يمكن أن ينفد معها صبر أيوب». وفي عام ١٥٨٥م قفل راجعاً إلى فرنسا فحاضر في السوربون، ولكن أنصار أرسطو كانوا له بالمرصاد فتابع رحيله في هذا الجو الخانق إلى ألمانيا عسى أن يجد فيها متنفساً. وبين (ماربورج) Marburg وجامعة لوثر في (ويتنبرغ) Wittenberg قضى عامين ولكن لاهوت رجال الإصلاح لم يتفق معهم مما جعله يهرب من جديد إلى (براغ) عاصمة جمهورية التشيك الحديثة، ولكنه مع تدريسه في جامعة (هلمستد) Helmstedt في برونزويك فاحت آراؤه الخطيرة من جديد فاتهمه رئيس الكنيسة اللوثرية بالتجديف و«أصدر قراراً بحرمانه من الكنيسة» مما اضطره إلى حزم حقائبه

من جديد واللجوء إلى فرانكفورت وزيوريخ عام ١٥٩١م قبل اعتقاله في إيطاليا بعام واحد. ثم شده الحنين إلى جو إيطاليا الدافىء ومراتع الطفولة، ولكي يأمن على نفسه اختار (البندقية) التي اشتهرت بحماية المارقين على الكنيسة واختار رجلاً من عائلة عريقة هو (جيوڤاني موسنيجو Giovanni Mocenigo) الذي كان يريد منه تعليمه طرق تقوية الذاكرة، وكانت سمعة (برونو) أنه مليء بالأسرار والتجارب، ولكن المضيف أراد تبرئة ذمته من الأفكار الخطيرة التي كانت تتناثر من شدق هذا الفيلسوف الثرثار قليل الحذر فاعترف لكاهنه بذلك، وأوصاه الأخير بتبليغ محكمة التفتيش عنه، فهذه أمور لا يسكت عنها ويجب التقرب بدمه إلى الله، وكانت محكمة التفتيش قد أصدرت مرسوماً بإلقاء القبض عليه بأن يؤخذ (موجوداً) من الحدود. وفي ٢٣ أيار/مايو ١٥٩٢م تم إلقاء القبض عليه، وبين عامي ١٥٩٢م و١٦٠٠م حُقق معه العديد من المرات وكانت محكمة التفتيش حريصة أن تهمله لفترات طويلة لتحطيم معنوياته وإذلاله ولم يسمح له بالورق والقلم إلا بعد ست سنوات من اعتقاله. وفي دفاعه عن نفسه كان يؤكد أن لجنة التحقيق تتعمد اصطياده بجمل منتقاة بعناية منتزعة من سياقها في حرص على إدانته، وقبل بسذاجة بأنه يرضى ما يحكم به البابا، ولكن (كليمنت الثامن) البابا وقتها وهيئة محكمة التفتيش أدانته بثماني جمل من الهرطقة الخالصة التي هي معلومة من أصول المسيحية بالضرورة ولا يتجادل عليها اثنان، وأخيراً أمر البابا بالفصل في موضوعه فاستدعاه المحققون في ٨ شباط/فبراير من عام ١٦٠٠م ووعظوه من جديد أن يبدي الندم ويتوب توبة خالصة ويتراجع عن آرائه الضلالية الضارة، فقد كانت ثمانية أعوام من الإذلال والتحقيق كافية للتراجع! وأنه ارتضى حكم البابا وأن البابا اعتبره مارقاً وأن المتهم ما زال مصراً

على هرطقته سائراً في غيه عنيداً مكابراً.. ومن ثم صدر الحكم بإحالته على المحكمة المدنية لدى حاكم روما... «الحاضر هنا ليقرر العقوبة التي تستحقها ولو أننا نرجو جادين أن يخفف من صرامة القوانين بالنسبة لما تعانيه من آلام وألا يكون جزاؤك الإعدام أو بتر الأعضاء» كما جاء في كتاب «قصة الحضارة» لديورانت.

وقّع على الحكم في النهاية ثمانية كرادلة وكان يقضي بالحرق حياً. وبعد تسعة أيام نفذ الحكم. برونو وهو يستقبل الموت كان يرى إلى الوجود: «إنها وحدة تسحرني، فأنا بقوة هذه الوحدة حر ولو كنت مستعبداً، سعيد في غمرة الحزن، غني في حمأة الفقر، حي حتى في الموت.. إني وأنا خاضع لهذا القانون وبرغم أني أقاسي، أجد العزاء في التحقق أن شر الجزء يصبح غير ذي معنى في المشهد العام للكل... ومن ثم تكون معرفة الوحدة الأسمى هي هدف العلم والفلسفة». وعندما تلا مجلس الكرادلة عليه الحكم قذف في وجههم عبارته المشهورة: «ربما كنتم يا من نطقتم الحكم بإعدامي أشد جزعاً وخشية مني أنا الذي تلقيته».

يشكل برونو جسراً بين بواكير النهضة العقلية في أوروبا التي أطلقها أناس متمردون من نموذج (روجر بيكون ١٢١٠م - ١٢٩٣م) وتكللت في النهاية بالانفتاح العلمي وبناء المنهج العقلي النقدي كما جاء في قانون تأسيس (الجمعية الملكية العلمية) في بريطانيا. أما بيكون فقد كانت حياته كما وصفها المؤرخ البريطاني (ويلز H.G. Wells في كتابه (معالم تاريخ الإنسانية): «كانت حياة بيكون مأساة ذهنية»، ولكن ألمع ما عرف به الرجل عندما شهّر بأسباب أربعة للجهل دفع ثمنها سجناً طويلاً: «احترام السلطة، والعرف والعادة،

وروح الجمهور الجاهل، وما عليه ميولنا من عدم قابلية للتعلم تتسم بالغرور والكبرياء، فلو تغلب الناس على هذه وحدها لانفتح أمامهم عالم من القوة». ولم يضع رماد برونو سدى، فقد ساهم في دفع الروح الأوروبية الجدية، ونطالع عن تأسيس الجمعية الملكية العلمية في لندن الذي صدر بموجب مرسوم ملكي من شارل الثاني عام ١٦٦٢م، وتبنى المنهج العلمي الذي ينص على سبع فقرات:

١ - ألا يفترض أي فرض لا ضرورة له.
٢ - ألا يقبل أي خبر أو بيان من غير تحقيقه.
٣ - أن تختبر كل الأشياء بأشد قدرة مستطاعة.
٤ - ألا يحتفظ بأي أسرار.
٥ - ألا يحاول أحد أي احتكار.
٦ - وأن يقدم الإنسان خير ما لديه في تواضع ووضوح.
٧ - ألا يخدم أية غاية أخرى غير المعرفة.

يناقش أستاذ الفلسفة (كيرشهوف) Kirchhoff في مقالة نشرتها مجلة «دير شبيغل» الألمانية (العدد ٧ من عام ٢٠٠٠) سبب إصرار الكنيسة على إحراقه ليصل إلى بلورة عدة نقاط جديرة بالذكر في ذكرى حرقه بعد أربعة قرون وأهمها: أن الكنيسة أعادت الاعتبار لغاليلو عام ١٩٩٢م في الحين الذي لم يتزحزح موقفها من برونو لاعتبار جوهري هو أنه تناول قضية عقائدية تمس صلب المسيحية، والتهاون فيها يعني تبخر كل العقيدة التي عملت الكنيسة على ترسيخها عبر القرون من (ألوهية المسيح)، وأنه أرسل للأرض للفداء على شكل (ناسوت)، مع عدم وجود نص واحد يتيم في كل الأناجيل الأربعة يفيد بفكرة الأقانيم

الثلاثة فضلاً عن ألوهية المسيح بذلك. كل ما ذكره الإنجيل كما يقول المؤرخ (ويلز) كان تعليمات بسيطة يشار له بكلمة (معلم). في الوقت الذي تتحول فيه الكنيسة إلى كهنوت ثقيل بألبسة خاصة ويتم تدشين طبقة رجال دين لم يأت بها دين، ورهبانية ابتدعوها وما كتبها الله عليهم، وعزوبية ضد الطبيعة تؤدي إلى تعفن خلقي وشذوذ في النظرة إلى المرأة على أنها مصدر الفتنة والشيطان، ويجلس البابا في سدته منذ تعيينه حتى الممات في شيخوخة مستفحلة. ويستعرض المؤرخ الأميركي (ديورانت) هذه المشكلة على النحو التالي: إن برونو رأى أن العالم لانهائي وأن النجوم شموس تتحرك وأن الفضاء والزمن والحركة كلها أمور نسبية، وربما كانت هناك كواكب كثيرة تسكنها كائنات ذكية فهل مات المسيح من أجلهم كذلك؟.

لا يمكن فهم جريمة إحراق برونو بدون فهم الجو الذي عاش فيه من بطش الكنيسة ومحاكم التفتيش والقبض على الملايين على الشبهة، ووضعهم تحت أدوات تعذيب جهنمية للاعتراف في وسائل معترف بها مبررة قانونياً. وهو ما نعيشه نحن اليوم في العالم العربي من تعريض الإنسان للتعذيب مما يجعلنا نوقن أننا نعيش عصر محاكم التفتيش بأسماء جديدة.

كان قطع الألسنة وارداً، وعندما تقدم أحد المحكومين بالحرق بطلب الرحمة في قتله قبل الحرق من الملك الإسباني (فيليب) الذي كان يشهد حفلة حرق العشرات من الهراطقة في بلدة (الوليد) رفض طلبه وهلل له الجمهور أنه حاكم تقي لا تأخذه في الله لومة لائم!

إن عصر برونو كان كارثة بكل معنى الكلمة، فالطاعون يعصف

ويفرغ مدناً بأكملها من سكانها، والحروب الأهلية الدينية على أشدها، فبين عامي ١٥٦٢م - ١٥٩٨م عصفت بفرنسا ثماني حروب دينية بين البروتستانت والكاثوليك، وفي عام ١٥٧٢م احتفل الكاثوليك الفرنسيون بعيد القديس (برتولوميوس) Bartholomaeus بتقديم ثلاثين ألفاً من القرابين البشرية من خصومهم الهيجونوت (الفبروتستانت) ذبح منهم فقط في باريس ثلاثة آلاف بينهم أطفال رضع ونساء وألقي بجثثهم في نهر السين. إن تاريخ المذابح الدينية فظيع ولقد تعامل أتباع الأديان وفرق الكنائس في التاريخ بما هو أشد من الهمج والمتوحشين وكأنهم أتباع الشياطين وليس الأنبياء. عندما يقارن ويل ديورانت المؤرخ بطش روما بالمسيحيين وبطش الكنيسة بالمرتدين يعتبر أن روما كانت أرحم مع أن التاريخ شهد لروما أنها كانت فاتحاً لا يرحم: «وإذا وازنّا بين اضطهاد المسيحيين للضالين في أوروبا من عام ١٢٢٧م إلى ١٤٩٢م وبين اضطهاد الرومان للمسيحيين في الثلاثة قرون الأولى بعد المسيح حكمنا من فورنا بأن هذا أخف وطأة وأكثر رحمة من ذلك... ونحكم عليها بأنها أشنع الوصمات في سجل البشرية كله، وبأنها تكشف عن وحشية لا نعرف لها نظيراً عند أي وحش من الوحوش».

تاريخ الكنيسة ومحاكم التفتيش... إن ما حدث في تاريخ الكنيسة لا يمكن السكوت عنه بحال. إنه عار كبير الذي حدث. كيف يمكن أن تتم انتهاكات صارخة لحقوق الإنسان على هذه الصورة من الوحشية باسم الدين وحفظ العقيدة؟ كيف يمكن للإنسان أن يسكت عن هذه الألوان من ممارسة العنف في صورة حروب دينية تشن ومحاكم تفتيش تصبّ العذاب على البشر باسم الإيمان؟ إن ما فعلته محاكم تفتيش العصور الوسطى كان التمهيد الفعلي لقيام

أنظمة توتاليتارية Totalitarism في القرن العشرين وأنظمتها القمعية من نموذج (الغستابو) Gestapo النازي وجهاز الاستخبارات الـ (K.G.B.) الشيوعي و(Stasi) استخبارات ألمانيا الشرقية السابقة قبل انهيار النظام الشيوعي.

هذا الإعلان المثير لم ينطق به خصم للكنيسة. لم يصرح به شيخ الأزهر. لم يقل به ملحد غربي أو شرقي معادٍ للمسيحية والكثلكة. هذا التصريح العجيب قال به رأس الكنيسة الكاثوليكية، البابا البولوني (كارول فويتايلا) Karol Wojtyla يوحنا بولس الثاني (Paul II). هكذا صرح واعترف البابا الجديد في عام ١٩٩٤م: «على الكنيسة وبمبادرة ذاتية استعداداً لدخول القرن الجديد أن تعيد فحص الزوايا المظلمة من تاريخها، وتقيمها على ضوء البشارة النبوية وأعمال الأنبياء (Evangelium)».

محاكم التفتيش (Inquisition) أسسها البابا (إنوسنس الرابع) Innozenz iv عام ١٢٥٢م وبقيت تعمل لمدة خمسة قرون، أرسلت خلالها إلى المحرقة مليون امرأة، منها والدة الفلكي المشهور (كبلر) Keppler الذي أنقذها بأعجوبة. وبالنسبة إلى الفيلسوف الفرنسي (ڤولتير)، فإن أعداد من ماتوا تحت الآلة الجهنمية لتعذيب محاكم التفتيش تصل إلى عشرة ملايين.

كم بلغت كثرة الضحايا؟ قدّر أمين محكمة التفتيش بين عام ١٨٨٩م و١٨٠١م (خوان ليورنت) بأن عدد الضحايا الذين أحرقوا بين عامي ١٤٨٠م ـ ١٤٨٨م قدر بـ٣١٩١٢ إنساناً، وأن من وقعت عليهم عقوبات صارمة بلغوا (٢٩١٤٩٤١) شخصاً. ولم يقف الأمر عند الإعدامات والعقوبات بل خلقت محاكم التفتيش جواً من

الرعب لا يطاق. يقول (ديورانت): «ولا تصور الإحصائيات أياً كانت الفزع الذي عاش فيه العقل الإسباني في تلك الأيام والليالي. فقد كان الرجال والنساء حتى في ستر منازلهم، يراقبون كل كلمة يتلفظون بها حتى لا يؤدي بهم نقد عارض إلى سجن محكمة التفتيش. لقد كان ضغطاً عقلياً لا نظير له في التاريخ». لقد نجحت محاكم التفتيش في تطهير المجتمع من الرأي المخالف وبناء رأي أحادي تماماً كما في بناء الطرق السريعة باتجاه واحد لا رجعة فيه. ولكن هل تبني الشركات السيارات بدون قدرة رجوع إلى الخلف بحيث تنحشر في الكاراج فإذا دخلت لم تخرج؟ كذلك كان مصير إسبانيا، فقد دلفت إلى البوابة الخلفية لأوروبا وهبطت إلى الحضيض. يعقب ديورانت على ما حدث من جرائم محاكم التفتيش: «ولكنها تبدت لنا الآن أكبر جريمة لا تغتفر من الجرائم التاريخية. ذلك لأن عقيدة سائدة لا تنازع عدواً مهلكاً للعقل الإنساني».

إن برونو كان شهيد حرية الفكر أكثر من كونه باني فلسفة منهجية متماسكة، وإذا كان المقصود بالفلسفة الرؤية الهادئة المنظمة للأشياء، وفقاً لعلاقاتها وأهميتها النسبية والقدرة على الإحاطة بكل الجوانب والتسامح مع كل وجهات النظر المختلفة، فإن برونو على هذا الأساس لم يكن فيلسوفاً.

وجه (برونو) نقداً لاذعاً للكنيسة والفكر السائد ولم يتورع عن استخدام ألفاظ استفزازية للغاية تخص نظام التلقين السائد في زمنه من حجم: «حاولوا أن تكونوا حميراً أيها الرجال.. حتى تسيروا إلى المكانة التي لا يمكن بلوغها بالمعرفة والجهد بل بالتقليد والتلقين» ولكنه لم يدرك أنه سابق لعصره بقرون، أو أنه بكلمة أدق يشق الطريق إلى ولادة أوروبا جديدة لها قدرة أن تنتقد حكوماتها كما

فعلت أميركا مع رئيسها (كلينتون) عندما شاهد الملايين في الولايات المتحدة والعالم كيف شد القضاء أعظم شخصية سياسية للمساءلة والمحاسبة، وأنه لا توجد شخصية مهما كانت قوية خارج النقد ودون الخطأ، فلم يعد الحكام آلهة لا يسأل أحدهم عما يفعل وهم يسألون كل من تحتهم من العبيد، وقفز بذلك الغرب إلى نصف التوحيد عندما حطم أوثان السياسة، وفعلت مجلة «دير شبيغل» الشيء نفسه في العدد الذي نشرت فيه قصة برونو وهي تصف الحكومة الألمانية بأن ألمانيا أصبحت «في بلاد الكذب» (Im Lande Der Luegen) من دون أن يخاف المحرر على أصابعه أن تهشّم قبل تحطيم جمجمته، وعلى صفحة الغلاف الرئيسية رسوم كاريكاتورية لستة من أعظم أدمغة ألمانيا السياسية ومعهم المستشار الألماني (كول) الذي أنجز أعظم الأعمال عملقة في تاريخ ألمانيا الحديثة من توحيد أوروبا والألمانيتين.

إذا كانت الكنيسة قد سارعت إلى تبني نظرية الانفجار العظيم كـ (موديل) لإمكانية خلق الكون، وهو استعجال متهور، فقد فعلت سابقاً ما يشبهه في تبنيها نظرية بطليموس حول مركزية الأرض حتى بطلت، وهي تعيد اليوم حماقة الأمس. ولكن أفكار (برونو) تتجاوز تلك النظرية وتفرض تحدياً مزدوجاً للاهوت وعلم الكوسمولوجيا، وبعد مرور أربعة قرون على أفكاره ما زالت تحلق فوق كل ما حققه العلم. إن برونو لم يكن عالم مخبر تجريبي، بل كان بالأحرى فيلسوفاً نظرياً عميقاً يشطح بأفكاره إلى مدى لم يصله العلم بعد، في رؤية شمولية للكون أنه لانهائي ويعج بالحياة وينسجم في وحدة خلف كل التناقضات والتنوع، مما يجعل اليوم كلاً من الكنيسة وعلماء الكوسمولوجيا يتحدان ضده في (حلف غير مقدس) على حد تعبير (كيرشهوف) كما جاء في عنوان مقالة

«دير شبيغل»، بعد أن تبين أن السماء لا تبث خبرها تبثيثاً حول كائنات ذكية تحدث أخبارها، وأن الكون أقرب أن يكون مقبرة ميتة لا يسمع منها ركز. ولكن هل عرف العلماء كل شيء؟

بعد ١٩ عاماً من حرق برونو عام ١٦١٩م تجرأ مفكران آخران بالتعبير عن آرائهما هما (فانيني) و(كمبانيلا). فأما الثاني فقد ألقي في السجن ٢٧ سنة وعذب اثنتي عشرة مرة (استمر التعذيب في إحداها أربعين ساعة متواصلة) وأما الأول فقد سلم إلى الجلاد وهو في قميصه وحبل المشنقة حول عنقه، حاملاً فوق كتفيه إعلاناً يقول (ملحد دنس كلمة الله) واقتيد إلى كنيسة القديس ستيفن ليجثو على ركبتيه طلباً للغفران من الله والملك والعدالة عن تجديفه وإلحاده. يقول المؤرخ (ديورانت): «قبض عليه في ٢ آب/أغسطس ١٦١٨م بأمر من الملك وليس الكنيسة بعد وشاية عليه أنه يسخر من (التجسيد) ويعارض فكرة (وجود إله بشري) فسيق إلى ميدان في تولوز في فرنسا وشد إلى خازوق مقام هناك ثم قطع لسانه وشنق ثم حرق جسمه وترك الرماد تذروه الرياح».

هذا هو ثمن الحرية على ما يبدو.

بعد ذلك خنس العلماء وكتموا آراءهم إلى حين، فكان يردد (ديكارت): «عاش سعيداً من بقي في الظل»، وكتب (أسبينوزا) كتبه الأربعة على نحو مبهم نجد صعوبة في قراءتها حتى اليوم بعد أن هرب إلى هولندا، وخرّ (غاليلو) على ركبتيه جاثماً خاشعاً معترفاً أنه أحمق مأفون وأن ما قاله إفك افتراه وأنه منكر من القول وزور وأنه يسحب ما قاله جملة وتفصيلاً، حتى كان يوم الزلزلة في الثورة الفرنسية والثوار يرددون شعار ڤولتير «اشنقوا آخر إقطاعي بأمعاء آخر قسيس».

١١

لماذا قتل ابن المقفع؟

يروي الجاحظ في كتابه (الحيوان): «أن أبا أيوب المورياني وزير المنصور بينا هو جالس في أمره ونهيه إذ أتاه رسول أبي جعفر المنصور فامتقع لونه وطارت عصافير رأسه، وذعر ذعراً نقض حبوته واستطار فؤاده فتعجبنا من حاله، وقلنا له: إنك قريب المنزلة فلم ذهب بك الذعر واستفزعك الوجل؟ قال سأضرب لكم مثلاً من أمثال الناس...». يمضي بعدها الجاحظ فيروي عنه قصة (البازي والديك) فيتهم الأول الديك أنه قليل الوفاء، إذ بعد احتضان بيضته وإطعامه من الأكف صار لا يدنو منه أحد إلا وارتعب وطار يميناً وشمالاً، أما (البازي) فهو يقنص الصيد من الجو فيحضره لسيده. قال الديك: ولكنك هل لاحظت أن من يشوى على السفافيد هم الديكة وليسوا الصقور (إنك لو رأيت من البزاة في سفافيدهم ما رأيت من الديوك لكنت أنفر مني) يلتفت الوزير المورياني إلى الجاحظ وأصحابه معقباً: «لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفي

مع ما ترون من تمكن حالي». كانت نهاية الوزير بحد السيف ولم يكن مصيره استثناءً، فقد تتابع مسلسل قتل الوزراء بشكل درامي بئيس في العصر العباسي، فكل من وزراء السفاح والمنصور والمهدي والرشيد والمأمون انتهت حيواتهم بحد السيف قتلاً، بدءاً من أبو سلمة الخلال وانتهاء بالفضل بن سهل. ويروي (التنوخي) قصة الوزير والقرد والقرّاد على شكل مضحك: فقد اجتمع الناس في شارع ببغداد والقرّاد يقول للقرد: هل تريد أن تكون برازاً؟ فيومىء القرد برأسه نعم، فيكرر القراد: هل تريد أن تكون عطاراً؟ فيرد برأسه نعم، فما زال يكرر عليه طرفاً من الصنائع وهو يهز برأسه نعم، حتى إذا ذكر الوزير انجفل فقال: لا. ويصيح ويعدو بين يدي القراد فيضحك الناس.

من المفيد للمرء التشبع بالوعي التاريخي وأن يحاول تصور الجو الذي عاش فيه الناس، فوضعنا المأساوي الحالي لم يولد من رحم التاريخ من لا شيء.

إن قصة (المورياني) هي عيّنة من ذلك الجو الذي عاشه الناس في العصر العباسي الذي دشنه إبراهيم الإمام بتوجيه تعليماته لأبي مسلم الخراساني على الشكل التالي: «إن استطعت ألا تدع بخراسان أحداً يتكلم العربية إلا قتلته فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، وعليك بمضر فإنهم العدو القريب الدار فأبذ خضراءهم ولا تدع على الأرض منهم دياراً».

يروي لنا التاريخ أن جو التجسس (الوشاية) وقتل الناس على الشبهة بالزندقة بسبب عداوة شخصية كان أمراً يومياً كما حصل لدماغ فذ خسرناه هو (ابن المقفع).

جو الرعب الذي عاصره الجاحظ وابن المقفع مع تأسيس الدولة العباسية التي جاءت لإقامة العدل ينعكس في بعض الروايات، ويؤكد قاعدة أن «من أخذ السيف بالسيف يهلك». وأن الانقلاب العباسي لم يزد الأمور إلا بؤساً، وعن طريق المنهاج النبوي إلا بعداً.

سئل (العتابي) لماذا لا تتقرب بأدبك إلى السلطان؟ فكان جوابه: «لأني رأيته يعطي عشرة آلاف في غير شيء، ويرمي من السور في غير شيء، ولا أدري أي الرجلين أكون؟». أن العتابي كان أعقل من عشرة وزراء.

أما (المفضل الضبي) فيدعوه رسول المهدي فيظن أنه الموت، فيتطهر ويلبس ثوبين ويستعد للنطع والسيف، فلا يعرف ما نوع الوشاية التي وصلت الخليفة. ولكن مفاجأة سعيدة كانت بانتظاره، فالمهدي كان في مزاج جيد، فسأله عن أفضل بيت قالته العرب في الفخر! لم يهدأ روعه تماماً فقد يكون استدراجاً، ولكن تتابع الأسئلة عن الشعر طمأنه أن ليس في الأمر مكيدة، فلما سأله في النهاية إن كان بحاجة لشيء؟ قال نعم إنه الدين قد ركبني. فيأمر له الخليفة بثلاثين ألف درهم.

إننا أمام مثقفين مفلسين وخلفاء يملكون الرقاب والأموال.

ولم تكن نهاية المثقف (الفضيل بن عمران) سعيدة على هذه الشاكلة فقد وشي به إلى المنصور أنه يعبث بغلامه جعفر، وكان الفضيل كاتب ابنه جعفر، والكاتب كان مثقف العصر يومها وقد أخذ من كل علم بطرف. أرسل المنصور اثنين من الزبانية وأوصاهما بحرص أن يقتلوه ولو تعلق بالغمام. ويتدخل شخص فيصف

الفضيل أنه (رجل عفيف دين) وأنه «أبرأ الناس مما رمي به وقد تعجلت يا أمير المؤمنين». فيرسل المنصور يعزز بثالث قائلاً له: لك عشرة آلاف درهم إن أنقذته فامض بخطابي بحقن دمه. ولكن الرسول يصل وقد سفح دمه ولم يجف دمه بعد. رجع الرسول مكسوفاً إلى الخليفة أن السيف سبق العذل. يلتفت المنصور إلى مولاه سويد قائلاً: ما تقول لأمير المؤمنين في قتل رجل عفيف دين مسلم بلا جرم ولا جناية؟ قال سويد: هو أمير المؤمنين يفعل ما يشاء وهو أعلم بما يصنع. يغضب المنصور ويقول أنا أسألك في الخاصة وأنت تجيبني في العامة. خذوه من رجله فألقوه في نهر دجلة.

إن إعادة النظر في تاريخنا لاكتشاف حقيقته من جديد ضرورة لإخراجه من خانة القدسية، وإعطائه حقنة تواضع أنه بشري مختلط بمظاهر الضعف والقصور وملطخ أحياناً بالدم، وأننا ما زلنا نرضع من الثقافة العباسية نفسها بفارق ألف سنة، وجراثيمها الأمراضية تضرب مفاصل ثقافتنا بألم.

وفي الوقت الذي كان المغني (إبراهيم الموصللي) يأخذ من الرشيد ٢٠٠ ألف دينار، ما يعادل ميزانية دولة في تلك الأيام، ويترك المنصور في خزائنه ١٤ مليون دينار و٦٠٠ مليون درهم يفرقها المهدي بين الناس سوى ما جبي في عصره، كان الشاعر أبو العتاهية يسجل منظراً مختلفاً لحياة الناس الغارقين في البؤس:

من مبلغ عني الإمام
نصائح متوالية
إني أرى الأسعار
أسعار الرعية غالية

وأرى المكاسب نزرة
وأرى الضرورة فاشية
وأرى غموم الدهر را
ئحة تمر وغادية
وأرى اليتامى والأرامل
في البيوت الخالية
يشكون مجهدة بأصوا
ت ضعاف عالية...

في هذا الجو لمع (ابن المقفع) وترك لنا أفضل كتبه «كليلة ودمنة» التي جمعها من ثقافات شتى وأضاف إليها من عنده، وصبها في قالب بديع من إشراق العبارة وعمق المعنى، وكان يوصف أنه إذا ازدحمت المعاني في صدره توقف عن الكتابة ليتقي أفضل الكلمات فيصبها في رشاقة هندسية كالبناء، كل كلمة لبنة تتماسك مع الأخرى.

ابن المقفع اشتهر بكتابه (كليلة ودمنة) ولم يشتهر بكتابه الآخر (رسالة الصحابة) ويجمعهما هدف واحد هو مسؤولية المثقف في نقد الأوضاع. إن الكتاب الثاني لا يقصد به صحابة رسول الله (ص) بل بطانة الحاكم، وقد قدمه إلى المنصور بكثير من المدح والحذر بطرح عليه خطة إصلاحية متكاملة أمام الفساد العام. وتدل الرسالة على عبقرية مبكرة، ناقش فيها أخطر أربع مسائل: المؤسسة العسكرية (الجند)، وفوضى القضاء، وفساد البطانة والإصلاح الزراعي (الخراج). واقترح لإصلاح الجيش ستة أمور: أن يتم تربيتهم ليس على الطاعة المطلقة بل المشروطة في طاعة الله فإن كانت معصية لله فلا طاعة للحاكم، ولا يعقل أن يقول أحد القواد

إنه لو أمرنا الخليفة أن نستدبر القبلة في الصلاة لقلنا سمعنا وأطعنا، فهنا لم تعد المؤسسة العسكرية إسلامية بحال. وطرح فكرة فصل الجند عن إدارة الشؤون المالية فسوف تشترى ذممهم، ولأن (ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة)، وأشار بمراعاة الكفاية في القيادة فتسلم على أساس الكفاءة وليس على أساس القبلية أو الولاء. ورأى تثقيف الجند فلا يكون الجندي في يد الخليفة بوقاً أو عصا. ونصح بدفع رواتبهم بدون تأخير. وأوصى بتفقد أحوالهم أكثر من الطاعة وأمرهم بقتل الناس.

كان كتاب (رسالة الصحابة) إنذاراً للمنصور بوجود أدمغة واعية في المجتمع مقلقة للنوم العام، ولكن الكتاب اللاحق (كليلة ودمنة) كان يتكلم بلغة الطيور وحيوانات الغابة ويحمل رسالة التوعية السياسية بعدما أصيب المجتمع بالعيّ والخرس. ثم جاءت القشة التي قصمت ظهر البعير، عندما ظن عم المنصور أنه وصل إلى شاطىء السلامة بكتاب الأمان الذي وضع صيغته القانونية ابن المقفع بأدبه الرائع، بأنه إذا أخلّ بشروط الأمان فقتل عمه تكون زوجاته طوالق وعبيده أحراراً وليس له بيعة في أعناق الناس. وظن ابن المقفع أن الحبر الكثيف والورق الجيد والعبارات المنتقاة بعناية ستكون حماية من الغدر فأخطأ ودفع حياته ومن كتب له ثمناً لذلك، في عصر يقوم على الغدر والقتل وما زال يلون سياستنا حتى اليوم. وإذا علمنا أن ابن المقفع قتل وهو دون الأربعين أدركنا عظم الفجيعة في حرمان الأمة من أدمغة ناضجة كان يمكن أن ترسم مصيراً مختلفاً للأمة. يربط الفيلسوف (برتراند راسل) بين قيام النهضة العقلية في أوروبا وحفنة من الأدمغة المتميزة، ويقول لو تم اغتيال أصحابها لما كانت نهضة. والمنصور وأمثاله قاموا بهذه المهمة على أحسن وجه.

١٢

محنة المثقف

ينقل حسين مروة في كتابه «تراثنا كيــــف نعرفه» محنة المثقف (عبد الحميد الكاتب) أنه حين فرّ مع مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية أن مروان قال له: «انج بنفسك يا عبد الحميد، فإنهم إن قتلوني خسرني أهلي وحدهم، وإن قتلوك خسرك العرب جميعاً».

كان على مروان أن يقول: سوف تخسرك الإنسانية، لأن خسارة المثقف كما جاء في الحديث مناحة تبكي فيها حيتان الماء وطيور السماء. وليس غريباً أن تذكر الآية أن الظالمين لا تبكي عليهم السماء ولا الأرض وما كانوا منظرين.

أما مصير الخليفة الأموي (مروان) فكان بالسيف في قرية بوصير في مصر، وأما المثقف (عبد الحميد) فاختفى لفترة عند ابن المقفع ولكن عيون الجواسيس العباسية كانت خلفه ففاجأت الرجلين في بيت ابن

المقفع وهتف الجند: أيكم عبد الحميد فليتقدم؟ فوجيء الجند أن الاثنين قفزا معاً كل يقول عن نفسه إنه عبد الحميد! أما ابن المقفع فكان يريد أن يفدي ضيفه بنفسه، وأما الكاتب عبد الحميد فخشي أن يفرط في صاحبه ويسارع إليه الزبانية. تقدم عبد الحميد لرجال السلطة فقال: «ترفقوا بنا فإنا كلاً منا له علامات، فوكلوا بنا بعضكم ويمضي البعض الآخر ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم» ففعلوا وأخذوا عبد الحميد.

وفي كتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان يذكر نهاية المثقف عبد الحميد، وأن أبا العباس السفاح الخليفة العباسي دفعه إلى صاحب شرطته «فكان يحمّي له طستاً بالنار ويضعه على رأسه حتى مات» ويصفه ابن خلكان أنه: «يضرب به المثل في البلاغة حتى قيل فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد. وكان في الكتابة وفي كل فن من العلم والأدب إماماً».

أما مصير ابن المقفع فتأخر بعض الشيء ولكنه قتل بأشنع من الكاتب عبد الحميد. يقول ابن خلكان: «إنه لما ألقى عليه القبض والي البصرة قال له: أنشدك الله أيها الأمير في نفسي. فقال: أمي مغتلمة إن لم أقتلك قتلة لم يقتل بها أحد، وأمر بتنور فسجر، ثم أمر بابن المقفع فقطعت أطرافه عضواً عضواً، وهو يلقيها في التنور، وهو ينظر، حتى أتى على جميع جسده، ثم أطبق عليه التنور، وقال ليس عليّ في المثلة بك حرج لأنك زنديق وقد أفسدت الناس».

يقول بعض الصيادين إن الأفعى عندما تقترب من فريستها تصاب بالرعب فلا تتحرك فتبتلعها لقمة سائغة. وأعرف من غابات ألمانيا أن الغزال يصاب بصدمة الضوء ليلاً فلا يبرح، وحتى لا يعمل السائق

الحادث عليه أن يطفيء النور فيفر الغزال. وأمام شحنة رعب من هذا النوع الذي تنقله قصص التاريخ، أو ما نراه أحياناً في المنطقة العربية يصلح تفسيراً لحالة الخرس المطبق للمجتمع، فالإنسان يتلقى الجرعة القصوى من الرعب أسلمته إلى حالة الرهاب المرضية، وقتلت المعارضة اجتثاثاً.

راهن عبد الله بن المقفع على التغيير العقلي فحاول القيام بمسؤولية المثقف في التوعية، وحاول في (رسالة الصحابة) أن يتناول أهم أربع نقاط في الإصلاح الاجتماعي. كانت الأولى في إصلاح المؤسسة العسكرية، وناقش في الثانية مسألة القضاء أن يرجع فيها إلى المصلحة العامة والعدل وعدم مراعاة القياس الشكلي فمتى «رؤيت العدالة في غير القياس يجب أن نضحي بالقياس». ويأتي ابن المقفع بمثال على ذلك أنك لو سألت أحدهم أتأمرني أن أصدق فلا أكذب كذبة واحدة أبداً لكان جوابهم نعم، ولكن ماذا تقولون لو أن رجلاً هارباً من قبضة ظالم وسألني عن مكانه وأنا أعرف مخبأه هل أدل عليه وألتزم الصدق؟ ليصل في النهاية باقتراح ما يشبه فكرة الهيئة التشريعية لتقنين القوانين وتعميمها في الدولة. ويقرر أحمد أمين في كتابه (ضحى الإسلام) أنه «رأي له قيمته ووجاهته وهو يتفق في كثير من نواحيه والآراء الحديثة في التشريع، ولو عمل به المسلمون لكان له أثر كبير في الحالة الاجتماعية». ولم تذهب دعوة ابن المقفع سدى فلعل كتاب (الخراج) الذي وضعه الإمام الحنفي (أبو يوسف) لاحقاً لتنظيم أوضاع الأراضي كان من وحي فكرة ابن المقفع، بفارق أن ابن المقفع كان ينطلق من تحليل عقلاني بحت.

وأما الفكرة الثالثة التي عالجها فكانت شريحة (البطانة) وأهمية انتقاء هذه النخبة، وهي ما عناها بعنوان الكتاب، فكلمة (الصحابة) قصد

بها الحاشية التي تحيط بالحاكم وتدفعه إلى اتخاذ القرارات الخطيرة، فيقرر بكل أسف أن «الخليفة يقرب أوغاد الناس وسفلتهم فهرب الخيار من التقرب للولاة»، ويروي أن من أتى إلى دار الخلافة أيام السفاح أبوا أن يزوروا الخليفة لما يعلمون من بطانته وسوء سيرتهم. وذكر أنه «ما رأينا من أعجوبة قط أعجب من هذه الصحابة ممن لا ينتهي إلى أدب ذي نباهة، ولا حسب معروف، ثم هو مسخوط الرأي مشهور بالفجور» ليصل إلى نصح الخليفة أن لا يقرب إليه إلا «رجلاً أتى بمكرمة عظيمة أو رجلاً له من الشرف وجودة الرأي والعمل ما يؤهله، أو رجلاً فقيهاً مصلحاً ينتفع الناس بفقهه» ويقرر في عمل هذه النخبة، أنه «يجب أن يعين لكل منهم اختصاص في عمل لا يتعداه» ما يسمى بالتكنوقراط في أيامنا.

ويذكرنا هذا الكلام بما وصف عبد الرحمن الكواكبي في كتابه (طبائع الاستبداد) طبقة الحاشية هذه أن تكون: «النسبة بينهم في المراتب بالطريقة المعكوسة، وهي أن يكون أسفلهم طباعاً أعلاهم وظيفة وقرباً».

ويصل ابن المقفع في البند الرابع من رسالته إلى فكرة الإصلاح الزراعي (الخراج) أن تمسح بشكل جيد مع التدوين الدقيق والضريبة المناسبة، ولكنه اعترف أنها مسألة ليست بالسهلة أمام خيانة مستفحلة.

يبدو أن (رسالة الصحابة) لابن المقفع لم ترو غليله فاستعان بأدوات الأدب لينتج معجزة أدبية رائعة تصلح فكرة في أفلام الكرتون التي نراها عند الأطفال اليوم، فإذا لم ينطق الناس فلتنطق الحيوانات، وإذا أصاب البشر الخرس فلا بأس من إرسال الأفكار على لسان القرد

والفيلم والببر والجرذ والسنور، وهكذا بدأ كتابة كليلة ودمنة، وذكر في مقدمتها أهدافاً أربعة: أن يسارع إلى قراءته أهل الهزل من الشبان، وإظهار خيالات الحيوانات بصنوف الأصباغ والألوان ليكون أنساً لقلوب الملوك، والثالث أن يكثر استنساخه فلا يبطل أو يخلق على مرور الأيام، أما الغرض الرابع فقد أخفاه واحتفظ به لنفسه تحت عبارة غامضة: «والغرض الرابع وهو الأقصى وذلك مخصوص بالفيلسوف». ويعقب أحمد أمين على هذا الغرض الخطير: «والظاهر أن هذا الغرض يمكن تلخيصه في أنه النصح للخلفاء حتى لا يحيدوا عن طريق الصواب، وتفتيح أعين الرعية حتى يعرفوا الظلم من العدل، فيطالبوا بتحقيق العدل. ولم يوضحه لأن في إيضاحه خطراً عليه من المنصور ولعل هذه النزعة كانت من الأسباب في الإيعاز بقتله». يبدو أن كتاب كليلة ودمنة قتل صاحبه ولم يشفع لصاحبه نبل أخلاقه ولا سعة علمه ولا أنه من ألمع الشخصيات في الأدب العربي. شعر الخليفة المنصور أن شخصيات من هذا النوع غير مرحب بها، فهو يريد عبيداً وليس مفكرين أحراراً. يريد أدوات للاستخدام وليس إرادات لقيادة جماعية. يصف من عاصر ابن المقفع مثل محمد بن سلام فيقول: «سمعت مشايخنا يقولون: لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع». ويصفه الجاحظ: «كان جواداً فارساً جميلاً» ويعجب الناس بأدبه فيسألونه من أدبك؟ فيقول: «نفسي. إذا رأيت من غيري حسناً أتيته وإن رأيت قبيحاً أبيته». كتاب كليلة ودمنة كان رسالة من ابن المقفع للمنصور فتسلمها بأمانة ورد عليها، فأوعز إلى أحد أدواته المدعو (سفيان بن معاوية) وهو يعلم حقده عليه فيلقي عليه القبض قائلاً: «يا ابن الزنديقة لأدخلنك نار الدنيا قبل الآخرة» وهو يعلم أن تهمة الزندقة ليس فيها استتابة، وهي تهمة لا يخرج منها صاحبها

إلا مع خروج الروح. إن الأمة خسرت الكثير من هذه الكنوز في جو الاستبداد، فالمقفع قتل وعمره ٣٦ سنة شأن العباقرة، ولكنه ترك بصمات عمله على كل الأدب العالمي. ونكاد ننسى اليوم أنه قتل من أجل أفكاره ومن قتله. أما ابن المقفع فيلتمع كمثل كوكب دري في السماء إضاءةً.

يذكر مكيافيلي صاحب كتاب (الأمير) عن الفرق بين الدولة العثمانية والدولة الفرنسية، أن الأولى صعب قهرها سهل الاحتفاظ فيها بعد كسرها، أما الدولة الفرنسية فسهل كسرها في البداية صعب الاحتفاظ فيها بعد ذلك. ويكشف السر عن ذلك عن طبيعة الحاكم والأمة والعلاقة بينهما: أن الأمة التركية غنم على رأسه راع منفرد فإذا قتلت الراعي وضعت يدك على غنم لا تملك حولاً ولا طولاً، أما الأمة الفرنسية فهي مجموعة رعيان متشاكسين على رأسهم أحد الرعاة، فإذا تغلبت على راعٍ وقعت في مصيدة رعيان بأيديهم عصي كثيرة.

١٣

لماذا اخترت اللاعنف؟ (١)

أعتبر نفسي أنني ولدت مرتين، الأولى بيولوجية والثانية فكرية. فأنا ولدت من رحم أمي بيولوجياً عام ١٩٤٥م، ولكن اكتشافي لعالم اللاعنف تأخر ثلاثين سنة!

الإنسان لا يحتاج أكثر من ساعات لاختراق حدود الجغرافيا ولكن كسر حاجز اللغة يتطلب أعواماً. أما اختراق فضاء الثقافة وهضمها والتحول منها وإليها فيتطلب عقوداً، ولكن القفز فوق حاجز العنف لدخول عالم السلام فتحدّه عقبات يشكل كل منها سداً منيعاً وخنادق سيكولوجية تطبق على العقل بمسلمات يصعب الفكاك من قبضتها.

البعض يرى في مفهوم اللاعنف أنه تعطيل لمفهوم الجهاد في الإسلام بينما الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة؟ وفريق ثان يرى أنه استسلام ذليل

وتطويع الإرادة لصالح الخصم، وفريق ثالث يرى فيه نوعاً من التنظير والتقعيد الفلسفي لنغمة السلام العربي ـ الإسرائيلي هذه الأيام؛ فهي موضة للاستهلاك المؤقت.

في الواقع نحن نخطىء ثلاث مرات لأننا لا نحسن فهم وظيفة وآلية الجهاد، فالجهاد بمعنى القتال المسلح له آلية عمل وشروط تحقق، إنها أداة العنف تحتكرها دولة راشدية وصلت إلى الحكم برضا الناس تسخرها لمنع الظلم عن الإنسان أينما كان ومهما دان؛ فهي دعوة لإقامة حلف عالمي لإنصاف المظلومين ولو كانوا وثنيين ضد حكام مسلمين ظالمين. من المهم إذاً أن نعرف أنها ليست وظيفة فرد يطلق الرصاص على حاكم يرى أنه لا يقيم حكم الله، وهي الدعوة التي تسلح بها الخوارج فقتلوا أعدل من على ظهرها: الإمام علي كرم الله وجهه؟ كما أنها ليست وظيفة حزب أو جماعة أو طائفة ترى أنها وسيلة لإقامة حكم الله في الأرض؛ فهذه المصيدة المشؤومة من الغرام بالسلطة وصفها رسول الله (ص) لأبي ذر الغفاري في كلمات مختصرة: إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة.

ونحن لا ندرك السيكولوجية العميقة لتحرير الإنسان من علاقات القوة بتبني اللاعنف، وفي تقديري أن القصور العربي هو الذي مهَّد لبزوغ نجمة داود، وأن السلام العربي ـ العربي أهم من السلام العربي ـ الإسرائيلي، وفي حرب الخليج الأخيرة نسينا إسرائيل، ولو خسف الله الأرض بإسرائيل لبقي المرض العربي الداخلي، ووجود الخرّاج الصهيوني يمثل اختلاطاً للمرض العربي الأساسي مع الأخذ بعين الاعتبار العلاقة الجدلية بين المرض والاختلاط، فهذه فكرة تأسيسية.
بالأصل ولدت في مدينة عجيبة هي القامشلي، تزدحم بأخلاط

شتى تشكل فسيفساء ساحرة من الأديان والأعراق واللغات واللهجات. وتعلمت من المؤرخ البريطاني توينبي أن هناك بقايا فرقة مسيحية هي النسطورية ما زال أتباعها في الزاوية الشرقية من سوريا وهم ما كنا نعرفهم بالكلدان، وهكذا نشأت في بيئة ترطن بالعديد من اللغات ما بين عربي وكردي وأرمني وآشوري وسرياني وتركي وشيشاني، أعيش بين جيران من ست فرق مسيحية على الأقل من كاثوليك وبروتستانت وكلدان وأرمن وأرثوذكس وآشوريين، كما أن جدي كان يسكن في حي اليهود؟ وعائلتي التي نشأت فيها نعيش في بقعة جغرافية تتصل بالعراق وتركيا فليس بيننا ونصيبين، أقرب مدينة تركية، أكثر من فاصل كيلومتر واحد. وأريد أن أعترف أن هذه التعددية الرائعة كانت بكل أسف شرانق وصدفاً حلزونية مغلقة على نفسها فلا يحاور أحد الآخر ويعتبر من مواضيع (التابو) التطرق إلى مناقشة المسائل المذهبية أو الدينية مما يحمل في تضاعيفها خطراً كمونياً للمستقبل، فالتعددية رحمة إن انفتحت على بعضها وتحاورت وهي نقمة إن انزوت وتقوقعت. كانت في الواقع طوائف تنتسب للماضي أكثر من اتصالها بالمستقبل من خلال تراكمات ثقافية حملنا أوزارها من آباء خلفوها لنا.

كنا نشعر بصراع التيارات الفكرية ومحاولة إلقاء الشباك على الطلبة لبناء حلقات من الدراويش الذين يفكر عنهم غيرهم بالنيابة أكثر من بناء العقل النقدي. كان البحث ملحاحاً على صيد الأتباع. كان هذا ديدن وخطة وحماسة كل الاتجاهات من إسلامية وعلمانية وقومية وشيوعية.

كنا شباباً صغاراً لا نلمح تجليات العنف الخطيرة وجو التعصب والكراهيات المتبادلة، وكانت المساجلات الفكرية تحمل شكلاً ثلاثياً

من التبرير والتفنيد المضاد والدفاع حتى الرمق الأخير في خندق فكري لا خروج منه. كل الحقيقة يملكها طرف واحد ولا يملك الآخر إلا الضلال المبين. المتدين يرى القومي ملحداً زنديقاً، والقومي يرى المتدين رجعياً، والشيوعي يضحك على الاثنين لأنه يملك (النظرية النهائية) لفهم قوانين التاريخ، وكل في فلك واحد من الثقافة يسبحون.

في جو من هذا النوع يبقى الحظ هو الذي يقرر مصير الأفراد في أي شبكة يتم اصطيادهم، وبطن أي حوت يلجون، فإما أن يكون من قوم يونس فينجون؛ أو يبقى أحدهم في بطنها إلى يوم يبعثون.

يقول الغزالي عن نفسه في كتابه (المنقذ من الضلال) إنه منذ نعومة أظفاره كان يغلي في صدره التعطش إلى إدراك الحقائق، فكان يطّلع على كل شيء ليرى سبب إصرار الملحد وتعنت الفاسق وتبحّر الفيلسوف وشطحات الباطني، ونذر نفسه كرادار ماسح لكشف المدارس الفكرية في عصره بين فرق المتكلمين والفلاسفة وطوائف الباطنية والمتصوفة.

أتذكر نفسي وعشقي للمعرفة العلمية وغرامي بالاطلاع المنوع الذي ما زال لا يعرف الارتواء. فقد قرأت كمّاً خيالياً من الكتب والروايات والقصص، وكانت صلاتي خلف الإمام محرضاً لي للاطلاع على القرآن فشدتني بلاغته وعميق أسراره وحكمته البالغة فبدأت أحفظ منه، ولم يكن مشروعاً إتمام حفظه ولكن جاذبيته كانت أقوى فأتممت دراسته وحفظه في ثماني سنوات مباركات، ثم أضفت إلى ذلك دراسة الشريعة بجانب دراسة الطب كي أسبر في ضربة واحدة أوقيانوس الحداثة وأركيولوجيا التراث. وهكذا أخذ

الإيمان بقاعدته الأخلاقية يعطيني معنى للحياة، ومن هذا المزيج من تعانق العلم والإيمان كتبتُ معظم ما كتبتُ حتى اليوم، ولعل أهمه كتابي الذي حمل عنوان (سيكولوجية العنف واستراتيجية العمل السلمي). وقبل انفجار العنف في سوريا تقدمت بكتابي عن (ضرورة النقد الذاتي للحركات الإسلامية) في محاولة تدارك الوقائع بتعميم لقاح ضد تشنجات العنف ونوبات الجنون فيه، ولكن يبدو أن الأمم لا تتعلم إلا كما يقول القرآن ﴿لما يذوقوا العذاب الأليم﴾ [ص: ٨].

في نهاية المرحلة الثانوية قبل ما يزيد على ٣٥ سنة كنت قد اطلعت على ألوان منوعة من الفكر، واستهواني الفكر الذي كان شائعاً آنذاك ويحاول تأسيس فكر إسلامي معاصر ودخول الحداثة بدون أن يدخله. ولكنني اكتشفت أنه يفرض ثالوثاً مقدساً من الإكراهات: اعتبار الديموقراطية هرطقة، والانفتاح على الثقافة العالمية خطراً على العقيدة، بالإضافة إلى الإيمان بسرية العمل، وعدم الوضوح في نقطة العنف، وهذه النقطة الأخيرة في تقديري لم تحلّ عقدتها حتى الآن في الفكر الإسلامي المعاصر في معظم شرائحه وتحمل تهديداً كمونياً للانفجار في المستقبل، ما أعتبره شخصياً خطأً كروموسومياً في تكوين جماعات العمل الإسلامي السياسي في إحياءٍ نشط لفكر الخوارج، وهكذا فالخوارج ينامون مستريحة عظامهم في القبور فقد تم إحياء مذهبهم من جديد بدون عنوانه؟ نحن أمام عمل سري يقوده (إمام مستور) في تنظيم مجهول القيادة، لسبب بسيط هو التعانق المشؤوم والزواج اللاشرعي بين السرية والعنف، فطالما كان الهدف الحكم وليس (تغيير ما بالنفوس) حسب الوصفة القرآنية، وطالما كان السيف أصدق أنباء من الكتب فإن الباب مفتوح على مصراعيه لكل الكوارث. لم يكن أمامي إذاً إلا توديع هذا النمط من

الثقافة الانغلاقية التي هي أقرب للعنصرية بأننا أبناء الله وأحباؤه والانزواء عن الاستفادة من الفكر العالمي وكل العطاء الثقافي المعاصر تحت إشارة استفهام أثقل من جبل؟

وهنا آتي إلى النقلة النوعية التي سميتها (الولادة الجديدة)، وكانت من مصدرين: الأول داعية اللاعنف (جودت سعيد)، والثاني بلقائي ولمدة شهر كامل بالمفكر الجزائري (مالك بن نبي) عام ١٩٧١م الذي أكرمنا بزيارته إلى دمشق قبل وفاته.

إن الدخول إلى عالم اللاعنف لا يعني حكماً فقهياً أو كتاباً للاطلاع البارد؛ بل هو في الحقيقة انقلاب كامل في الشخصية، ودخول جغرافيا من نوع مختلف المناخ، أو الهبوط على ظهر كوكب تنقلب فيه محاور الزمن والجاذبية.

١٤

لماذا اخترت اللاعنف؟ (٢)

ماذا يعني الدخول إلى عالم «اللاعنف»؟

لا يعني الدخول إلى عالم (اللاعنف) حكماً فقهياً أو كتاباً للاطلاع البارد، بل هو في الحقيقة انقلاب كامل في أبعاد الشخصية، ودخول جغرافيا من نوع مختلف المناخ، أو الهبوط على ظهر كوكب تنقلب فيه محاور الزمن والجاذبية.

والفترة القصيرة، قبل مغادرتي الوطن للتخصص في ألمانيا، كانت انقلابية وحاسمة بفعل القاعدة الفكرية الجديدة التي صعدت فوقها من أجل الانفتاح على الثقافة الكونية ومدارس الفكر المتعددة؛ فذهبت للتعرف إلى روح الحضارة الغربية خارج إطار (المقابر) و(المزابل) على حد مصطلحات ابن نبي، عندما يرجع أبناؤنا من الغرب في صورتين لا تحلان المشكلة الحضارية: إما مهنيون غرقوا في نفق الاختصاص بما هو أشد من شفط ثقب أسود، أو منحلون

فقدوا الصلة بروح الأمة، ولم ينتبهوا إلى أسرار الفعالية وأسرار التفوق الخفية عندهم، بأكثر من جو المخامر والبارات.

يرى مالك بن نبي أن الحضارة هي (توليفة) بين الإنسان والتراب والوقت كمعادلة تركيب تفعلها (شرارة الروح) كما تفعل الكهرباء في دمج الهيدروجين والأوكسجين لولادة ذرة الماء على شكل نوعي مختلف عن الغازات التي انطلقت منها، ويمثل الدين أو أي فكر نوعي انقلابي شرارة اجتماعية من هذا النوع. من جهة أخرى يعتبر (الإنسان) كائناً اجتماعياً يصنّعه المجتمع على مستويين، فهو أولاً، يجعله بشراً سوياً ينطق ويحسن التصرف ويندمج في السلوك العام، وتتباين المجتمعات، ثانياً، في إنتاج إنسان فعّال يعرف قيمة الوقت والنظام والجمال من إنسان (كل كسول) يلوّح بسبحته، يدخن سيجاراً بدون استئذان من حوله، ينتظر السماء أن تغير أوضاعه، ويرى ابن نبي، ثالثاً، أن الحضارة هي مجتمع الضمانات في مستويين، أولاً، تأمين الجنة الفيزيولوجية الخماسية من شراب وطعام ومسكن ولباس وجنس، ومجتمع يأمن فيه الإنسان على نفسه أو بتعبير القرآن: أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

ويرى ابن نبي أن المجتمع العربي خرج عن (سكة) الحضارة منذ ابن خلدون فلا ضمانات فيزيولوجية أو اجتماعية، والإنسان جاهل وجائع وخائف. وفي النقطة الأخيرة أحب أن أشير إلى ثلاث كوارث رسمت قدر الأمة العربية والإسلامية تاريخياً: أولها مصادرة البيت الأموي الحياة الراشدية لندخل مرحلة الدولة البيزنطية ونُحكم بالسيف الأموي ونؤلّه القوة وتختفي آلية نقل السلطة السلمي. والكارثة الثانية بتأميم العقل ومصادرته، حيث اختفى التيار العقلاني، وطحنت المعتزلة، وتم إغلاق باب الاجتهاد، وحبس ابن

رشد حتى الموت لتستفيد منه لاحقاً مدرسة «بادوا» في إيطاليا في إطلاق أول أشعة التنوير العقلاني في أوروبا.

وثالثة الأثافي ما عبّر عنه ابن خلدون مع مطلع القرن الخامس عشر للميلاد، عندما بدأت بوصلة العالم تغير إحداثياتها إلى أقطاب مغناطيسية غربية فقال: «وكأن لسان الكون نادى بالخمول فبادر بالاستجابة والله وارث الأرض وما عليها». ففي عام ١٤٩٢م حصلت لنا كارثتان في منظر متناقض: بين سقوط غرناطة، وطرد آخر وجود عربي في شبه الجزيرة الإيبرية، ورسو مراكب كولومبوس على الأرض الجديدة.

مع ازدياد الضغط العسكري العثماني على أوروبا لم يبق إلا أن تلتجيء وظهرها إلى محيط الظلمات خلف أعمدة هرقل، فقامت بتطويق الفريسة الإسلامية على حد تعبير توينبي بثلاثة محاور: الأول روسي شمالي، والثاني مشرقي برتغالي يطوق كل السواحل حتى اليابان، وثالثها قاصمة الظهر في رحلة إلى الغرب للوصول إلى الشرق يقودها متعصب اسمه كريستوبال كولون لا يعرف حتى موته أنه اكتشف أميركا ولا يسميها هو. ومع امتلاك البحار والمضائق المائية ووضع اليد على أربع قارات بما هو أكبر من سطح القمر وآلاف الجزر الغنية والثروة العالمية، ومعها وضع الغرب في جيبه ثمانية قروش من كل ٩,٥ قروش، لم تعد الحملات الصليبية مفلسة يقودها ملوك أوروبيون أميون من نموذج ريتشارد قلب الأسد، يحرقون الكتب والقطط والساحرات في الساحات العامة، ويعالجون السعال الديكي بلبن الحمير على حد تعبير النيهوم، بل بنوا لأنفسهم بيتاً على ظهر القمر وترسو «الباثفايندر» على سطح المريخ يندلق من جوفها عربة (السوجرنير) الأنيقة تعاين سطح كوكب إله الحرب

(مارس) بأعين ثلاثية الأبعاد وتشم أكاسيد الحديد لتقول: لا المسّ مسّ أرنب ولا الريح ريح زرنب؟!

وهكذا تمّ عبور المحيطات بسفن وخرائط عربية واحتل الإسبان العالم الجديد بالحصان العربي، وكتبت الحضارة بالدم من الشمال إلى اليمين.. وتلك الأيام نداولها بين الناس.

كانت رحلتي إلى ألمانيا صخرية منهكة ولكنها ممتعة، فألمانيا بلد لا يخلو من العنصرية ولكنها أرض حاملي جوائز نوبل، وهي مستنقع الإباحية تمتد من فلينسبورغ حتى الغابة السوداء ولكنها صيدلية العالم، هي مكان ولادة فلسفة هيغل بقوانين الجدل الثلاثية وموطن الموسيقيين الكبار من نموذج بيتهوفن وموزار.

حاولت أن أفهم ألمانيا من ملاحظاتي المكثفة وتمتين لغتي لشق الطريق إلى الثقافة الجرمانية، وهي تتطلب استنفاراً غير عادي في جو طبي جراحي أبعد ما يكون عن الثقافة في مناوبات مع العمليات طوال الليل، فهي دماء حتى مطلع الفجر.

وهناك تألمت لأمرين: الحرب الأهلية اللبنانية، ثم حوادث العنف التي انفجرت عندنا في سوريا، وكنت أرى سحبها القاتمة عبر الأفق أنها قادمة لا يجليها لوقتها إلا هو، لسبب بسيط كما يقول عالم النفس السلوكي سكينر في كتابه (تكنولوجيا السلوك الإنساني): «الحروب هي برمجة الرؤوس قبل استخدام الفؤوس»...

عندما دخلت ألمانيا كنت قد وصلت لدرجة البلورة في مشكلة الثالوث المشؤوم (التنظيم ـ السرية ـ العنف) وكنت قد وضحت

هذا في كتاباتي عام ١٩٧٣م ثم جاء كتابي في النقد الذاتي (ضرورة النقد الذاتي للحركات الإسلامية) أحذر من وباء العنف.

ولكن كيف وصلت إلى هذه القناعة وعلى أي نحو تبلورت؟ فهذه فكرة من المهم إلقاء الضوء عليها وأرجو أن يعتبر كلامي هذا نوعاً من (اللقاح) الواجب تعميمه وهو الذي قلته في محطة (إقرأ) الفضائية عندما طلب مني الإدلاء برأيي في مشكلة العنف الجزائري، في رسالة موجهة للمؤسسات الإسلامية مثل الأزهر وسواه، وإلى كل المفكرين والمربين والمعنيين بالعمل الإسلامي والحركات الإسلامية، كما كتبت بحثاً هاماً في العنف الجزائري نشرته مجلة (العربي) العام ١٩٩٨م عدد آب/أغسطس. وهذا الكلام أوجهه للمسؤولين في كل قطر عربي كي يدركوا خطورة هذه القضية، وأن هناك فرقاً كبيراً بين ضبط الأوضاع (الأمنية) وبين حل المشكلة؛ فالمريض الذي ترتفع حرارته بسبب جراثيم حمى التيفية قد تستطيع إنزال حرارته بالأسبرين ولكن المرض قد ينفجر بشكل اختلاط مروع لاحقاً: إما صورة انثقاب معوي أو ما هو أدهى وأمرّ: بالتهاب العضلة القلبية؟!

أقول إن ثقافتنا ما زالت تعمل فيها جراثيم العنف بكل ضراوة، وما لم ننزل إلى الحوض الثقافي لتغيير الخرائط الذهنية في معالجة المشاكل فإننا مقبلون على كوارث؟؟ وإنني أرى وميض الجمر من كومة الرماد، والتاريخ يقصّ علينا ما فيه مزدجر، ومأساة البلقان وأفغانستان والصومال والجزائر فيها من العظة ما يكفي لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

العنف يحمل حزمة من الأمراض اللعينة، فهو أولاً لا يحل المشكلات بل يولدها ويزيدها تعقيداً في حلقة شيطانية مفرغة

معكوسة تزداد اتساعاً وضراوة. والعنف لا يحرر الإنسان بل يأسره لعبودية القوة. والعنف ثالثاً، يعتمد الجهاز العضلي ويلغي الجهاز العصبي العقلي، وبالعنف لا يمكن بناء أي ديموقراطية، وقد وصل إلى نفق مسدود ويودعه العالم اليوم كأسلوب فاشل، بينما اللاعنف هو أسلوب الأنبياء في صناعة المجتمع؛ فهذه ستة أفكار تأسيسية مفصلية.

ألقت الأجهزة الأمنية في يوم القبض على بدوي بتهمة اشتراكه في تنظيم سري، فبدأ المحقق يسأله: ما هو تنظيمك؟ من نظمت؟ ما هي أسماء خليتك الحزبية؟.. فأجاب بعفوية: «يا طويل العمر لا بالله نحن نبغي نزيحكم ونقعد محلكم؟؟!!».

إن كثيرين ما زالوا يتلمظون للتغيير بطريقة الأعرابي، والقرآن يرى ببساطة أن مفتاح التغيير ليس بتغيير الحاكم أو السلطة بل بتغيير ما بالنفوس ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١١]، وهذا أمر يتطلب المزيد من التوضيح.

١٥

لماذا اخترت اللاعنف؟ (٣)

العنف يلغي الآخر واللاعنف يحافظ على الطرفين

العنف يحمل حزمة من الأمراض المفزعة، فهو أولاً لا يحل المشكلات بل يولِّدها ويزيدها تعقيداً في حلقة شيطانية مفرغة معكوسة تزداد اتساعاً وضراوةً، والعنف لا يحرر الإنسان بل يأسره لعبودية القوة، والعنف ثالثاً يعتمد الجهاز العضلي ويلغي الجهاز العصبي العقلي، وبالعنف لا يمكن بناء أي ديموقراطية، وقد وصل إلى نفق مسدود ويودعه العالم اليوم كأسلوب فاشل، واللاعنف هو أسلوب الأنبياء في صناعة المجتمع؛ فهذه ستة أفكار تأسيسية مفصلية.

يطرح القرآن فلسفة متفردة تشق الطريق إلى نظرية كوبرنيكوس اجتماعية، فالظلم الذي يقع على الإنسان هو بالدرجة الأولى بما (كسبت يداه) فلا الله يظلم الناس ولا أحد يظلمهم ولا الشيطان

له عليهم سلطان بل هم أنفسهم تظلمون، وهذا يقود إلى مفتاح اجتماعي أكثر أهمية: أن عبادة الحكام وتأليههم هي من صناعة الشعوب وخرس المثقفين أكثر من سحر سدنة معبد الحاكم فعند صنمه البخور يحرقون؟

إذا كان كوبرنيكوس قد وصل إلى قلب مفهوم دوران الشمس والأرض بمفهوم معكوس فإن فكرة جدلية (الأمة والسلطان) من هذا النوع، بأن الأمة شمس والحاكم كوكب، أكثر من تحررية توجه الجهد إلى الحراثة في الحقل الخصب بتغيير نظام الفكر، والتخلص من أسر فكرة الحكم والسياسة، ليس لأن هذا أريح ـ وهو أربح على كل حال من مناطحة الجدران والتصدي لخرقة مصارع الثيران ـ ولكن كل الخطر وبعثرة الجهد هو الدوران في كهوف مظلمة حول مفتاح يرى كل الحل بالوصفة السحرية بتغيير الحاكم أو السلطة، وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

ويعطينا التاريخ شواهد فاقعة على هذا المنطق الأحمق غير المجدي الذي سقطت الأمة في قاع بئره، في قصة يوسف جديدة، بدون سيارة تنقذه وبدون أمل في النجاة حتى جاء الحل من خلف أعمدة هرقل من بحر الظلمات؟! فعندما استأصل العباسيون الأمويين لم يتركوا على ظهرها أموياً بمن فيهم الرضع، ونبشوا قبور الخلفاء وهي رميم فجلدوهم، وفرشوا السجاد على جثث المحتضرين وهم يأكلون ويطربون. لم يتقدموا بحل المشكلة إلا بإلغاء كل الحلول؟ ولم يخرج من بينهم عمر بن عبد العزيز؛ بل خلفاء سمل العسكريون الأتراك عيونهم وتركوهم يموتون في حر الشمس، ليختم فصل مسرحيتهم بأفظع منظر عندما يخرج خليفة سمين حاسر الرأس يقابل جزّاراً من حجم هولاكو يناشده الله في الحريم، وينهي حياته

في كيس مربوط ترفسه أقدام المغول حتى الموت، وتدك بغداد إلى الأرض السابعة في ظل رعب مغولي لا يزال يرجّ في مفاصلنا التاريخية. وعندما فتح السلطان العثماني القسطنطينية كان يدشن أعجب أمرين وأحفلهما بالخطأ: فقتل أخاه الرضيع بفتوى دينية من شيخ الإسلام وبآية من القرآن وكانت عرفاً يجري؛ إذ قتل مراد الخامس خمسة من إخوته دفعة واحدة مع تولّيه السلطة؟ وكان أول ما يفعله الخليفة أن يقتل جميع إخوته حتى لا تكون (فتنة) و﴿الفتنة أشد من القتل﴾ [البقرة: ١٩١] فيجب أن يستشري القتل في العائلة المالكة قبل الأمة؟! في فهم منكوس ممسوخ لكلمة الله في السبع المثاني من القرآن العظيم. والخطأ الآخر بتحويل كنيسة (أياصوفيا) إلى مسجد متنكراً لعمل ابن الخطاب الذي رفض الصلاة في كنيسة القيامة حتى لا تكون مبرراً لتحويلها إلى مسجد.

يعتمد العنف من الناحية السيكولوجية كسر الآخر وإلغاءه، وطحن إرادة الخصم لتبقى في نهاية الصراع إرادة واحدة في الميدان، بينما اللاعنف يحافظ على الطرفين ليخرجا بإرادة واحدة مشتركة.

يولد العنف ويستنبت من حوض (الكراهية) كشجرة خبيثة اجتُثت من فوق الأرض ما لها من قرار، مهما علت فروعها في السماء؛ بسبب ضعف الجذور، لتسقط في النهاية تحت ثقلها الخاص بعطالة ذاتية.

جذور العنف الكراهية وثمرتها الخوف والجريمة. وفي مذبحة مدرسة (ليتلتون) في ولاية كولورادو الأميركية عُرف عن الشاب الذي قتل ١١ من زملائه واثنين من المدرّسين أنه كان يكره الناس، وعندما فجّر رأس الزنجي بالطلقة فاندلق الدماغ ضحك مع رفيقه ساخراً معلقاً: ولكنه يحمل دماغاً أبيض!.

لنحلل المشكلة أكثر: هل إذا حطمنا الآخر ـ والحرب تعتبر التجلي الأعظم لظاهرة العنف ـ هل نحن المشكلة أو نتقدم باتجاه الحل؟

في الواقع أن الغالب والمغلوب يخرجان في نهاية المعركة باختلال نفسي مرضي غير سوي يتطلب آليات موازنة جديدة بفعل قوانين طبيعية بحتة.

يخرج الغالب بشعورين: متعة (جنكيزخان) العظمى المريضة بالتحطيم الأعظم للخصم، مع الخوف من انتقام المهزوم جنباً إلى جنب، فعندما سأل (جنكيزخان) أحد أدوات إجرامه المدعو (بو أورشو) كما جاء في كتاب (رينيه غروسيه) عن قاهر العالم: ما هي أعظم فرحة ينعم بها الإنسان في حياته؟ أجاب: أن تذهب للصيد في يوم ربيع يعلو معصمك باز معلّم وأنت ممتطٍ ظهر جواد مطهّم والطريدة تسقط أمامك!! أجاب الجبار جنكيزخان: «كلا يا صديقي بل هي أن تنزل الهزيمة بأعدائك وتسوقهم أمامك كالقطيع يذرف ذووهم الدمع عليهم جزافاً وأن تركب خيولهم وتسحق بناتهم وزوجاتهم؟!».

ولكن جدلية المغلوب تفرض عليه أن يستعد للمعركة المقبلة لاستعادة توازنه النفسي بأدوات أشد ضراوة وأمضى، وكما يقول المؤرخ توينبي فإن وتيرة الحرب في التاريخ كانت على شكل جولات كل جرعة منها تلاها ما هو أشد هولاً وأعظم نكراً، حتى وصل الإنسان إلى امتلاك سقف القوة بالسلاح النووي.

العنف والعنف المضاد حلقة معيبة ليس لها نهاية وهي كالنار التي تأكل بعضها بعضاً. والسلام شجرة مباركة تؤتي أكلها كل حين

بإذن ربها جذورها الحب وثمرتها الأمن فلا أعظم من (أمن) السلام، وهو ما عبّر عنه إبراهيم ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾ [الأنعام: ٨١].

طرح الأستاذ جودت سعيد عام ١٩٦٥م كتاباً إلى السوق بعنوان (مذهب ابن آدم الأول) يهدف فيه إلى «الإعلان ولبس الإقناع» فاتهمه الكثير أنه مفسد للفكر الإسلامي أو أنه عميل للسلطة؛ لأنه رأى أن تغيير الواقع الاجتماعي لا يتم بالعنف والاغتيالات وقتل الحكام وتدبير الانقلابات العسكرية فالوضع (اللاشرعي) لا يزال بـ (اللاشرعية) ولا يُقضى على الخوارج بخوارج جدد؛ بل بالتزام اللاعنف ومن طرف واحد، كما فعل ابن آدم الأول: ﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين﴾ [المائدة: ٢٨].

ضحك الكثيرون من جودت سعيد واعتبروه في أحسن الأحوال ساذجاً مغفلاً ووصفه أحدهم أنه لا يزيد عن (درويش) ينقصه الوعي، ولكن الأمة لو انتبهت إلى هذا الفكر الاختراقي المبكر السابق لأوانه لحقنت الكثير من الدماء؟! وهذا يشي وبسخرية معنى أن فرداً يوزن أحياناً بعقله ما هو أثقل من حماسة قبيلة!!
وهوجم أخيراً في كتاب كامل وسم بعنوان (النزعة المادية في الإسلام) بأنه «غاندوي ماسوني معتزلي باطني جهمي قدري داروبني يدعو إلى الزندقة والإلحاد» وأكرمني الكاتب بقوله: «...خالص جلبي أعمى الله قلبه (كذا؟) حين شبه الشيوعيين بآية قرآنية في اللحظات الصعبة عندما حوصر البلاشفة الحمر بطوق عسكري آسر من الروس البيض؛ بأنهم عانوا لحظات نفسية رهيبة

عندما جاؤوهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديداً» كما يصف القرآن وضع حصار الخندق في مقارنة نفسية لكل مجموعة بشرية تطوق حتى الخناق.

في قناعتي أن القانون الإنساني لا علاقة له بشيعة وسنة وشيوعيين ومسلمين بل له ناظمه الخاص، فالثورة الإيرانية (اللاعنفية) لم يفهمها المسلمون حتى اليوم ويعتبرونها في أحسن الحالات حالة نادرة (خوارقية) ولكنها في حقيقتها لا تزيد عن كونها سنة الله في خلقه. كذلك كان نجاح الشيوعيين، أو نجاح (ماوتسي تونغ) في مسيرته الكبرى، إذ يخسر كل جيشه في رحلة على الأقدام لمسافة عشرة آلاف ميل يحصدون فيها من الأعداء على جانبي الطريق ليبقى منهم في النهاية أربعة آلاف يبني بهم زعيمهم في الشمال جمهورية صغيرة كانت خميرة للصين الحديثة، مذكراً بقصة طالوت وجالوت وداود من القرآن الكريم.

١٦

اللاعنف أسلوب الأنبياء في صناعة المجتمعات

العنف لا يحرر الإنسان بل يورطه في مصيدة عبادة القوة، وأخطر مرض يصاب به المجتمع هو تشققه إلى طبقات عندما يتحول إلى شريحة ضيقة من المستكبرين وقاعدة واسعة من المستضعَفين، وهما في الحقيقة من طينة ثقافية واحدة كما في الفيلم، فكل صوره الملونة الزاهية تستخرج من شريط أسود أصلي. بكلمة ثانية، مستنقع المستضعفين هو وسط ولادة بعوض المستكبرين، وبمصطلحات علم النفس فكل سادي هو مازوخي وبالعكس، وكل مستكبِر هو مستضعَف في أعماقه وكل مستضعَف هو (كمونياً) مشروع جاهز للاستكبار ينتظر شروط بروزه وولادته. يظهر هذا واضحاً في علاقة الرجل بالمرأة والضابط بفارق نجمة على الكتف والشرطي بسائق السيارة، واللافت أن قلب طرفي العلاقة بتغيير البدلة والوظيفة والشخص يكرر المنظر البئيس. مهمة الأنبياء كانت تبنّي اللاعنف بكسر رافعة القوة وتحرير الإنسان من علاقاتها المريضة وبناء المجتمع

التوحيدي الديموقراطي والتخلص من طبقة أصحاب الامتيازات والتمتع بكلمة السواء التي هي أصل الرياضيات والفيزياء ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ [آل عمران: ٦٤] والشفاء من المرض الفرعوني ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً﴾ [القصص: ٤]. إن فرعون ليس شخصاً تاريخياً مثل (بيبي) الثاني بل هو مجموعة صفات يمكن أن يقع في شراكها أي حاكم بدون فرامل معارضة. ولا غرابة أن نزلت سورة كاملة باسم رجل (مؤمن) يعترض.

ويعتمد العنف، ثالثاً، على العضلات والأسلحة والإكراه، أما اللاعنف فهو أسلوب الحوار والإقناع أي حديث العقل، وتغيير السلوك يتم بالنزول إلى لوحة مفاتيح الوعي، وهذا تغيير داخلي محض. وطبيعة المادة العصبية في الدماغ الإنساني أنه يتعامل بالفكرة وأفضل شروط إنتاجه كما يقول عالم النفس (براين تريسي) بعيداً عن التوتر فلا يقتحم المعضلات كما نضرب المسمار لاختراق الجدار. من هنا نفهم عظمة دعوة القرآن لبناء مجتمع (اللاإكراه) وسخافة فكرة قتل الإنسان من أجل آرائه كبدعة طورتها ثقافة مريضة تصفي الفكر تدريجياً وتفضي بالأمة إلى الشلل التام والخرس المطبق.

اللاعنف لا يعني الاستسلام بل ينمّي الإرادة في الاتجاه الصحي حيث الدعوة إلى الحوار ولا حقد مبيّت ولا نفاق، وطالما تم تهميش الكراهية نكون قد اقتلعنا الجذور الأصلية لشجرة العنف، واللاعنفي لا يخاف ولا يتراجع إلا بالاقتناع، وأهمية هذا المحافظة على إرادتي الصراع حيث تدخلان الحوار والاندماج وليس تحطيم الإرادة الأخرى.

الكراهية نفي للآخر وضمور في العلاقات مشحونة بمشاعر سلبية

وانكفاء على الذات، والحب اعتراف به وتواصل معه في مشاعر رومانسية ترتقي بالمشاعر وتخلع معنى على الحياة، وأجمل أشكاله الزواج بحب بين كائنين ينجبان نسلاً سعيداً تنمو به البشرية بقوة حياة عظمى من الحي الذي لا يموت فتوكل عليه.

رابعاً: العنف والديموقراطية مثل النار والماء فلا يمتزجان بل نطفىء النار بالماء؛ فلا يمكن بناء مجتمع ديموقراطي تعددي طالما آمنّا بالعنف أسلوباً للتغيير، ومن مزايا مجتمع (اللاإكراه) الحقوق الديموقراطية من حرية الاعتقاد والتعبير والاجتماع عليه سلمياً، وعندما لا تتحرك أي مظاهرة في أي عاصمة عربية فسبب ذلك وباء العنف من جماهير غير منضبطة وقيادات سياسية مرعوبة.

يجب أن نبني مجتمعاً نسمح فيه للجميع بالتعبير والاجتماع والنشاط والدعاية لما يعتقدون؛ فلا خوف من التفكير، ولا حدود للبحث العلمي، ولا يُكفَّر أو يُخوَّن المخالف في الرأي، وأخيراً وهو الأهم أن لا يستباح دم الإنسان من أجل آرائه اعتناقاً وتغييراً. فهذه أربع قواعد مفصلية في بناء مستقبل عربي رشيد، ولنتفق على شيء واحد: يمنع رفع السلاح واستخدام القوة لفرض الآراء دخولاً وخروجاً ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

خامساً: العنف وصل اليوم إلى نفق مسدود حيث ينقسم العالم إلى شريحتين، الأولى تملك القوة والتكنولوجيا ومؤسسات البحث العلمي ومصارف المال ولا تستخدم القوة، ونرى صعود دولتين لا تملكان قوة السلاح إلى مصاف الدول العظمى من نموذج ألمانيا واليابان، ونرى سقوطاً مريعاً لأعظم دولة (إكراه) في القرن العشرين ممثلة في الاتحاد السوفياتي مع امتلاكه كل القنابل النووية بسقوط

داخلي محض دون أي هجوم خارجي، بينما تتحد أوروبا تحت شعار ألمانيا مثل الجميع وليس ألمانيا فوق الجميع بدون فتوحات هتلر ونابليون. وفي المقابل نرى شريحة ترى حل مشكلاتها بالقوة من نموذج أفغانستان وإريتريا والحبشة تشتري سلاحها من مصادر خارجية ترهن مصيرها لعالم الكبار؛ فهي تستطيع البدء بشن الحرب ولكن خاتمتها بيد الكبار الذين يموّلون السلاح فينصرون فريقاً على آخر بما يخدم مصالحهم أكثر من الفرقاء المتنازعين، بما هو أشد سخرية من قصة (القرد والقطين وقطعة الجبنة) فعندما احتكم القطان المتنازعان على قطعة الجبنة المسروقة عند قرد يزعم نزاهة القضاء كان يطفف المكيال في كل مرة ويعدل القبان بقضمة شرهة من القطعة الثقيلة في الكفة الهابطة حتى ختم العملية بالتهام آخر قطعة جزاء أتعابه أمام حسرة القطط. وهذا هو اليوم عالم الكبار الذي يعيق نمو العالم وهم يعلمون، وفي حرب الخليج الأولى كان يموّل الطرفين ثلاثون دولة لحرب استمرت ثماني سنوات عجاف في ما هو أطول من الحرب الكونية حيث مات فيها مليون شاب وأهدرت ٤٠٠ مليار دولار وغرقت الدول النفطية وهي المرفهة بالديون والعجز المالي. وفي معركة (كربلاء خمسة) مات ٦٥ ألف شاب بين إيراني وعراقي، وفي الوقت الذي يفكّك الغرب السلاح النووي ويحاول التخلص من سموم البلوتونيوم وينهي الحرب الباردة في جنازة خاشعة في باريس ترجّ الأرض في بلوشستان بالزلزال النووي في بلد يجلب العار بانقلاب عسكري في عالم يستقبل الألفية الثالثة يودع السلاح والعسكر، ويبدأ العرب في شن الحرب الباردة بين قبائلهم الجديدة، ويتلمظون لبناء الصنم النووي بعد أن علمهم القرآن منذ أكثر من ألف عام أن الأصنام لا تضر ولا تنفع.

نحن نذهب للحج في اليوم العشرين من ذي الحجة وقد طويت

الخيام وانتهى الطواف؟!.

جاء في تصريح أكبر استراتيجي نووي أميركي (لي بتلر) في مقابلة أجرتها معه مجلة «دير شبيغل» الألمانية ١٩٩٨/٣/٢م أنه كان المسؤول عن خطط الهجوم لمسح ١٢٥٠٠ مركز حيوي من ظهر الأرض خلال عشرين دقيقة بخطأ لا يزيد على ١٥ متراً عن الهدف، وأنهم أنتجوا سبعين ألف رأس نووية بكلفة ستة آلاف مليار دولار بـ١١٦ نموذجاً محمولة على ٦٥ نظام دفع صاروخي قال: لقد كنا نترنح كالسكارى وما كنا بسكارى.. نضرب رؤوسنا بطلقة الروليت الروسية ولكننا نجونا بأعجوبة؟!.

سادساً: اللاعنف هو أسلوب الأنبياء في صناعة المجتمع، فالمسيح عليه السلام كان صارماً عندما تقدم رجال الاستخبارات الرومانية لإلقاء القبض عليه واستل بطرس سيفه ليدافع عنه فقال: لماذا تخرجون عليّ كأنني لص فأنا أدرِّس كل يوم في المعبد؟! ثم توجه إلى بطرس مذكراً بالقانون الاجتماعي: «أغمد سيفك لأنه مكتوب أن من أخذ بالسيف بالسيف يهلك». وبنى الرسول محمد (ص) مجتمعه من دون أن يغتال أحداً من المشركين ليستقبل في المدينة من المجتمع الوليد بفرقة موسيقية كاملة تعزف: «طلع البدر علينا» بنور جديد يضيء العقول ويحرر الإنسان.

نحن اليوم نتخذ نموذج الثورة البلشفية والفرنسية أو سيف جنكيزخان المعقوف مثلاً أعلى لبناء دولة إسلامية وننسى النموذج النبوي (ص) في التغيير، كما نخلط بين قيام الدولة ووظيفة الدولة؛ فالدولة هي المؤسسة السياسية التي يفرزها مجتمع، وغزوات النبي (ص) ومعاركه كانت في إطار دولة ولدت (شرعياً) برضى الناس

تمارس تحرير الإنسان من الظلم مهما دان وأينما كان، فأفكار السلم تعطي حصانة رائعة لأنها لا تضر أحداً وينتفع منها الجميع.

حتى يمكن للإنسان أن يكسر حاجز التقليد فإن هذا يتطلب إعادة برمجة العقل، وما ينتظر العالم العربي هو هذه الولادة الجديدة بالانفصال عن رحم ثقافة الآباء.

١٧

حرية التفكير وحرمة التعبير

مسموح لك بـ (حرية التفكير) كما تشاء وحرام عليك (حرية التعبير) إلا كما نشاء؟ هل هذا قول عاقل رشيد أم متعصب مستبد؟ إنها إحدى مفردات القانون الميمي الثلاثي في العالم العربي (ما في. ممنوع. ما يصير؟؟) ولكن متى طلب العقل إذناً بالتفكير لممارسة وظيفته؟ فالدماغ يفكر كما يخفق القلب وتتنفس الرئة؟ فهذه مغالطة أولى.

ثم هبْ أننا قطعنا الألسنة كما كان يفعل الفراعنة مع خدم الأهرام فيدفنون مع أسراره وكنوز فرعون، أو كما كان يفعل السلاطين مع (خصي الذكور) كي يضمنوا سلامة حركتهم بين الحريم؛ فعندما نأمر اللسان أن لا ينطق ونخصي الذكور فلا يتحرشوا بالحريم؛ هل يستجيب اللسان أو الخصي حقاً أم يحدث ما حصل في قصة (الحلاق والملك ومزامير الرعاة)؟ وما تكرر من مؤامرات الطواشي مع الحريم في القصور السلطانية؟ فهذه مغالطة ثانية.

يذكر المؤرخ الأميركي ويل ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) حكاية مثيرة عن أجواء الخوف من (التعبير) في أوروبا كالتي نعيشها حالياً عن القس جان مسلييه (١٦٧٨م - ١٧٣٣م) راعي أبرشية (أتربيني) في شمبانيا الذي كان في كل عام «يمنح الفقراء كل ما يتبقى من راتبه بعد تسديد نفقات حياته المعتدلة البعيدة عن الإسراف والتبذير» ولكنه عاش أزمة فكرية حادة بقيت فيها أفكاره محبوسة في زنزانة الجمجمة طوال حياته في حالة خوف وترقب أن يفتضح أمره ويقرأ الناس ما كتب من هرطقة، وعندما مات (بعد ثلاثين عاماً من حياة هادئة مثالية في وظيفة الراعي قضى نحبه وهو في الخامسة والخمسين موصياً بكل ما يملك لأهالي الأبرشية) دفنه أهل القرية بكل إجلال وتعظيم على أنه التقيّ النقيّ الطاهر العلم تاركاً خلفه مذكراته في ثلاث نسخ من مخطوطة بعنوان (عهدي الجديد). وعندما بدأ الناس يطّلعون على ما جاء في أوراقه أصيبوا بزلزال فوضعوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وبدأوا في صب اللعنات على رأس ذلك الشقي الخائن كيف استطاع أن يتكتم على آرائه الضلالية طوال ثلاثة عقود.

كل التساؤلات الخطيرة والعقد التي تتطلب الحل واللاعقلانية لنظام الأفكار المسيطر في عصره قام (مسلييه) باستعراضها بأسلوب شيق وعرضها في صفحات مطولة، فلم يترك مسألة عويصة أو وضعاً غير منطقي للكنيسة والفكر الديني والعرف السائد إلا وتعرّض له في نقد لا يعرف الرحمة، ولكنها أسطر كتبها بينه وبين نفسه في هدوء الليل في غيبة عن عيون الفضوليين والجواسيس والرقيب؛ فلم يُطلع عليها كائناً قط حتى الموت، مع اعتذار شديد لأهل القرية أنه كتم آراءه عنهم كل تلك الفترة؛ فلم يكن يوماً معتقداً بما كان يمارسه من طقوس وصلوات وكنيسة وناقوس و(توسل إليهم في المخطوطة

أن يغفروا له أنه خدم الخطيئة والأهواء طوال مقامه بينهم) فقد تقلد عمله ليس طمعاً في المال بل امتثالاً لما أمره به أبواه؟

من الطرافة ذكر بعض نفثات هذا الرجل الذي أطلق العنان لـ (حرية التفكير) في الوقت الذي حبس كل (مجاري التعبير) عنده طوال حياته؟ لنعرف مصير الأفكار المحبوسة عن (التعبير): «لن أضحي بعقلي لأنه وحده يمكّنني من التمييز بين الخير والشر وبين الحق والضلال... لن أتخلى عن الخبرة لأنها مرشد وهاد أفضل بكثير من الخيال أو من سلطان المرشدين. لن أرتاب في حواسي ولست أتجاهل أنها يمكن أحياناً أن تؤدي بي إلى الخطأ ولكنني من جهة أخرى أدرك أنها لن تضللني دائماً... إن حواسي تكفي لتصحيح الأحكام والقرارات المتسرعة التي ملت إلى اتخاذها».

لقد كانت كتابات مسلييه في مقاييس عصره أكثر الكتابات إيغالاً في مخالفة السائد والمسيطر من الأفكار، لذا لم يتجرأ ڤولتير نفسه إلا على نشر أجزاء منها ورأى فيها شيئاً من التطرف حاول تعديله، ومن الواضح أن مسلييه كان قد وصل إلى اللاعودة مع الكنيسة والمسيحية كما فعل برتراند راسل الفيلسوف البريطاني لاحقاً عندما نشر كتابه المثير (لماذا أنا لست مسيحياً؟). وصفوة القول في رأي مسلييه أن المؤامرة كانت «بين الكنيسة والدولة لإرهاب الناس إلى إذعان مريح للحكم المطلق؟». وعندما يتحدث عن الحروب الدينية في أوروبا يقول: «زعزعت الخلافات الدينية أركان الإمبراطوريات وأدت إلى الثورات وخربت أوروبا بأسرها ولم يكن من الميسور إخماد هذه النزاعات الحقيرة حتى في أنهار من الدماء. إن الأنصار المتحمسين لدين يدعو إلى البر والإحسان والتآلف أثبتوا أنهم أشد ضراوة وقساوة من أكلة لحوم البشر أو المتوحشين». وعندما يصل

إلى عقيدة الكنيسة في الفداء يطرح السؤال المربك: كيف يمكن أن يضحي الرب بابنه البريء يسوع الذي لم يرتكب إثماً؟

وعندما يتحدث عن ازدواجية رجال الدين في عصره يقول: «ويكفي لنتحرر من الوهم أن نفتح أعيننا على أخلاق أشد الناس تمسكاً بالدين ونفكر فيها ملياً وسنرى طغاة متعجرفين ورجال البلاط ومغتصبين لا حصر لهم وحكاماً لا ضمائر لهم ودجالين وزانين وفاسقين وإباحيين فجرة وعاهرات ولصوصاً وأوغاداً من كل صنف». ليصل في نهاية أطروحته إلى أن «الناس أشقياء لمجرد أنهم جهلة وهم جهلة لأن كل شيء يتآمر على الحيلولة بينهم وبين الاستنارة، وهم أشرار لمجرد أن عقلهم لم يتطور بدرجة كافية» و«لقد طال العهد بمعلمي الناس وهم يركزون أبصارهم على السماء فليرجعوا بأبصارهم ثانية إلى الأرض. لقد تعب الذهن البشري من اللاهوت المبهم والخرافات السخيفة والأسرار العويصة والطقوس الصبيانية فلينشغل هذا الذهن البشري بعد هذا الإرهاق بالأشياء الطبيعية والأهداف الواضحة والحقائق المعروفة والمعرفة النافعة».

وبعد أن ذكر جان مسلييه ما سلف يختم عهده الجديد بعبارة يتحدى فيها كل الذين يمقتونه ويصبّون عليه اللعنات «دعهم يفكروا أو يحكموا ويقولوا ويفعلوا ما يريدون... لن أعبأ بهم كثيراً... بل إني اليوم لم أعد أعبأ كثيراً بما يحدث في العالم؟».
يعلق ديورانت على صدق وصراحة هذا الرجل غير المعهودة على هذا النسق من العبارات الصاعقة: «هل وجد ثمة عهد أو ميثاق مثل هذا في تاريخ البشرية جمعاء؟ يعيش منسياً لا ذكر له في قرية قد ترتعد فيها كل النفوس رعباً وهلعاً إلا نفسه هو لمجرد الاطلاع على أفكاره الخفية، ولهذا لم يتحدث بمثل هذه الحرية إلا

لمخطوطته؟... ومن ثم اختمر في ذهن فرنسا وأسهم في التمهيد لسقوط النظام القديم ونشوة الابتهاج بالثورة الفرنسية».

قام ڤولتير بنشر أجزاء من كتاب الكاهن مسلييه، كما أن ديدرو ودي هولباخ قدّما خلاصة له عام ١٧٧٢م تحت عنوان (رجاحة عقل الكاهن مسلييه) ولكن النص الكامل للكتاب لم يطبع إلا بعد ١٣٠ سنة من موت صاحبه في عام ١٨٦٤م والمخطوط اليوم محفوظ في المكتبة الوطنية في باريس.

جان مسلييه قبل ثلاثة قرون مشى على نصيحة من يريد لنا (حرية التفكير) ويغلق أفواهنا عن البيان ليضعنا في زنزانة (حرمة التعبير) على شكل كاريكاتور في مصادرة لكل الوعي الاجتماعي.

يحكى أن ملكاً كان يفتك بكل حلاق يقص له شعره لأنه كان يفشي سر آذان الملك الطويلة حتى جاءه شخص كتم هذا السر واستمر في الحلاقة وحافظ على سلامة رأسه، ولكن الحلاق المسكين حتى ينفّس عن احتقانه فيعبر عما يختلج في صدره لم يكن أمامه إلا أن يذهب في غفلة عن العيون وجواسيس السلطان ومخبريه إلى شاطىء النهر، وهناك أمام هدير الماء المتدفق كان يصرخ بأعلى صوته تعويضاً عن كل الاحتقان السابق: آذان الملك طويلة مشوهة قبيحة؟!.. حتى جاء ذلك اليوم عندما نبتت فيه عيدان البوص التي يستخدمها الرعاة للنفخ وإصدار الأنغام، وعندما بدأوا في النفخ ارتجت الحقول مع مزامير الرعيان فلم تعد ترسل أنغامها الخاصة بل كانت تردد بدون توقف مع كل نفخة هواء من فم الراعي جملة واحدة: آذان الملك طويلة.. طويلة...

١٨

فلسفة التفكير والتعبير

مسموح لك أن تفكر كما تشاء وحرام عليك أن تعبر إلا كما نشاء؟؟ هل هذا قول عاقل أم مهووس؟ هكذا يريد منا خياطو الفكر العربي الذين يفصّلون لنا اليوم بدلات طفولية سخرية للناظرين، في إعلان وصاية على أمة قاصرة قد وضعت عقلها في جيبها وأتقنت فن الخرس وهضمت دور الانصياع إلى الأبد؟!

المواطن العربي اليوم محاصر في مثلث من المحرمات بين الدين والسياسة والجنس، كل ضلع فيه يمثل حاجزاً شاهقاً لا يستطيع أفضل حصان عربي رشيق أن يقفز فوقه إلا بالقفز إلى الإعدام. فأمام حائط الدين يطل مفهوم الردة، وأمام جدار السياسة يبرز مصطلح الخيانة، وعند حافة الجنس تشع كل ألوان الحرام والعيب ولو كان البحث في معهد من طراز (كينسي) للبحث العلمي في أميركا؛ فالعقل مصادر ومؤمم وملغي حتى إشعار آخر.

فطائفة أعلنت الوصاية على العقل ورفعت شعار التخصص فيما يشبه الكهنوت ووضعت شروطاً للاجتهاد لن تجتمع إلا في كائن أسطوري فوق بشري، والسياسيون صادروا الضمير ونشروا الرعب فلا يستطيع المواطن التصريح بأفكاره ولو بمنشور سري، وعقلية التقليد الآبائية وضعت الخطوط الحمر أمام جدار كهربي صاعق عليه إشارة (جمجمة وعظمتين) كما في غرف التوتر الكهربي العالي.

ولكن هل نحن فعلاً كذلك؟ الواقع أننا نمارس العادة السرية في التفكير، فحشد من الذكور يسافرون فيتندّرون بأقذر قصص الجنس الرخيصة، وماسح الأحذية يبوح بأخطر أفكاره السياسية لمن يثق به، وعالم الدين المستنير يحتفظ بالآراء الجريئة لنفسه مسايرة لجمهور أعمى وسلطة عوام أثقل من نجم نتروني.

هناك علاقة في البيولوجيا بين العضو والوظيفة؛ فالعضو الذي لا ينشط يضمر، والجهاز الذي لا يعمل يموت، وحركات مفاصلنا مع نسمات الصباح تحررنا من اليبوسة، وتدريب عقولنا على النقاش والجدل يفتح طرقاً عصبية رائدة دوماً، العقل النقدي حي والعقل النقلي ميت؛ لأن الأول يعمل بكل الطاقة، والثاني يحفز الذاكرة فلا يزيد عن علبة حديد مثل الكمبيوتر. إذا انكمش العضو ضمرت العضلات وترققت العظام وجسأت المفاصل، هذه هي مشكلة الأطباء مع المرضى المشلولين لفترة طويلة ولو عادت الحياة إلى العصب، فالمفصل يروي قصة الكارثة على شكل تشوه معيب وقسط مستديم؛ وهكذا فالمرض والاختلاط (المضاعفات) Complication يتفاعلان على نحو جدلي متبادل التأثير يدفع الإنسان إلى هاوية لا رجعة منها. ما يحدث في البيولوجيا يتكرر في السيكولوجيا والسوسيولوجيا، فالإنسان الذي اعتاد الاستلقاء

يصعب عليه المشي وتحريك العضلات، والفرد المأسور في أنظمة سياسية وبرامج ذهنية تصادر العقل لفترة طويلة يتحول إلى كائن ممسوخ أشبه بالقردة والخنازير، والمجتمعات الخرساء التي أتقنت فن الصمت تقترب من حافة الموت بتفسخ شبكة العلاقات الاجتماعية وتوقف العمل المشترك. يمثل الإنسان الكائن الواعي فيتميز عن النبات، ولكن ثقافتنا تريد منا أن نفتح كتب النبات فنتحلى بصفاته فنتكاثر ونتنفس ونتغذى ولكن بدون نطق أو وعي، فمتى أنشدت شجرة قصيدة أو اعترضت نبتة على خرافة؟ وإذا أردنا الحركة فيجب أن نقلد النباتات المتسلقة ببطء وضعف بدون إثارة أي انتباه فنزحف على بطوننا زحفاً؟

إذا كان الوعي هو الانفكاك عن رتابة الطبيعة فليس أمام العقل إلا أن يفكر ويعبر، والتفكير يقود آلياً إلى التعبير ما لم يصدّ بآليات الإرهاب والقمع أو السخرية والتكذيب.

التفكير يقود إلى التعبير والتعبير ينعكس على التفكير فينميه ويصححه ويعمق مجراه، ومن خلال التعبير سواء بالنطق أو الكتابة وصولاً إلى مستوى التواصل العالمي بالإنترنيت يتحول العقل الفردي إلى عقل جماعي عملاق. ولم ينمُ العقل الإنساني إلا بواسطة هذه الآلية من التعبير العلني والإفصاح عنه في ضوء النهار تحت سمع الجميع في مؤتمرات ومناظرات حفظتها الكتابة كذاكرة جديدة تراكمية. ولم يكن للعلم أن يتطور لولا نزع غطاء السرية عنه ومناقشة أي شيء علناً بدون الخوف من الاتهام بالزندقة. فالعلم يخترق كل التابو ولا يعرف الحدود أو يعلن عن استراحة أو توقف، كما لا يقدم استقالته أو تغشاه حيرة لأنه من الله الذي يعلم السر وأخفى، وفوق كل ذي علم عليم. وقبل

عصر الكتابة كانت الخبرات تموت بموت الأفراد، ولكن مع الكتابة والنقاش الجماعي أصبح الفرد يأخذ خبرات الجنس البشري المتراكمة خلال ملايين السنين فيمتصها من المحيط الاجتماعي ويتمثلها خلال سنوات الطفولة القليلة، لذا كان التعبير وأدواته حياة العقل الإنساني الجمعي. من هنا كانت سنوات الطفولة عند الإنسان نسبياً طويلة بالنسبة للحيوان، كما أنها حاسمة في جعل الإنسان كائناً اجتماعياً، ويتم صقل أداة التعبير بنظام اللغة المفتوح في السنوات الأولى، فإذا لم ينطق الإنسان خلال سنوات الطفولة خسرها النطق إلى الأبد كما أظهرت ذلك أبحاث علم الاجتماع الأنثروبولوجي. لا غرابة أن لعن القرآن الذين يكتمون المعلومات أو يؤجرون أقلامهم لأصحاب النفوذ فيشترون به ثمناً قليلاً فأقسم بالقلم وما يسطرون وبالطور وكتاب مسطور، وأول كلمة أنزلت كانت أمراً بالقراءة، وفي الإنجيل: «في البدء كانت الكلمة». فهذه هي أساسيات فلسفة التفكير والتعبير. المنافق هو الذي يضمر غير ما يعبّر عنه: في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً، ومرض التقية هو التظاهر بعبارات تستر وضعاً متبايناً، والقرآن أراد من المؤمن التخلص من مرض النفاق والتقية في ضربة واحدة، واعتبر أن من يكتم قناعاته ملعون من الله وملائكته والناس أجمعين، وخلّد موقف الإعلان والتعبير في سورة كاملة أعطاها اسم الرجل (المؤمن) الذي لم يسكت فقال لفرعون لمَ تقتلون رجلاً يقول ربي الله؛ فموسى لم يذنب بشيء يستحق عليه القتل ولم يمارس سوى حق التعبير في انتقاد وضع فاسد. في الواقع لم يكن جان مسلييه كافراً بالله عندما سمح لعقله بالاعتراض على الفكر السائد، كما لم يكن نيتشه ملحداً عندما أعلن موت الله، كما لم يهرطق فوكو بإعلان موت الإنسان. كلهم مؤمن عميق اليقين أقرب إلى حرارة التصوف ولكن كلهم يرفض تصورات الكنيسة

ويتمرد على فكر العصر، وهو ما فعله الأنبياء في التاريخ دوماً فقال معارضوهم من الملأ لم نسمع بهذا في آبائنا الأولين، وهذه الآلية لا تخص المسيحيين دون المسلمين أو البوذيين دون الهندوس فهي قانون إنساني يسري مفعوله على جميع البشر، وعندما يدعي البعض أنهم أبناء الله وأحباؤه يكون الجواب: فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق؟!.

يروي لنا تراثنا أن الشاعر (جميل) اقتيد إلى الخليفة المعتصم لكلمة قالها فأمر بإعدامه وكان إلى جنب الخليفة (السيَّاف) جاهزاً فأنشد يريد إنقاذ رقبته:

أرى الموت بين النطع والسيف كامناً
يلاحظني من حيث ما أتلفت
وأي امرئ يدلي بعذر وحجة
وسيف المنايا بين عينيه مصلت
وما جزعي من أن أموت وإنني
لأعلم أن الموت شيء مؤقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم
وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأني أراهم حين أُنعى إليهم
وقد لطموا تلك الوجوه وصوّتوا
فإن عشت عاشوا سالمين بغبطة
أذود الردى عنهم وإن مت ماتوا

تقول الرواية إن قلب الخليفة المعتصم أشفق عليه فضحك وقال: كاد والله يا جميل أن يسبق السيف العذل؟! اذهب فقد وهبتك

للصبية وعفوت عن الهفوة، وخلع عليه وعقد له على شاطىء الفرات وأحسن وأجمل السيرة؟؟

وهكذا فمصير الإنسان معلّق بكلمة واحدة وموته وحياته تنتهي على تعبير تفوّه به. نحن نروي هذه الواقعة على أنها من مفاخر التاريخ العربي إلى درجة أننا نعيد استنساخها لتوضع في يوميات التقويم السنوي كحكمة يومية نستفتح بها نهارنا في تكريس ثقافة النمرود الذي قال لإبراهيم: أنا أحيي وأميت، في عارٍ ما بعده عار وتاريخ مخجل يحتاج إلى إعادة كتابته من جديد بعيداً عن سير وعّاظ السلاطين.

الكلمة بريئة ونحن الذين نشحنها بالمعنى، واللفظ قمر يعكس المعنى من شمس الفكر ونحن ننقش الكلمات في أوراق الكفن الأبيض والمعنى يهبها الحياة على شكل كائن يتجسد منتصباً من تابوت الألفاظ.

لم يكن أبو حامد الغزالي مجانباً الحقيقة عندما اعتبر أن توليد المعاني من الألفاظ ورطة قاتلة؛ فمثلها مثل ألعاب السيرك التي تخرج الأرانب من القبعات السوداء، كما فعل بعض من كتب عندما أخرج أحدهم من لفظة (ولا يضربن بأرجلهن) أن معناه (الستربتيز = التعري)؟ فيمكن توليد كل المعاني من أي لفظ بعمل بهلواني؟ واعتبر الغزالي في كتابه (المستصفى) أن من أراد تحصيل المعاني من الألفاظ «ضاع وهلك وكان كمن يستدبر المغرب وهو يطلبه» ومن قرر المعاني أولاً ثم اتبع الألفاظ المعاني فقد نجا.

١٩

حرية التعبير أين حدودها؟

أين حدود التعبير؟؟ من الذي يقرر هذا أمام تمرد العقل وسباحته التي لا تعرف الشواطىء؟ ما قيمة أي تفكير ما لم يجد طريقه إلى التشكل بالتعبير نطقاً وكتابة ونشاطاً؟ من يسمح للتفكير بالانطلاق والتعبير بالانحباس فيغتال الفكر والتعبير معاً.

إذا سمحنا للعقل بالتفكير وكممنا الأفواه عن التعبير كنا كمثل من ينطلق بسيارة مشدودة الفرامل، فهل يفعل هذا أحد منا؟ لقد صادرنا الكلام فلا يفتح المواطن فمه إلا عند طبيب الأسنان؟ عندما نقول إننا مع التفكير ولكن لا بد من تنظيم التعبير نحن في الواقع نطلق نكتة ولا نريد التعبير إلا بإلغاء كل تعبير تحت شعار لا حرية لأعداء الشعب فلنصادر كل حرية؟! من هو العدو؟ وأي حرية نعني؟

يجب أن نشجع التفكير بدون حدود والتعبير بدون قيود ونحرم

شيئاً واحداً وهو استخدام القوة لفرض الآراء خروجاً ودخولاً، ومن عنده قدرة على إقناع الناس فليلق حباله وعصيه ويسحر الناس؟

نحن نظن أننا إذا سمحنا للحق والباطل بفرص متكافئة فإن الباطل سيهزم الحق؟! ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين؟! نحن نظن أننا إذا فتحنا المجتمع لجميع الآراء فإن الإسلام سيختفي من الأرض؟! ولكن الذي ثبت أن الإسلام صمد عبر التاريخ ويكسب أتباعاً باستمرار ليس أقلها (أخوات محمد) في ألمانيا من نساء جرمانيات وليس تركيات؟! اعترفت مجلة «دير شبيغل» الألمانية أن عددهن يتجاوز الخمسين ألفاً، وكتاب (جيفري لانغ) عن (الصراع من أجل الإيمان) يبين كيف أن أستاذ الرياضيات الأميركي الملحد أسره القرآن فاعتنق الإسلام ولكن اتصاله بالمسلمين فجعه؟

أي فكرة خاطئة ستتهاوى ولو بعد حين، ومن يحمل في جيبه عملة مزيفة لن يستفيد منها وسيرسو مصيره وراء القضبان، ومن ملك الذهب صرفه في بنوك العالم أجمعين، وأي نظام فكر يقوم على الوهم والإكراه لن يصمد مهما حاولنا ترويجه وحراسته، وآية الفشل على أي نظام أن لا يقوم إلا بحراسة الإرهاب، ولقد انهار الاتحاد السوفياتي لسبب داخلي محض بدون أي هجوم خارجي وهو يملك ما يدمر به الكرة الأرضية مرات لأنه كان أعظم نظام إكراه في العقيدة؟

يجب أن نعلم أن قوة أي فكرة هي من داخلها وليس من خارجها، وأن النظام الذي يعتمد القمع يضرب أول مسمار في نعشه ويدشن أول مظاهر هزيمته. اعتبر القرآن أن الباطل يمكن أن ينمو فيصبح

شجرة، والديكتاتوريات أصبحت في بعض الأمكنة أشجاراً باسقة ولكن مصيرها في النهاية أنها ستسقط؛ فبقدر ما تنمو بقدر ما تقترب من النهاية لأنها لا تملك الجذور فتسقط تحت ثقل الأغصان؛ فاجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. هذه هي عظة التاريخ.

يجب السماح لجميع الأفكار بالوجود مهما تناقضت، فالمجتمع ينمو بتعددية الآراء ولذلك خلقهم، فيجب أن يسمح لكل الاتجاهات بالحضور والدعوة والمناقشة العلنية مهما حملت من أفكار وبرامج، وهذا يعني بناء مجتمع (اللاإكراه في الدين) وهذه فكرة مفتاحية في القرآن، فمع ممارسة الإكراه في المجتمع واحتكار السلطة وإنشاء نظام الحزب الواحد سواء كان قومياً أم إسلامياً تتم مصادرة كل الآراء لرأي يتيم في جيب سلطان مطلق، وهذا يعني بناء طرق سريعة باتجاه واحد، وصناعة سيارات تمشي إلى الأمام فقط؛ فإذا دخلت الكاراج انحشرت فلم تخرج فهل يقول بهذا رجل رشيد؟!.

إن قتل الناس من أجل آرائهم أسلوب فرعوني وليس إسلامياً. فقد كان الرسول (ص) يكرر لأصحابه أهمية الرأي العام: أتريدون أن يشاع بين الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟

أعدم سقراط بالسم عام ٣٩٩ قبل الميلاد بجريمة التعبير وأنه ينشر الإلحاد ويفسد عقول الشبيبة، ونفي الفيلسوف الرواقي أبكتيتوس من روما للتهمة نفسها، وقضى ابن رشد بقية الشيخوخة في قرية الليسانة اليهودية تحت الإقامة الجبرية وطرده الغوغاء من مسجد قرطبة، وضرب ابن تيمية بالنعال وسيق إلى التعزير ثم مات في سجن القلعة من أجل تعبيره عن أفكار خطيرة؟

المشكلة في الأفكار أنها لا تعيش ولا تتكاثر بدون التلاقح في ربيع التعبير. فهي تخضع لقانون الزوجية. والغازات في الطبيعة لا تعرف العزوبة وهي تعيش على شكل أزواج من جزيئات الأكسجين والهيدروجين والماء، ويحمل النحل غبار الطلع فتتلاقح به الأشجار، ولا يلد الحيوان والإنسان صغاره بدون الاتصال الجنسي، ولا تشكل الأفكار شذوذاً على هذا القانون فهي تتلاقح وتتوالد وتكبر ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون.

القرآن يقول بالزوجية وهيغل بالجدلية والرأسمالية بالسوق الحرة والعولمة.

لماذا لا توجد حرية تعبير في العالم العربي؟؟ لماذا لا تتحرك مظاهرة احتجاج واحدة في عاصمة عربية في أخطر قضايا الأمة؟ هل لأن السياسيين لا يسمحون؟ أو لأننا ليس عندنا فكر يستحق التعبير؟

هناك علاقة جدلية ما بين الفكر والتعبير، فعندما تم اغتيال الفكر عبر التاريخ ولدت أمة خرساء حاضرة بأشد من الغياب أتقنت فن الصمت إلى يوم يبعثون.

والسؤال: لماذا يحدث ما يجب ألاّ يحدث؟ وهل يختنق الفكر حقاً بحبس مجاري التعبير؟ في الواقع عندما يولد الفكر لا يمكن محاصرة التعبير، فله ألف لسان، والكلمة كائن حي، وأهم مزايا الحياة التكاثر والحركة، والكلمة المحاصرة تبحث عن جداول تنبجس من خلالها ولو بعد حين.

هكذا تشققت الأرض في (بادوا) بإيطاليا للماء القادم من (سييرا

نيفادا) من أندلس ابن رشد، وأعيد الاعتبار لغاليلو بعد أربعة قرون ويرسل اليوم مسبار فضائي باسمه إلى المشتري، ووضع لجيوردانو برونو الذي أحرق في روما عام ١٦٠٠م نصب عام بلاغاً للناس وهدى وموعظة للمتقين.

عندما نسمح للمواطن بالتفكير ونحرمه من (التعبير) نريد في الواقع كائناً أسطورياً لا ينتسب للأرض على صورة إنسان مقصوص اللسان كمن يريد كمبيوتر بدون شاشة وطابعة؟

تمدنا البيولوجيا والسيكولوجيا بأمثلة، فإذا احتقن الخرّاج وجب أن يفرغ للخارج بأي وسيلة وإلا اتخذ طريقه بنفسه وقد ينفجر في الداخل فيقتل صاحبه، وفي السيكولوجيا تعالج العقد النفسية بالتحليل النفسي فإذا ظهرت للسطح تعافى الإنسان ونشط من عقال.

نحن نتجرع الدواء مع كل وعينا أنه قد يتسبب في أعراض جانبية، ونسوق السيارة مع وقوع الحوادث اليومي، ونجري الجراحات المعقدة مع توقع حدوث المضاعفات، وكذلك التعبير، إذ يجب أن نطلق الضمير ونحرر اللسان من الخرس مع توقع كل الأعراض الجانبية. يجب أن نتوقع بعض الآثار الجانبية الضارة مقابل مجتمع صحي يتناصح به الناس ولا يخافون إذا أطلقوا لسانهم في التعبير عما يرونه صحيحاً أو ضلالاً، والمجتمع الساكت ميت حتى يبعثه الله، ومعظم المجتمعات العربية تعيش هذه الكارثة كوباء متوطن منذ أيام يزيد كما تعيش البراغيث في فروة الثعلب المسكين. عندما نريد أن نضع القيود على التعبير يفيد أن نستحضر تجربة النبي (ص) الذي اتهمته قريش بأنه يسفّه أحلامهم ويعيب آلهتهم وأنه صابيء مرتد منحرف،

وأنه شاعر تربصوا به ريب المنون، وأنه ساحر كذاب، وأنه مجنون لأنه ينطق حراماً وممنوعاً ويحتاج إلى رخصة في الكلام من السلطات المسؤولة، فكيف يسوي محمد بين الرجل والمرأة والعبد والسيد والقرشي والفارسي؟

كل مجتمع يحرّم التعبير بقدْر (راديكالية) الفكرة، ولكن المشكلة أن المجتمع لا يتقدم إلا بالأفكار الراديكالية التي تمس واقع الناس وتعالج الاستعصاءات الثقافية، وأما الالتفاف على الواقع بالكلمات فهو أقرب لصناعة السحر لنضيف إلى القاموس لفظة ونخسر في الواقع حقيقة. من يريد أن يكتب كي لا يكتب فمن الأفضل ألاّ يكتب؟ ومن يُرِدُ أن يتسلق ظل الكلمات فسيعيش في الظل إلى يوم القيامة.

جيء بامرأة خارجية إلى الحجاج فقال لأصحابه: ما تقولون فيها؟ فأشار عليه من حوله بقتلها لحجتها وبلاغة لسانها وجرأتها على الأمير. فقالت له: لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك يا حجاج؟! قال ومن صاحبي؟ قالت: فرعون؟! فقد استشار وزراءه في موسى عليه السلام فقالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين، ولكن أصحابك يوصونك بقتلي بدون تأخير؟

٢٠

حرية التعبير واللاعنف

عندما يُسلَّم المهاجر إلى كندا بطاقة الجنسية وورقة التهنئة يُدفع في يده جنباً إلى جنب مرسوم الحريات والحقوق الكندي (Canadian Charter for Freedoms and Rights) الـذي يـتـضـمـن حـقـوقـه وواجباته كمواطن ينتسب إلى العالم الجديد؟ وأهم ما في هذه الوثيقة حرية الاعتقاد والتعبير والاجتماع سلمياً؛ فيعتنق أو يترك الدين الذي يشاء، وينطق بدون خوف من الجواسيس، وينشىء الأحزاب بتشجيع وترخيص من الحكومة، ويعترض في مظاهرات صاخبة مع أو ضد؛ في قوة ما فوق نووية لانطلاق مارد الحرية من قمقم الاستبداد، في مجتمع يرى أن الحرية للجميع بمن فيهم من يطلق عليهم (أعداء الشعب؟) لأن الحرية لكل الناس اتفقنا معهم أو اختلفنا فيتمتع بها الجميع عسلاً سائغاً للشاربين، ويحظر فقط (استخدام القوة) لفرض الآراء فمن يستطع إقناع الناس وكسبهم فليمدد بسبب إلى السماء؟

لن تبنى ديموقراطية مع (العنف) ومؤشر السلامة في المجتمع اتفاق جميع الفرقاء على إلقاء السلاح فلا تؤله القوة؟

ولكن لماذا ننتمي نحن إلى العالم القديم وتسمى أوروبا وكندا العالم الأول؟ إن الغرب دفع ثمن الرحلة غالياً حتى وصل إلى شاطىء الديموقراطية وساحل القانون. نحن لا نستوعب معنى فصل السلطات؟ نحن نعيش حالة الطوارىء ولا نعرف ذلك؟! نحن نعيش خارج القانون ولا ندري؟ نحن نستورد السيارة والمجالس النيابية ولكننا لا نستطيع إنتاج السيارات ولا إيجاد حياة نيابية إلا على شكل كاريكاتور بدون حياة وبدون نيابة، في قصة مترجمة يرويها أخرس مهمته الكلام؟!

لا بد من حرية التعبير وبدون حدود، وعلى إطلاقه ضمن قاعدتي السلام والاحترام، وإذا نطق من نظن أنه يقول حراماً وممنوعاً فيمكن أن نرد عليه لا أن نُخرسه وإلا أصابنا الخرس أجمعين؟! وهو على كل حال داء دوي نعاني منه منذ ألف عام، فإذا نطقنا وجب أن نهمس فنقول كلاماً لا يوقظ نائماً ولا يزعج مستيقظاً في محافظة مثالية على النوم العام؟!

بالتعبير تظهر وجهات النظر فتتزاوج وتتناقض وتتوالد وتتكاثر سنة الله في خلقه، ولكننا نريد مواطناً أخرس يفكر عنه آخرون بالوكالة معلنين الوصاية على عقله في شهادة صاعقة أنه قاصر؟

وبحرية التعبير تطفو الأفكار الخاطئة فتخضع للتمحيص والنقد، للتهميش أو الترسيخ، أما المطاردة فتدفع الأفكار إلى الانزواء في الجبال، وكثرة انتشار الإثنيات في منطقة بعينها ضمن شرانق محنطة

سببها الجغرافيا. فمع أن مصر كانت فاطمية لفترة قرنين وصُمِّم الأزهر للدعوة لها، فليس على ظهرها اليوم فاطمي واحد، والأزهر يبشر بكل شيء إلا الدعوة الفاطمية لسبب جغرافي بحت، لأن الناس لا يمكن لها أن تعيش إلا بجانب النيل وتختلط وتتبادل الأفكار والبضائع وما عدا ذلك ليس إلا صحارى للدفن كما دفن موسى جيل الاستبداد في رحلة التيه؟ ويحدثنا التاريخ أن كثيراً من الدعوات وأمام ضغط هذه الحقيقة لم تكن لتحافظ على نفسها إلا بالانتقال إلى مكان آخر تعيش في صَدَفة حلزونية من الانزواء والتقوقع في رؤوس الجبال، وبذلك تفسر الجغرافيا أسرار انتشار الدعوات وتغلغل الطوائف والأديان.

يجب أن نؤسس لمجتمع إنساني منفتح فنضع القواعد التالية: تفكير بدون حدود، وتعبير بدون قيود، وكتابة وطباعة بدون رقابة، وإلغاء نظام التجسس على المواطن فلا يؤاخذ على شيء إلا بذنب جناه بدليل مادي مع توفير ضمانات الدفاع عنه، وليس لتقرير كتبه مخبر سري في جنح الظلام؟

ولكن كلماتي هذه لا قيمة لها وهي أشبه بالمواعظ الأخلاقية، جميل أن تلقى وقد تُنفس عنا شيئاً من مشاعرنا البئيسة المكبوتة ولكن السؤال المصيري: كيف نصل إلى تغيير هذه الأوضاع؟؟

يأمرنا القرآن بثلاث وصايا: (حسن الظن)، وأن (لا نغتاب) و(عدم التجسس) ونحن نعمل ضدها بحرص ودأب، فلا نحسن الظن بالإنسان والأصل عندنا أنه متهم حتى تثبت براءته، ونملأ القوائم السوداء من المطلوبين على الحدود، ونغتاب الآخر أنه رجعي أو ملحد، ونُنشيء أنظمة أمنية تجسسية بحجم الديناصورات اللاحمة

أصبحت خطيرة حتى على نفسها والحاكم بشبكة أوسع من الإنترنيت، وبدقة عمل أكثر من وكالة (ناسا) لارتياد الفضاء، في وطن لا تعمل فيه الخدمات العامة، يعيش حالة الطوارىء حتى يوم الزلزلة.

إن النظام البيزنظي الذي طوّره البيت الأموي قد انهار على سكانه، وتحولت عملية اعتلاء كرسي السلطة جلوساً على كرسي الإعدام بالكهرباء. ومنذ أيام العباسيين نرى خادماً مثل (يونس) يمتلك من مفاتيح القوة ما يقتل به الخليفة المقتدر فيُحمل إليه رأسه كما ينقل المسعودي فيبكي ويلطم؟ وانتهاءً بالاتحاد السوڤياتي الذي اضطر مرغماً أن يفكك جهاز الرعب الذي طوّره بعد أن أرسل من أنشأوه وعائلاتهم إلى معسكرات الاعتقال مثل زوجة مولوتوف، وكما يقول المثل العربي «سمّن كلبك يأكلك». وبعد انهيار جدار برلين تبين أن نظام الاستخبارات في ألمانيا الشرقية كان قد وضع عشرين ألف غرفة تنصت على المواطنين ولتكوين إضبارة أمنية لكل مواطن مثل ملائكة العذاب: ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد.

في عام ١٩٩٩م استطاع المجتمع الأميركي أن يضع أكبر شخصية سياسية تحت المساءلة في حكاية تروي عن أمة عظيمة تنجب رؤساء وتحاكمهم وتبدّلهم وتستغني عن خدماتهم فلا يعودون، في رواية عن أمة ودود ولود لعبقريات لا تنتهي؟ وفي الوقت الذي يودع العالم وراثة الملك والحكم الفردي نبدأ نحن في محاولة شحن الحياة في جثث ماتت منذ قرون كمن يفترض به أن يدخل الجامعة فيدخل مدارس محو الأمية؟

هل لا يوجد عندنا حرية تعبير أم أنه لا يوجد عندنا ما نعبر عنه؟

هل هناك عائق أمام انتشار الكلمة فهي محاصرة لا يسمح لها بالتجول، أم أنها تمارس عملية انتحار داخلي؟

السياسيون يقولون إنه لا يوجد حرية تعبير بسبب استبداد الحاكم؟! ولكن هل المعارضة ستسمح للحاكم بالتعبير لو جلست محله؟

إن قوم موسى كانوا يستعجلون مثل هذا الأمر فقالوا له: لم تتغير أوضاعنا وكنا نتفاءل أن يصير الأمر إلينا ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ [الأعراف: ١٢٩] فلم يتغير شيء والحالة هي هي؟!! كان جواب موسى أن الامتحان الأكبر هو: عندما تسقط تفاحة السلطة في أيديكم فهل ستتحولون إلى فرعون جديد بعباءة إسلامية؟ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون؟

إن إمكانية إيجاد مثقف يرى التغيير بدون أن يقعد في جيب الحاكم أو يتآمر عليه أصبحت مهمة مستحيلة على ما يبدو. وقد جاء في الإنجيل: إذا فسد الملح فبماذا يملح؟؟ وإذا كان النور الذي فيك ظلاماً فكيف يكون الظلام؟

جاء هشام بن عبد الملك إلى مكة معتمراً فأدخل عليه طاووس فخلع نعليه وتقدم ببساطة، فحياه: كيف أنت يا هشام ثم جلس؟ فغضب الخليفة الأموي حتى همَّ بقتله فنصحه من حوله بالتريث فهو في بيت الله العتيق؟! فالتفت إليه هشام وقد امتقع وجهه من الغضب فقال: ما حملك على ما صنعت؟؟ أجاب طاووس بهدوء: وما فعلت؟ قال خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تكنِّني ولم تقل لي يا أمير المؤمنين ثم جلست قبل أن آذن لك؟! فالتفت إليه

طاووس ببراءة فقال: أما خلعي نعلي بحاشية بساطك فإنني أخلعهما بين يدي رب العزة خمس مرات في اليوم ولا يغضب مني، وأما أنني لم أكنّك فإن الله كنّى أعداءه فقال تبّت يدا أبي لهب، ونادى أحباءه من الأنبياء فقال يا يحيى يا عيسى يا داود، وأما أنني لم أقل لك يا أمير المؤمنين فإنه ليس كل المؤمنين راضياً بإمارتك فخشيت أن أكون كاذباً، وأما أنني جلست بجانبك فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل جالس والناس حوله قيام؟؟؟ فزلزل هشام ثم التفت إليه ضارعاً فقال: يا طاووس عظني! قال سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول إن في جهنم حياتٍ وعقاربَ كالبغال تلدغ من لا يعدل في رعيته. ثم قام وانصرف.

٢١

التربية الديموقراطية

قصة النمر والبوم والأرنب

يعرّف آلان تورين الديموقراطية في كتابه (ما هي الديموقراطية ـ حكم الأكثرية أم ضمانات الأقلية؟) أنها ثلاثة أشياء: قواعد أولية في حق اتخاذ القرارات الجماعية، وأكبر قاعدة من المشاركة، وأن تكون فعلية وليست صورية. ولهذا فإن رصيد الديموقراطية هو وعي الأمة أكثر من صناديق الاقتراع. ونعلم من الكيمياء العضوية أن تغيير جذر الهايدروكسيل إلى مكان مُناظر يعطينا المركّب المشابه ولكن بدون فعالية، وهو أحد أسرار عمل شركات الدواء في العالم الصيدلاني. وعندما يسخر النيهوم من الصحافة العربية يقارنها بالصحافة الغربية أنها تتشابه في كل شيء مثل تشابه بيضتين، واحدة مسلوقة وأخرى خرج منها ديك يصيح على السياج.

الديموقراطية ثقافة وتربية يجب أن يتشربها الطفل مع رضاعة الحليب

ومنذ الأيام الأولى من حياته. لفت نظري الكتاب المصور الملون الذي أحضرته ابنتي القادمة من كندا وهي تقرأ لابنها البالغ ١٥ شهراً قصة (النمر والبوم والأرنب) باللغة الإنكليزية. تأملت القصة وتمتعت أنا شخصياً بها، وهي تعطينا المفتاح لفهم الديموقراطية. وتذكرت في هذا الصدد ما فعله أورويل في كتابه (حيوانات المزرعة) الذي أخرج على شكل فيلم كرتون. وقبل ذلك ابن المقفع الذي كان صاحب الفكرة العبقرية بإنتاجه كتاب (كليلة ودمنة) فأنطق الحيوانات والطيور. وكان ابن خلدون أيضاً بارعاً في استخدام مثل هذه القصص في (مقدمته) كما جاء في قصة (البوم والملك والموبذان). وأضع بين يدي القارئ هذا النموذج من تربية الطفل الكندي على الروح الديموقراطية وستكون مسلية لكل قارئ أن يأخذها لطفل حوله فيقرأها عليه.

كان النمر يتأمل صور وحوش الغابة فأدرك أنه ينتسب إلى فصيلة الأسد ملك الوحوش، فقال في نفسه: يجب أن أكون ملكاً أيضاً. هكذا قال النمر: ولكن البوم الحكيم قال: لسنا بحاجة لملك. قال النمر ولكن ما تقولون لو أن وحشاً خطيراً يعس الآن في جنبات الغابة يهددكم؟ ثم سألهم: من سيحميكم منه؟ أسقط في يد حيوانات الغابة. أعد النمر خطة بدهاء. تسلل إلى بيت الأرنب مستغلاً فرصة غيابه عن منزله فسرق غطاء طاولة ووسادة ومكنسة. ثم عمد النمر إلى هذه الأغراض فصنع منها شكل حيوان مفترس غاضب وعلقه على جذع شجرة بخيط. قال النمر في نفسه: يكفي هذا القدر من التخويف حتى أفوز بالعرش وأنصّب ملكاً. عندما اقتربت الحيوانات من الشجرة بدأ النمر بهز دمية الوحش الكاسر إلى أسفل وأعلى وبدأ بالصراخ: حيوان مفترس.. مكرراً: حيوان مفترس! انجوا بأرواحكم قبل الهلاك. ثم قام النمر بحركة مسرحية

فهجم على دمية الوحش وعاجلها بضربات من عصا أمسكها بيده، ثم انقضّ عليها فأمسك بها بإحكام وحشرها في قفص أعده للمسرحية. سكن روع حيوانات الغابة وبدأت تصفق للنمر المنتصر وتصيح: نجونا، نجونا لقد أنقذنا النمر، يجب أن نتوج النمر ملكاً علينا أجمعين. هكذا تم تتويج النمر ملكاً على غابة (المائة هكتار) وتم انتخابه بإرادة جماعية لم يغب عنها إلا الأرنب. وبدأ النمر فوراً بممارسة صلاحيته كعاهل عظيم يعلو عرشاً مهيباً ويلتمع على رأسه تاج مرصع. قال النمر: قبل كل شيء ومن الآن وإلى الأبد يجب أن نغير اسم غابتنا (المائة هكتار) فتصبح منذ اللحظة تحمل اسم (مدينة النمر) Tigeropolis. هكذا أعطى النمر أوامره الأولى. وكان الأمر الثاني أن تلون أشجار الغابة على شكل مخطط تيمناً بجلد النمر فلا يليق بها أن تخسر الصبغة الملكية وتحرم الرعية هذه الرؤية البهيجة. قال النمر: فليكن على لونين ممتعين: للرعية بالأسود والبرتقالي لا شية فيها تسر الناظرين. انهمكت الرعية في صبغ أشجار الغابة باللون الجديد وجلس النمر على عرشه يتأمل الحيوانات والطيور وهي تكد في العمل الشاق وعلى شفتيه ابتسامة الرضا. عندما انتهت حفلة الدهان ولم يعد في الغابة شجرة خضراء كانت الحيوانات مرهقة ففاجأها النمر بالأمر الثالث: ابدأوا بالتصفيق والرقص ابتهاجاً بإنجازاتي. قال الدب (بو) ـ وهو رمز مهم ومحبوب في ثقافة الأطفال في شمال أميركا ـ ولكن أقدامي متعبة يا سيد الغابة؟ أشار النمر إلى دمية الوحش بأصبعه ولم يتفوّه بكلمة. ارتعب الجميع وأدركوا بسرعة أنه ممنوع الجدال مع ملك. ولم يكن أمامهم سوى أن يتابعوا القفز بهمة احتفالاً بالانتصارات السلطانية. أثناء هذا الصخب، والرقص حام، مر الأرنب مستغرباً مما يحدث فوقف مغتاظاً لأنه رأى أشياء تخصه وهمهم قائلاً: يبدو لي أن هذا غطاء طاولتي،

وتلك وسادتي التي أنام عليها، وهذه المكنسة التي أنظف بها فناء داري، هذه الأغراض كأنها هي التي أملكها. تابع الأرنب قائلاً: إذا كان النمر قد استعار هذه الأشياء بغير علمي فيفترض به أن يستأذن قبل أن يأخذها وينصرف. سوف ألقنه درساً لن ينساه. مد الأرنب يده فاسترد أغراضه المفقودة ثم عمد إلى ورقة فكتب فيها كلمات وألصقها على القفص الفارغ وانصرف إلى بيته. مرّ البوم الحكيم فلفت نظره اختفاء الوحش من القفص ووعى ما جاء في الورقة المعلقة، ثم اقترب من النمر الملك فقرأها على مسامعه، إذ يجب إطلاع الملك على كل صغيرة وكبيرة. كانت الورقة تحمل توقيع وحش كاسر جديد متجول في الغابة يقول فيها: لقد حررت صديقي من الأسر وهو بصحبتي الآن. أصيب النمر بالخوف، فقد انقلبت اللعبة عليه وقد يكون هناك وحش فعلي هذه المرة. أطلق النمر صفارات الإنذار وصاح بحيوانات الغابة: على كل منكم النجاة بجلده بالفرار إلى شعف الجبال ورؤوس التلال. قال الدب (بو) وهو يحك رأسه بعد أن فكر ملياً: أليس علينا أن نمسك بهذا الوحش الشارد ونقي أطفالنا شر افتراسه. تابع: إن عليك حمايتنا أيها النمر الملك وإلا فلماذا ملّكناك علينا. أجاب النمر: أنت محق، ليتبعني كلكم. وبدأوا يمشون على آثار الوحشين قصصاً. كانت خطوات الوحشين تقود إلى بيت الأرنب. اقترب النمر بحذر فعاين الداخل ثم هتف: إنه الوحش في الداخل، واقتحم الباب وانقضّ عليه. كانت مفاجأة غير سارة بانتظار الجميع عندما ارتفع صراخ الأرنب بأعلى صوت: أيها النمر السارق إنها أغراضي التي سرقتها وليست وحشاً كما زعمت. شعر النمر بالخزي واعترف حقاً بأنها كذلك. ثم حاول تدارك الموقف عسى أن ينفع فقال: ولكن ما زال هناك وحش شارد آخر في الغابة يهددنا خارج هذا المكان

وهو من كتب على الورقة. صاح الأرنب من جديد: ليس هناك من وحش أنا من كتبت الورقة. قال أحد الحيوانات: إنني لا أفهم أيها الملك ماذا يجري أمامنا، هل يمكنك أن تفسر لنا ما حدث ويحدث؟ نكس النمر رأسه خاشعاً من الذل وقد أدرك أن كل ألاعيبه باتت مكشوفة وقال: عليّ أن أدلي باعتراف. أنا من صنع دمية الوحش الموهومة لأنني أردت برغبة عارمة لم يمكنني مقاومتها أن أكون ملكاً، ولقد تماديت في هذا السبيل. ثم ابتلع النمر ريقه وكرر: إنني آسف لما فعلت. قال الحصان: أظن أننا أمام اعترافك بالخطأ يمكن أن نسامحك بعد كل ما فعلت فالتوبة تجبّ ما قبلها. إنك الآن صديقنا من جديد. قال النمر وقد استطاع أن يرفع رأسه من الذل ويتأمل من حوله سعيداً: أحقاً هذا؟ ثم صرخ: إنني صديقكم قطعاً. قال الدب (بو): ولكن ماذا سنفعل بكل هذه الأصبغة التي لطخنا بها أشجار غابتنا الجميلة الخضراء، وبالرقص والتصفيق الذي أنهكتنا به؟ قال النمر: أعدكم أنني لن أعيد هذه الفعلة الشنعاء أبداً إلى آخر الدهر. قالت الحيوانات: تعالوا نعمل حفلة خلع التاج. علينا أن نتخلص من هذا التاج اللعين فهو سبب كل مصائبنا. اجتمعت الحيوانات حول النمر مسرورة، ومدت يدها إلى رأس النمر فأزالت ما وضعت من تاج، ورمت العرش إلى غير رجعة، وفرحت واحتفلت حتى مطلع الفجر. وقف النمر يتحدث في حفلة التخلص من العرش والتاج قائلاً: الحق أقول لكم إنني أشعر الآن بأفضل ما يكون. إنني نمر حقيقي بدون تزييف.. إنني الآن نمر يقفز مرحاً بدون عدوان. إنني وإن كنت لست ملكاً فشعور الأخوة أكرم وأرحم من الاستبداد. إنني الحمد لله ما زلت نمراً كما ولدتني أمي. قال الأرنب بعد هذه الحفلة المزعجة بتنهد: إنها حقيقة. ابتسم النمر للجميع بعد أن عادت الغابة إلى سيرتها

الأولى وهو يقول: أنا نمر حقيقي فريد من نوعي أما الملوك فهم كثيرون.

عادت الحيوانات سيرتها الأولى أخوة متحابين. وهنأت حفيدي أنه سينشأ في وسط تخلص من الوثنية السياسية، أما نحن فأمامنا الكثير من الوقت ونحن نقرأ قصص كليلة ودمنة وغدر العصر العباسي قبل أن ندخل العصر.

٢٢

موت مؤسسة الحرب

عيد الأضحى احتفال بإلغاء القربان البشري

لقد كان حدثاً جديداً في العالم أن طلبت إيطاليا من تركيا إلغاء حكم الإعدام في الزعيم الكردي (أوجلان) في إشارة خفية كشرط لقبولها بالانضمام لعضوية السوق الأوروبية المشتركة؛ فهذا حدث جديد في الدنيا. ولم نعهد من قبل أن تطالب دولة دولة أخرى بإلغاء حكم الإعدام. لقد حدث سابقاً أن تدخلت دول وشخصيات بطلب الرأفة لإنقاذ شخصية سياسية، وحدث أن ألغت بعض المجتمعات حكم الإعدام، ولكن ما نراه اليوم من أن مجتمعاً يطالب مجتمعاً آخر بإلغاء حكم الإعدام فهي ظاهرة جديدة في تاريخ الإنسانية. وليس هذا فحسب، فكما تضغط حكومات على أخرى فقد برز في العالم مؤسسات من نوع (حقوق الإنسان) و(العفو الدولية) وظهرت (اتفاقية جنيف لأسرى الحرب) بهدف لجم غول الدولة وفرملتها عن استباحة الأفراد. والعالم يتقدم إلى

توقف الإفساد في الأرض وسفك الدماء ولم تعد الحرب ظاهرة يرحب بها، وكانت حرب إريتريا مع الحبشة عام ١٩٩٩م، أو تدمير غروزني على يد الروس مدعاة للتقزز. فلم يعد العالم يسر بهذه المناظر أو يصفق لها ويهلل، فقد وصل الخط الشمالي من الجنس البشري إلى قناعة راسخة بالتخلي عن الحرب كأسلوب لحل المشاكل بعد أن خاض بحراً من الدماء والدموع. وتبقى الحرب هي أسلوب المتخلفين في فك اشتباكاتهم. وعندما يتعطل العقل يغلظ الصوت ويبدأ عمل العضلات وتتحدث البندقية.

إنها رواية بائسة في تطور البشرية، فبعد كل العناية بالإنسان، عشرات السنين من حنان الأم وعطف الأب لكائن هش ضعيف تنهي حياته طلقة مجرمة، ولعل أفضل من يعبر فيبكي على هذه الخسارة التي لا تعوض هي الأم، ولكن نجوم السياسة لا يكفون عن الاحتفالات بمواسم البطولة في طقوس مكررة لتقديم القرابين البشرية ويريدون من الأمهات تلقيم المدافع بلحم الأبناء بدون دموع وبدون توقف كنار جهنم تقول هل من مزيد.

إلا أن السياسيين كانوا على موعد غير سار مع العلم، فقد انقلب العالم وبدأت طبول الحرب تخفت، وكانت المفاجأة من أتون القوة على نحو غير متوقع مقلوب تماماً، فبقدر ما راهن العسكريون على آلة الحرب في التاريخ بقدر ما خذلتهم هذه الآلة، وكان هذا التحول بعد ولادة السلاح النووي بأجياله الثلاثة، عندها أدرك السياسيون والعسكريون أنهم دخلوا عصراً جديداً مرغمين ولا يستطيعون أن يستخدموا كل السلاح الفتاك. وبلور هذا غورباتشوف في كتابه (البريسترويكا) بجملة مختصرة: إن ما تحمله

غواصة نووية واحدة من الطاقة النارية يعادل أكثر مما استخدم في كل الحرب العالمية الثانية!

إن موت مؤسسة الحرب اقتراب من (علم الله) في الإنسان بأنه سيقضي على الفساد وسفك الدماء. فعندما أعلن الرب عن مشروع إيجاد خليفة له في الأرض على صورة الإنسان ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة: ٣٠] قالت الملائكة ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك﴾ ولكن الجواب الإلهي فاجأهم بأن الرهان رسا عليه لأنه سيحقق علم الله فيه ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ وهذا الجانب يصعب فهمه لولا التطور العلمي الكبير لآلة الحرب وتقنيات الأسلحة التي لم يعاصرها إلا جيلنا خلال كل مسيرة الحضارة، فبقدر نمو آلة الحرب تكنولوجياً بقدر استعصاء حل المشاكل بالقوة وهو ما توصل إليه عالم الكبار، ولكن المتخلفين لم يستوعبوا بعد صدمة هذا التطور وما زالوا يحلون مشاكلهم بالسلاح في الوقت الذي ربطوا مصائرهم بتقنيات الكبار من جديد.

إن إشعال الحرب سهل ويمكن أن يبدأه الأقزام ولكن الخاتمة بيد عمالقة العصر الجديد، والحرب العراقية ـ الإيرانية نموذج صارخ لهذه الحقيقة، فقد استمرت الحرب لثماني سنوات عجاف أطول من الحرب العالمية الثانية يضخ في عروقها الحياة من السلاح المتطور ثلاثون دولة، وبقدر ما كان الخميني بارعاً في إنجاز الثورة بقدر ما فشل في الحرب. ويجب أن ننظر في حريق هيروشيما جانباً من الخير لأنه من وهج هذه الجهنم الثورية خرج نور السلام العالمي على شكل كائن يترنح لم يحقق توازنه بعد إلا في رأسه الشمالي في الأعلى، في الوقت الذي ترتعش فيه وتختلج أطرافه الجنوبية السفلية

من حمّى الحرب! وكما يحصل للكائنات عندما تحملها الأرحام كأجنة ثم تولد ثم تأخذ اسمها بعد أن أصبحت كائناً سوياً، أو على العكس عندما يستوي الموت وتبقى الجثة مع ذلك حارة إلى حين، كذلك مؤسسة السلام والحرب، فقد ولد السلام العالمي وماتت مؤسسة الحرب وشبعت موتاً وفاحت رائحتها وأصبحت مقرفة لا تدعو لإلقاء القصائد العصماء ومراثي البطولة على أرواح شهداء في كل جانب، وتوقف الشمال نهائياً عن حل مشاكله بالسكاكين والرصاص إلا في بؤر من بقايا تنتسب إلى العصر الوسيط كما في الصرب الذين يعيشون جغرافياً في أوروبا وتاريخياً قد توقفوا عند عام ١٣٨٩م على سفوح كوسوفو متجمدين في التاريخ عند معركة (قوص أوه ـ أمسل فيلد) التي افتتح المجرم سلوبودان دعايات حزبه عام ١٩٨٩م بمناسبة مرور ٦٠٠ عام على مرورها.

لقد كان دخول الإنسان الثورة الزراعية قبل عشرة آلاف سنة نعمة ونقمة، فبها شبع الإنسان من جوع جوعاً وولدت الحضارة وتم تقسيم العمل ونشأت الاختصاصات، ونشأ مع انبثاقها جنباً إلى جنب الاستغلال وطغيان الدولة وتألّه الحكومات والحروب المنظمة وتطوير السلاح وسفك الدماء واضطهاد المرأة، ومع تطور العالم وصل إلى حافة مفاجأة ثانية لم يحصل في التاريخ نظيرها عندما ألغت القوة القوة ولم يعد السلاح وسيلة لحل المشاكل مع أنه أصبح أكبر من ديناصور لاحم.

أمام ضغط هذه الحقيقة بدأ العالم في التكيف الجديد، ومنه السلام العربي ـ الإسرائيلي الذي يتم ببطء وبالتقسيط كشرب السم، يقول أحسنهم طريقة أنها ضرورة سياسية للأنظمة ولم يتصوره العرب في

أشد كوابيس الأحلام، ولكنه يولد بمعاناة من واقع هذا الانقلاب العالمي.

إلا أن هذا الدواء الذي يتجرعه العربي ولا يكاد يسيغه لا يستوعب أن يكون إيقاف الحروب العربية ـ العربية هو خيراً زكاة وأقرب رحماً.

إن عيد الأضحى مناسبة مكررة للتذكير بإلغاء الفساد في الأرض وسفك الدماء حتى لو كان للقصاص، لأن العفو أفضل من القصاص والحدود الشرعية مفتوحة باتجاه العفو جميعاً مما يدل على أن هدف الدين هو الضبط الاجتماعي أكثر من القتل، ويروى في تفسير قوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ [الشورى: ٤٠]. يروى أنه قال الرسول (ص): «ينادي يوم القيامة مناد قائلاً: إلا فليقم من كان أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا وأصلح... ثم تلا قوله تعالى فمن عفا وأصلح فأجره على الله».

إن الحج إلى البلد الحرام الذي فيه مقام إبراهيم الذي يحرّم فيه القتل بما فيه الصيد وقطع الشجر هو دورة سنوية لشحن روح العالم بتحويل كل الكرة الأرضية إلى معبد سلام من الإشعاع الذي يحمله الحجاج من كل المعمورة بأن الكعبة يجب أن يكبر حجمها حتى تصبح بحجم الأرض، لا تنتهك فيها حرمة الروح التي نفخها الله في الإنسان، فهذه دعوة عالمية لإلغاء العداوات والأحقاد والأغلال ودعوة للتوبة من أذية الناس لبعضهم البعض ﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ [البقرة: ١٩٧].

إن قتل الإنسان إهانة للإنسانية لأنه صار ممكناً تغيير ما بالنفوس من

الغل والكراهية. علينا إذاً أن لا نقتل المريض بل نعالجه فهو أولى بالرحمة من الإفناء، كذلك من كان في قلبه مرض فيمكن معالجته بالإحسان إليه ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم﴾ [فصّلت: ٣٤].

وفي قصة صراع ولدي آدم تمكن الطرف المعتدي من القتل في الوقت الذي رفض الثاني هذا الأسلوب في حل المشاكل مؤثراً الموت. ولكن المعتدي انقلب أمام هذا الموقف في صيرورة من الشعور بالخسارة إلى أن أطبق عليه الندم، واليوم تندم الكنيسة على ما جنت يداها في العصور الوسطى فتباشر نقداً ذاتياً في تصحيح مسيرتها من قتل العلماء والإساءة إليهم فأعادت الاعتبار إلى غاليلو عام ١٩٩٢م ولكن جيوردانو برونو رجل حرية الفكر الذي آمن بكون لانهائي يعج بالحياة لم يتزحزح موقف الكنيسة منه حتى الآن لأنه يصطدم بجذر العقيدة المسيحية عن مسيح جاء إلى الأرض، ولكن ما بال أكوان لانهائية بدون مسيح!

إن الحج هو من جهة ذكرى إعلان إبراهيم الحليم في إلغاء القربان البشري واجتماع كل الناس بكل اختلافاتهم لتوليد عملية السلام العالمي، وهو كذلك دعوة إلى إعلان الواجبات التي هي مقدمة منطقية إلى إعلان الحقوق لأن الواجبات تتحول إلى حقوق الآخر تلقائياً، ولأن الواجبات والحقوق هما وجهان لعملة اجتماعية واحدة.
إن الحج هو ذكرى إعلان الشريعة الإنسانية «كلكم لآدم وآدم من تراب. لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى. إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا.. وأوصى بالمستضعفين والنساء خيراً.. ثم ختم لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

ونحن اليوم نعيش الغدر فلا نثق ببعضنا ولا نحترم الأموال والدماء ولا ضمانة لأي إنسان أو شيء في أي زمان أو مكان، نؤله القوة ونخضع للسيف، فهو أصدق إنباء من الكتب في حدّه الحد بين الجد واللعب، وإذا مشينا مع نسائنا تركناهن خلف ظهورنا مسافة أربعة أذرع في كاريكاتور عن دونية المرأة، ونحن نضرب رقاب بعضنا بعضاً براجمات الصواريخ، ونهدم المدن على رأس أهلها، ونملأ الأقبية بالمعتقلين، ونقضي على بعضنا باستعمال ما هو أشد من المبيدات الحشرية.

٢٣

يوم السلام

قصة مالكولم إكس

جاء في السيرة الذاتية لـ (مالكولم إكس) Malcolm X الزعيم الأسود المسلم في أميركا أن زيارة الحج كانت انقلابية في حياته فدخل مكة وهو يكره البيض وعاد من الحج وقد تلاشت من قلبه كراهية الإنسان الأبيض. ففي الحج التقى بخليط مدهش من الألوان والثقافات والأعراق واللغات وبحضور الجنسين. وبذلك نبّهه مؤتمر الحج العالمي إلى الصفة الأولى لهذا اللقاء السنوي أنها بوتقة تتمازج فيها كل الألوان ليخرج الإنسان منها بدون لون قد تحرر من التعصب للون أصله من تراب، ولم يعد ما يرفع الإنسان لون جلده أو انتماؤه العرقي أو تميزه الجغرافي أو مصدر ثقافته أو جنسه أو يكون ذكراً أو أنثى؛ ففي الحج تزول كل الفوارق وبتطبيق ميداني عملي؛ فيخلع الناس ملابسهم الملونة ويتشحون بالبياض ولا يغطون رؤوسهم

فيخرجون شعثاً، ولا ينتعلون أحذية فاخرة فيمشون أقرب إلى الحفاة ويرجعون إلى ربهم كما ولدتهم أمهاتهم يغلفهم لباس واحد أبيض مشترك يذكّر بالكفن والقبر واجتماع يذكّر بالحشر يوم القيامة والميزان. وهكذا فالصفة الأولى للحج أنه إنساني، ودعوة إبراهيم عليه السلام لم تكن لطائفة محددة بل كان أذانه للناس كافة ﴿وأذّن في الناس بالحج﴾ فجاء اللفظ مكرراً مشدداً (الناس) أن يأتوا من أقصى المعمورة من كل فج عميق في طائرة كونكورد وقطار مغناطيسي وسفن عابرة للقارات، ولعل ما يميز الحج في هذه النقطة أنه لا توجد مدينة على وجه الأرض إلا وقد جاء منها حاج وبذلك يكون الحج مؤتمراً عالمياً للتجمع البشري.

اختط الإسلام عدة مؤسسات تشكل دوائر تزداد اتساعاً للارتفاع بالإنسان فيلتقي بأخيه في مسجد الحي كل يوم، ويجتمع بالناس على دائرة أكبر في الجامع كل أسبوع، ثم تخرج المدينة عن بكرة أبيها في العيدين بما فيها المرأة الحائض دعاها الإسلام لحضور الخطبة بدون صلاة، وتأتي الدائرة الأعظم كل سنة للقاء بشري يضم وفوداً من كل الأرض. ولكن المسلمين أضاعوا الكثير من المعاني الجوهرية لكل هذه اللقاءات؛ فلم يعد المسجد ينبض بالحيوية، وتحولت صلاة الجمعة في بعض بلدان العالم الإسلامي إلى مصادر حيث الكلام لصالح خطبة مكتوبة سلفاً تحت عين رقيب صارم يدقق في الكلمات وظلالها يتلوها موظف على رأس جمهور نصف نائم شارد الذهن يسمع بدون أذن واعية خطبة لا علاقة لها بهمومه. لا غرابة أن اعتبرتها إيران سابقاً أنها خطبة وعّاظ السلاطين لا تستحق عناء الاجتماع حتى أحيتها الثورة الإيرانية فأدى آية الله الطالقاني أول صلاة جمعة في طهران بعد نجاح الثورة وهو اجتهاد نرويه ولا

ندعو له ولكنه لم يأت من فراغ، وأما صلاة العيدين فمع الالتفات إلى الجانب بقول (السلام عليكم) يبدأ الناس يتسللون لواذاً لا يريدون سماع كلمات خطيب يحدثهم عن مواضيع لا صلة لها بقضايا الأمة المصيرية، ولو كانت صلاة الجمعة مقلوبة على هذا الشكل تبدأ بالصلاة ثم تختتم بالخطبة لما بقي أمام الواعظ من يستمع إلا الواعظ نفسه. وليس كل العالم الإسلامي على هذه الشاكلة ولكنها صور نجتمع بها أحياناً. وأما مؤتمر الحج الأعظم فقد خسر بعض معانيه أيضاً مع أنه مؤسسة كونية لرموز ضخمة. إن كثيراً من المسلمين يمارسون هذه الطقوس ويغفلون عن هذه المعاني الكبيرة، والله غير حريص على الذبائح ورمي الحصيات بقدر التقوى ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾ [الحج: ٣٧]. يكمن خلف هذه التظاهرة السنوية الكونية مؤتمر لا يقبل الإلغاء أو التأجيل في مؤسسة بناها إبراهيم (عليه السلام) قبل أربعة آلاف سنة فكانت أول بيت للناس ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً﴾ [آل عمران: ٩٦] ومع وضع البيت العتيق في واد غير زرع كان إبراهيم (عليه السلام) يدشن تشريعاً صمد عبر آلاف السنين أن لا يسفك دم الإنسان، وكانت الكعبة حراماً مكانياً وكانت الأشهر الحرم الأربعة ثلث امتداد الزمن يستظل بها الناس بأوقات سلام تتوقف فيها آلة الحرب في غابة يتخطف الناس من حولهم ويقتلون ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وكان هدف إبراهيم (عليه السلام) أن يزرع فكرة السلام كبذرة في بقعة محدودة تكبر مع الزمن إلى شجرة باسقة طلعها هضيم تُظلّل كل الأرض في مشروع عملاق تتحول فيه الكرة الأرضية مع الشحن الدائم من موسم الحج السنوي إلى كعبة عملاقة بحجم الكرة الأرضية، وفكرة الأشهر الحرم ترميز عميق إلى أن تكون بداية لمطّ هذه الأشهر وسحبها على مدار السنة

فتتحول السنة كلها إلى أشهر حرم لا يسفك فيها دم الإنسان تحت شعار ما أنزل الله به من سلطان.

وأشار القرآن إلى قدسية هذه الأشهر وأن التلاعب بها لإعادة إشعال الحروب هو زيادة في الكفر ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يُضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرّم الله﴾ [التوبة: ٣٧] فحتى يستمروا في الحرب كانوا يغيرون مواقيت الأشهر الحرم بالتلاعب بالوقت تأخيراً ودفعاً، وهو قتل كامل لهدف هذا التشريع. وتأتي فكرة القربان لتتويج هذا المعنى الضخم، فبعد إنقاذ إسماعيل بذبح عظيم بطلت مؤسسة التضحية بالإنسان كقربان وتم استبدالها بالتضحية بالحيوان. ولكن بعض المسلمين يمارسون الطقوس ويتجمدون في حرفية النصوص على حساب هذه المعاني الجوهرية.

إن الإعلان الإبراهيمي إنساني عالمي للبدء بمشروع السلام على وجه الأرض، وفي القلوب المسرة، في نقطة بعينها من أجل تعميم هذه التجربة الرائدة عبر آلاف السنين ونقلها إلى الجنس البشري. وفكرة الأشهر الحرم تحمل معنى ضمنياً: أن يتفق الجنس البشري على إيقاف الحرب بأي ثمن في أوقات بعينها من أجل مد هذه الفترة ما أمكن إلى أطول فترة ممكنة حتى تنقلب السنة كلها إلى سلام ولا يضحّى بالإنسان كقربان لأي صنم من فكرة وشخص.

عيد الأضحى ذكرى إبراهيم (عليه السلام) الذي أُبطل على يديه القربان البشري، فليكن هذا العيد الكبير عند المسلمين عيد السلام وعيد اللاعنف وعيد اللاإكراه وعيد إلغاء القربان البشري وعيد الأخوة الإنسانية وغفران الذنوب؛ لأن كل قتل في العالم صار قرباناً

بشرياً، ولم نعد في حاجة إلى القتل لحل المشاكل، ولا يعالج الطبيب مريضه بالقضاء عليه بل بسقيه الدواء أو إجراء الجراحة المناسبة، وماتت مؤسسة الحرب في العالم غير مأسوف عليها أمام حسرة البعض وذهول الآخرين عن مقاصد تطور الكون، ونحن نغفل عن مقاصد الشريعة إذ حتى الاقتصاص من القاتل قال فيه النبي محمد (ص) في من يريد أن يقتص من قاتل أخيه: «إن قتله فهو مثله».

لم يعد من حاجة لقتل أي إنسان ويمكن أن يمرر الإنسان بدورة تدريبية يخضع فيها لألوان من الجراحة النفسية تماماً كما في جراحات المعدة والشرايين يتم من خلالها تغيير نفسية المجرم وتعقيم الجو الذي تفرخ فيه الجريمة وتشتد. والشريعة غير حريصة على القتل للقتل ولا مصلحة لها بذلك بقدر ضبط الأمن في المجتمع وحماية الفرد. وهذه الآلية من علاقة النص بوظيفته انتبه لها ابن قيم الجوزية عندما اعتبر أن مناخ العدل هو مجتمع الشريعة «فحيث العدل فثم شرع الله» وأن (الحرام) ما كان أكثره أو كله ضاراً، فأعطى بهذا الحركة العقلية مضامين فلسفية لآليات عمل النصوص، وانتبه الفيلسوف والفقيه (ابن رشد) لهذا المعنى فكتب «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال». إن فهم النص خارج إحداثيات عمله يجعله يفقد وظيفته أو يعمل في غير مجاله.

مالكولم إكس، بعد أن عاد إلى أميركا كان قد تبدل جذرياً وشعر مبغضوه بخطورة هذا التحول فرأوا حل المشكلة بسفك دمه، وعندما حذّره من حوله أن منيته قد دنت وأصبح القدر قاب قوسين أو أدنى منه يتدلى فليحاول أن ينجو بجلده كان جوابه: «أعرف أنني لن أنجو لأنني أنا الذي دربتهم وأعرف ما يقدرون عليه».

كان مالكولم إكس قد ودع منذ زمن بعيد الجهالة وقرأ العالم وفقه التاريخ في سجنه الذي دام سبع سنوات وتتلمذ على يد فلاسفة كبار وبدأ يحاور الأميركيين بأدوات ثقافتهم، وأدرك أخيراً قبل مصرعه بوقت قصير أن الروح السلامية تمثل قيمة محورية في الإسلام، وكان قد بدأ بالاقتراب والتأثر من الأسود الآخر (مارتن لوثر كينغ)، وكانت النهاية لهما أن قتلا بالتتابع كما حصل من قبل مع غاندي الذي انتهت حياته بالرصاص على يد هندوسي متعصب.

لم يهرب مالكولم إكس من الموت ولم يجبن، وفي إحدى محاضراته التي كان يكهرب بها إرادة الجموع ويزلزل كيانها أطلقت عليه مجموعة النار فأردته صريعاً أمام زوجته وبناته الصغيرات.

سقط الداعية (إكس) مضرجاً بدمه باسطاً يده وكأنه ينطق بالآية الكريمة: ﴿لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين﴾ [المائدة: ٢٨].

ليتني.. ليتني ولدت على أرض الأعداء

منذُ وَعَيْتُ الدُّنيا..
عرفتُ أَصْلي وفَصلي..
حملتُ في فكري..
كلماتٍ تمكّنتُ..
من قول بعضها..
خفت من البوح بأكثرها..
أمّا الخافق الذي لا يتوقفْ..
فكان ولا يزالُ..
ينوء بالأحمالِ.. بالأَثقالْ..
نفسي انهارت فتحطّمتْ..
من الظّلم والإذلالْ..
فأصبح كياني كله..
مزرعة للطغاة والطغيانْ..

يُنبت الحقد والشرّ..
يَحصدُ الانتقامَ..
في أصْلي وفصْلي.

* * *

أنفي لا يستنشقُ..
إلا ما حوله من هواءْ..
الهواء من فوقي..
يطولُ ويطولْ..
يصل إلى عنان السماءْ..
تحتي ليس صلباً..
أقف على البراكينْ..
أحيا وسط الزلازلْ..
تفتك بي الفتنْ..
يلفّني إعصارُ شيطانٍ عريدْ..
يدفعني مرة إلى أقصى اليمينْ..
أخرى إلى أقصى اليسارْ..
وأنا مُعلّق تصفعني..
روائح عفونة الفسادْ..
يُثبتني إصراري والعنادْ..
لا.. لا.. ليتني فاقد الحواسّ.

* * *

أظلمتْ عيناي..

ظننت أنّيَ أعمى..
أبداً لا أرى..
غير الظّلامْ.. غير السّوادْ..
لا.. لا.. لست أعمى..
رأيتُ بأُمّ عيني..
الغدر يدلعه النّفاقْ..
رأيتُ.. يا هول ما رأيتْ..
رأيتُ أرض الدياناتْ..
الصمودَ والتصدّي والتحدّي..
تُنبت أحشاءها تحت الشمس..!
في رابعة النهارْ..!
عشباً أصفر بلون الموتِ..
بلَون القروحْ..
والأرض أرضنا يفلحها..
قوم يأجوج ومأجوجْ..
يبنون السّدودْ..
يحرموننا من الماءِ..
من الحياة..
رأيتهم بأمّ عيني..
على طاولة المفاوضاتْ..
يقايضون أجساد أبطالنا..
رفاة وقبور شهدائنا..
بمناصبَ ومقاعدَ مسجونة
في زنازين الأعداءْ..
لا.. لا.. ليتني أعمى.

• • •

ماذا تسمع أُذُناي..!؟
أصخْتُ السمعْ..
لا.. لا.. ليتني أصمّ..
سمعتُ أَناشيدَ الاستسلامْ..
تصاحبها طبول الانكسارْ..
تلعنها جموع تؤمنُ..
بالموت أو الانتصارْ..
والرّحى التي كانت تدورُ..
تدورُ لتطحن الأعداءْ..
صارت تنبح بذعرٍ..
ككلابٍ خافتْ من زلزالْ..
وسمعت.. يا هول ما سمعتْ..
سمعتهم كلّهمْ..
يسبّون الإرادةْ..
يلعنون الحرّيةْ..
يغنّون للاستسلامْ
يطربون لأغاني الانهزامْ..
لا.. لا.. ليتني أصمّ.

• • •

آهٍ.. آهٍ وآهٍ..
من لساني وفمي..
من كلماتٍ ينطقُ بها..
لساني وفمي..
نَضَجَتْ كلها..

في جحيم فمي..
على موقد فمي..
تحولت كلُّها..
كلماتي وجملي وعباراتي..
إلى بصاقٍ مطبوخٍ..
بالعزّة والكبرياءْ..
يحتقر كمْ ويزدريكمْ..
يصفع به وجوهكمْ..
الأخوة قبل الأعداءْ
وأنا واثقٌ أنّكُمْ..
ستسمّونَ بصاقي إرهابْ..!
فأنتم.. كلكمْ.. نعم كلكُم..
لا أستثني أحداً منكمْ..
ساومتمْ ثم بعتمْ..
أرواح الشهيدات والشهداءْ..
أجساد المسجونين الشرفاء.
حزن وجوع اليتامى..
حيرة الكهول الضعفاءْ..
بِغتم التّرابَ والانتفاضةْ..
وأطفال الحجارةْ..
مقابل حفنة من الوعودْ..
مناطق وبقع من سرابْ.
تباً.. تباً.. تَباً لكمْ..
الويلُ.. الويلُ لكمْ..
الخونة هم أنتمْ..
أنتم الظلم.. أنتم الاستبدادْ..

ليتني.. ليتني تكوّنتُ..
في رحم الأعداء..
ليتني.. ليتني ولدتُ..
على أرض الأعداء.

ربما.. تجد الجوابْ..

من يقطّع بيده القذرة الأغصانْ..؟
من يحيط الجذوع بالسمومْ..؟
من يسرّب الملح إلى الجذور..؟
من يُجبر الطيور على الهجرة..؟
إلى مرابع البخلاء..؟
من يَحرث الزهور في الحدائقْ..؟
من يسوق الناس بالعصا..
إلى المساجدْ..؟
من يشوه عقول الأطفالِ..
في المدارس..
من يعرّي أرواح الشبابِ..
في المعاهد والجامعاتْ..؟
من يغتال الصبا ويصادر الفرحْ..؟

يلغي السرور والمرحْ..
من ينهبُ ثروات الشّعوبْ..؟
من يلطّخ بالعيوبِ وجداننا..؟
من يحفر الثقوب على لافتاتنا..؟
من يسلّم المتطرّفين راياتنا..؟
من يكبّل الحرية ويضع القيود
في معصمِ الاعتدالْ؟.

* * *

البعض يقولْ..
النصارى فعلوها..!
وبعض آخرْ..
يلعلع في المجالسْ..
ما سمع من المعتوهينَ المخدرينْ..
أن اليهود هنا وهناكْ..
درسوها وحفظوها..
رسموها وفصّلوها..
لكي نلبسها من قمة الرأسْ..
إلى إصبع القدمْ.

* * *

النادر من بعضنا..
ندرة حملٍ في غابة ذئابْ..
أو ندرة ماءٍ..

في أودية رِمالْ..
يثبتُ ويؤكِّدْ..
أن العلة التي فينا..
المصيبة التي حلّتْ بنا..
هي مِنّا وفينا..
أن العلاج والدّواءْ..
هو أن نُنقّي أرواحنا وأفكارنا..
النتنة السوداء..
نغسلها لنُطهّرها..
لننظّف ذواتنا..
ونقدس حريتنا..
ونحترم شعوبنا..
وندعو إلى كلمة السّواءْ.

• • •

وبعد.. هل أنت نادرٌ..
هل أنت فريدٌ..
إن كنت تظنّ ذلكْ..
فاقرأ مرّة أخرى..
كل هذه الكلمات..
أجبْ بصدقٍ وأمانة..
على كل الأسئلةْ..
فلربما تجد الجوابْ..
في الحقّ وفي الحرّيةْ.

في كل أرجاء الوطن..

في قاع الحبِّ الآسنْ..
تغرق.. تتجمّدُ ضحكاتْ..
تستنجد بالحزن لتطفو
تصرخ بالهجرِ لتعلو
بفمٍ يبتلع مرارات القهر.. فيمحو..
منَ الذاكرة الذكرياتْ..
فتعود لتغرقَ..
في قاع الحبِّ الآسنْ.

• • •

في سجن الوجدِ الفاسدْ..
جسدي ينكمش ويتضاءلُ..

من بطء القربْ..
جسدي يتمدد كالثعبانْ..
يخرج من ثقب الجدران..
يبحث عن وجدٍ حالمْ..
قُبض عليهْ..؟
حُبس في بئرٍ غائرْ..
حُكم عليه بمائة عامٍ..
مع الأَشغالْ.

* * *

في الفراغ الساكنْ..
في الهواء.. في الفضاءْ..
في اللامتناهي علقوني..
على محطة فضاء صلبوني..
قلعوا عيوني.. أَخصوني..
وضعوا بيوضي مكان عيوني..
فصار كل ما أرى..
منتصباً.. منصوباً بالفتحهْ..!
بلا عقلٍ.. بلا فكرٍ..
بلا حلم.. بلا أملٍ..
في الفراغ الساكنْ.

* * *

في معتقل الأسبابْ..

تحمل الأسباب علامات الاستفهامْ..؟
بدون نكاح..
السبب ينكح نفسهْ..
يحملُ فيلدُ..
ملايين علامات الاستفهامْ..
في معتقل الأسبابْ..
لا سبب يفكّرْ..
لا سبب يجيبْ..
لا تعرف عناوينَ علامات الاستفهامْ.

* * *

هل فهمتم ما أقصدُ..
بقاع الحبِّ الآسنْ..
بسجن الوجدِ الفاسدْ..
بالبئر الغائرْ..
بالفراغ الساكِنْ..
وبمعتقل الأسبابْ..؟
إذا لم تجدوا الجوابْ..
إبحثوا عنهُ..
في كل أرجاء الوطنْ.

لا بدّ أن تكونوا.. مثلي..

تجتاحني الأعاصير..
إعصارٌ اسمه القلق..
يرسم بحبرٍ ملعونْ..
في سماء ليلي المخيفْ..
لوحة تنطق بالأرقْ..
يلعب بي.. يحتقرني..
يغرقني في بحرٍ هائجْ..
يموجُ بالكوابيسْ..
تدفعني إلى الظنونْ..
تصفعني بالإحباط والكآبهْ..
تجرّني إلى حافة الجنونْ.

• • •

تجتاحني الأعاصيرُ..
إعصار اسمه الماضي..
استولى على روحي..
تكالبَ على حريتي..
أكل بهدوءٍ فكري..
ابتلع بسرعة قناعاتي..
فصرت رهينةً لبشرْ..
يرعبني بفكرٍ أصفرْ..
كقيءٍ أسودْ..
بغيضٍ.. عنيدْ..
جلبه من ماضٍ بعيدْ..
يقدّس شعوذات الماضي..
يقسرني على العيشِ..
في عهود الظلام..
يلعن هذا العصر..
يعلن بوقاحة وينادي..
أغلب شعوب الأرضْ..
كفرة.. مشركونْ..
يوهمني.. يرسخ في كياني..
قناعات وثوابتْ..
بأنه وأمثاله..
همزة الوصلِ..
بيننا وبين الله..
فيوقعني بإصرارٍ خبيثْ..
في الشركِ بالله.

• • •

تجتاحني الأعاصيرْ..
إعصار قديم جديدْ..
اسمه التطرف والرفضْ..
فلا مساحة للحوارْ..
لا مليمتر للاعتراضْ..
الحل الوسط.. باطلْ..
الخضوع والإذعانْ.. حقٌّ واضحْ..
الصخبُ والضّجيجُ الفاضحْ..
كلماتٌ بريئة تنطلق من مآذنْ..
أمّا الرأي الآخرْ..
فحرامٌ.. حرامٌ وحرامٌ..
أن تكون له منابرْ..
مع أن الله..
جلّت قدرته وقراره..
أطلق للشيطان الأكبرْ..
حرية الرأي الآخرْ.

* * *

تجتاحني الأعاصيرْ..
إعصار أبدي لا ينقطع..
اسمه.. هكذا وجدنا آباءنا..
وإنّا على نهجهم سائرونْ..
أرفض هذا النّهجْ..
هذا الطّرحْ..
أنا ابن هذا العصرْ..

أنا من عباد الله..
لست عبداً لبشرٍ..
سكنت أجسادهم القبورْ..
منذ مئات السنينْ..
فلا يحق لأحدٍ.. اليوم والآنْ..
في هذه اللحظةْ..
أمس القريبْ.. أمس البعيدْ..
في القادم.. في المستقبلْ..
أن يدّعي الربوبيةْ..
أن يهبَ.. يصادرَ..
هبة الخالق الأعظمْ..
الحرية لكل البشرْ..
فلا نسبية أبداً..
في الحق والحريةْ..
فالحقُّ حقٌّ مطلقٌ..
هو الله..
والحرية حقٌّ مطلقٌ..
لكلِّ البشرْ.

* * *

إذا لم تجتاحكم الأعاصيرُ..
كما اجتاحتني..
فأنتم تأكلون وتشربونَ..
تتزاوجون.. تتوالدونَ..
كالحيواناتِ.. كالأشجارْ..

كالزواحف.. كالحشراتْ..
تزحفون على أربعٍ أو أكثرْ..
وعندما تتساوى أجسادكمْ..
بالترابِ.. بالعدمْ..
لن تتركوا في الحياة..
أي تأثير أو أثرْ..
أما إذا كنتم مثلي..
فلا بدّ أن تكونوا مثلي..
مصابين بالجنونْ.

العذراء...؟

الحرية حسناء لا مثيل لها..
من يتآلف معها.. من يحبها..
يصنع المعجزات بها..
الحرية نزلت إلى الأرضِ..
من سابع سماءٍ مع آدم وحواءْ..
أنجبتْ.. وستنجب حواءْ..
بلايين البشرْ..
بقيتْ وستبقى الحرية..
حسناء فريدة وعذراءْ..
من أول فجر في الحياة..
إلى آخر ثانية في الحياة.

• • •

بما أن النسبية ليست في الحقّ..
فهي أيضاً ليست في الحريّةْ..
فالحق حقٌّ مطلقٌ هو الله..
والحرية حقٌّ مطلقٌ لكلِّ البشرْ.

* * *

حاولوا وسيحاولونْ..
الجبابرة والطغاة..
أن يلمسوا كرامتها..
أن يقللوا من قدرها..
أن يمسّوا عِزّتها..
أن يخدشوا عذريتها..
فسالتْ وستسيل دماءْ..
في كل الدُّنيا كالأنهارْ..
فالحرية عذراءٌ مقدّسةْ..
من يهينها يُهانْ..
من يسبّها يندمْ..
من يلعنها يُجندلْ..
من يبدأ بها لا ينتهي..
إلا في أعلى العلياءْ..
هي سلاحٌ منحنا إياه الوهّابْ..
لنعلن للظلم والقهر..
لا.. لا.. لا..
ولأي كلام.. ولأي مقالْ..
في أي زمان.. في أي مكان

فالله الرزاق الخبيرُ البصيرْ..
قد ضرب لنا الأمثالْ..
فشاء البارئ العليم..
أن يخلق من يقول لعزته..
لا.. لا.. لا..
فلم يسجد لآدم إبليسْ..
عندما سجدت الملائكة لأمر الله
لم يقتله.. لم يحرقه الله..
تركه يغوي البشر إلى يوم الدينْ.

* * *

ألا يعتبر البشرُ..؟
بما ضرب الله لنا من أمثال
لا.. لن يعتبروا..
اقتتلوا وعذّبوا وعُذّبوا
لصيانة وتقديس الحريهْ..
لاغتصاب وتمزيق الحريهْ..
ولكن الحريةَ ستبقى دائماً..
عذراء مقدسة إلى يوم القيامهْ.

فهرس الأعلام

أ

إبراهيم (النبي) ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٢
ابن أبي أصيعة ١٧٩
ابن بطوطة ١٤٣
ابن جابيرول ١٨٤
ابن خلدون ١٠٤، ١٤٣، ١٤٤، ٢١٥، ٢٥٦
ابن خلكان ٢٠٢
ابن رشد ١٨٠، ١٨٤، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٧٣
ابن سينا ١٨٤
ابن هيثم الجوزية ١٧٨
ابن المقفع ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٦
أبو ذر الغفاري ١١٩
أبو سلمة الخلال ١٩٦
أبو مسلم الخراساني ١٤١
أبي العتاهية ١٧٩، ١٩٨
أبيقور ١٨٤
أحمد، حسين (مولانا) ٤٤، ٦٥
أخوان علي ٤٧
أرسطو ١٨٤، ١٨٥
أسبينوزا ١٨٠، ١٨١، ١٩٤
الأشعري، أبو موسى ١١١
الأصمعي ١٦٢
أفلاطون ١٨٤
إقبال، محمد ١١١
إكس، مالكولم ٢٦٩، ٢٧٤
ألستن، روس ٣٧، ٥٨
أمين، أحمد ٢٠٥
أنطونيوس ٥٩
إنوسنس الرابع (البابا) ١٩١
أوبنهايمر، روبرت ١٤٩
أوجلان ٢٦١
أورويل ٢٥٦
أيزنهاور ١٤٨
الأيوبي، صلاح الدين ١٢٩

ب

باسكال (الفيلسوف) ١٦٤
بتلر، لي (الجنرال) ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧
برتلنج ٤٨
برونو، جيوردانو ١٧٢، ١٧٣، ١٧٨، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤
برونو، جيوفاني ١٧٣
بطليموس ١٩٣

بيتش (الكولونيل) ٤٧، ٤٨
بيكون، روجر ١٨٧
بيلاطس ٧٣، ٧٤، ١٦٤

ت

تشسترون ٥٩
تريسي، براين ٢٢٦
التوخي ١٩٦
تورين، آلان ٢٥٥
توينبي، أرنولد ٢٠٩

ج

الجاحظ ١٦٢، ١٩٥، ٢٠٥
جان دارك ١٦٩
جلبي، خالص ٩، ٢٢٣
جنكيز، خان ٢٢٢
جورج، لويد ٦٩، ٧٥
جورج (الملك) ٧٨
جوير (الكولونيل) ٤٧، ٤٨، ٧٥

ح

حافظ، هشام علي ٩
الحجاج ١٤١
الحسن، محمد (مولانا) ٤٤
الحسين بن علي ٧٤

خ

خان، عبدالغفار ٥٧
الخميني، روح الله الموسوي ٢٦٣

د

دانتي ٦٩
ديكارت ١٨٠
ديموقريطس ١٨٤
ديورانت، ويل ١٣٥، ١٧١، ١٨٩، ١٩٢، ١٩٤، ٢٣٢، ٢٣٤

ر

راسل، برتراند ٢٠٠
رينان، أرنست ٨٥

ز

زيغفريد ٨٥

س

سبنسر، أدموند ١٨٥
سذرلاند (السيدة) ١٥٨
سرفيتوس، ميشيل ١٧٧
سعيد بن جبير ١٧٩
سعيد، جودت ٩، ٨١، ١٢٥، ٢١٢، ٢٢٣
سقراط ٢٤٥
ستا (الشاعر) ٥٩
السهروردي، شهاب الدين ١٧٩

ش

شارل الثامن (الملك) ١٨٨
شريعتي، علي ٨٣، ٨٥، ٨٦، ١٢٩

ط

الطبري، ابن جرير ١٧٩

ع

عبدالحميد ٢٠٢
عبدالرحمن بن ملجم ١٢٠
العتابي ١٩٧
العز بن عبد السلام ١٧٩
علي بن أبي طالب (الإمام) ٧٨، ٧٩، ١١٣، ١٢٠، ٢٥٤
علي، شوكت ٦٢
عمران بن حطان ١٢٠
عمرو بن العاص ١٤٢
عيسى (النبي) ٥٠

غ

غاليلو ١٨٠، ١٨٨
غاندي ١٥٧، ١٥٨
غروسيه، رينيه ٢٢٢
الغزالي، أبو حامد ٢١٠، ٢٤٢
غورباتشوف ١٤٨

ف

فرويد ٨٥
الفضل بن سهل ١٩٦
الفضيل بن عمران ١٩٧
فولتير ١٨٤، ١٩١، ٢٣٥
فيليب (الملك) ١٨٩

ك

كالفن ١٧٧
كبلر (الفلكي) ١٩١
كراتشي ٣٣، ٥٤، ٥٥
كرامر، توماس ١٧٨
كربلاء ٧٤، ٧٥، ٢٢٨
كريستيان ٤١
كليمنت الثامن (البابا) ١٨٦
كليتون ١٩٣
الكواكبي، عبدالرحمن ٢٠٤
كوبرنيكوس ١٣٧، ١٨٠
كول (المستشار الألماني) ١٩٣
كولون، كيريستوبال ٢١٥
كويرباغ، أدريان ١٨٠
كيرشهوف، يوخن ١٧٢، ١٨٨، ١٩٣
كينغ، مارتن لوثر ٢٧٤

ل

ليستر، أرلي ١٨٥

م

مالك بن نبي ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤
محمد بن سلام ٢٠٥
محمد علي (مولانا) ٩، ٣٣، ٣٤، ٤٠، ٤٩، ٥٥، ٥٨، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٩، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٥

محمد (النبي) ٩٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٢، ١١٨، ١١٩، ١٢٣، ٢٧٣
مروان بن محمد ٢٠١
مروة، حسين ٢٠١
مسليه، جان (القس) ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٥
مكيافللي ٢٠٦
ملتون ٦٩
المنصور ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٥
موسى (النبي) ٧٦، ٢٤٨، ٢٥١، ٢٥٣
موسنيجو، جيوفاني ١٨٦
الموصلي، إبراهيم ١٩٨
مونتاجو (المستر) ٦٨

ن

نلسن (اللورد) ٦٣
نوح (النبي) ١٢٣
نيتشه ٨٥، ١٥١

هـ

هارفي، جبرايل ١٨٥
هشام بن عبدالملك ٢٥٣
هنري الثالث (الملك) ١٨٥
هوس، جان ١٧٧
هيجل ٨٥

و

ويلز، هـ. ج. ٤٨، ٥٠، ١٨٧، ١٨٩

ي

يحيى بن زكريا ١١٥
يزيد بن أبي سفيان ٧٤
يوحنا بولس الثاني (البابا) ١٩١
يوليوس قيصر ٥٩

فهرس الأماكن

أ

الاتحاد السوفياتي ٢٤٤، ٢٥٢
الأرجنتين ١٦٥
أريتريا ٢٢٨، ٢٦٢
أستراليا ٥٤
إسرائيل ١٤٩، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٥، ٢٠٨
أفغانستان ١٣٢، ١٣٥، ١٥٥، ١٦٥، ٢٢٨
ألمانيا ٩٩، ١٨٥، ١٩٣، ٢١٢، ٢١٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٤٤
أميركا ١٩٣، ٢١٥، ٢٧٣
أنقره ٥٥، ٥٦
إنكلترا ٥٣، ٥٤، ١٠٠
أوروبا ١٦٦، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٧، ١٩٠، ١٩٢، ٢١٥، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٥٠، ٢٦٤
إيران ١٥٣، ١٥٥، ٢٧٠
إيطاليا ١٨٤، ٢١٥، ٢٤٦

ب

باريس ٨٥
براغ ١٨٥
بريطانيا ٧٦
بلغراد ١٤٩
البنتاغون ١٤٨
بومباي ٤٧

ت

تركيا ١٥٥، ٢٠٩

ج

الجزائر ١٥٥
جنوب أفريقيا ١٥٧

ح

الحبشة ٢٦٢
الحجاز ٤٤

ر

روما ١٧٢، ١٨٧

ز

زوريخ ١٨٦

س

سنغافورة ١٥٧

سوريا ٢١٦
سويسرا ١٤٢، ١٧٧

ص

الصومال ١٣٥

ع

العالم الإسلامي ٩٩، ١٠٠، ٢٧١
العالم العربي ١٢٧، ١٤٠، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٥، ٢٤٦
العراق ٢٠٩

ف

فرانكفورت ١٨٦
فرنسا ٧٣، ١٨٤، ١٨٥

ق

قريش ١٠٨، ١٢٨
القسطنطينية ٢٢١

ك

كندا ١٥١، ٢٥٩، ٢٥٠، ٢٥٦

م

مالطا ٤٤
مصر ٤٤، ١٤٢، ٢٥١
مونتريال ١٣٩، ١٤٠

هـ

الهند ٩، ٣٣، ٣٨، ٣٩، ٤٤، ٤٥، ٤٩، ٥٠، ٥٥، ٥٦، ٧٦، ١٠٢

و

والتير ٤٣

ي

اليونان ١٢٢، ٢٢٧

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

هشام علي حافظ
جودت سعيد
خالص جلبي

أيهَا المحلفون
اللـه.. لا المَلك

اندحرت الثقافة ..
فرغت أسواق النخاسه ..
من المصفقين (المثقفين ..!)
فالكلُ يحتفظ بما عنده ..
من المصفقين (المثقفين ..!)
إلاّ القليل ..
حطّمت أقلامهمْ ..
كمّمت أفواههمْ ..
ووضعوا في السجون ..
فماتوا من ضيق التنفس ..
أو هاجروا يطلبون الحريّة ..
في أي مكانٍ ..
على الكرة الأرضيّة.

(من الكتاب)